بسم الله الرحمن الرحيم



دكتور / محمد حسينى موسى محمد الغزالى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثانية

هذا الكتاب

محاولة لامتصاص طاقة قبل أن تنفد اذ كانت بدأياتها في منحة من الله تعالى ظنها البعض محنة ، وقد يأتي الله بالخير فلا يراه الا صاحبه ، أنه محاولة لاستنطاق الأحداث ، ومعالجة النصوص في ضوء المعطيات العلمية الحديثة ، ومراجعة ماتم التوصل اليه في صياغة عصرية وبطريقة منهجية يقربها علماء الأديان .

انه محاولة ليس الا ، وشأن المحاولة أن توفق أو تخفق ، فلئن كان التوفيق هو الحليف ، فتلك أنشودة طالما تمنيت لها أن تنجو من العثرات ، من ثم فلا أراني الا على طريق فيه بجانب الوعورة بالغ الصعوبة فلهذا نوهت ، واليه نبهت .

المؤلف
(دكتور / محمد الغزالي)

الشروق للطباعة والتسطير بالزقازيق

((هكذا تتلاقى الخواطر))

طبع هذا الكتاب طبعته الأولى ، وبعد نفاذها فكرت فى اعادة الطبع ، وكان بودى أن أغير العنوان لكن ألقت الأقدار بين يدى كتاب " وميض الأدب بين غيوم السياسة " وكم نالنى التعجب ، اذ أن مؤلفه هو المرحوم الأستاذ / ابراهيم دسوقى باشا أباظة ابن قرية غزالة الخيس ، والذى ولى عدة وزارات ، وقد شرفت به أكثر من حقيبة وزارية ومن نسله الكريم جاء الأستاذ الأديب الكبير / محمد ثروت أباظة وكيل مجلس الشورى ، والأستاذ الدكتور / محمد شامل أباظة الاقتصادى المعروف ، والشاعر المطبوع ، والسياسى الذى لم يسكت على جور .

أجل العنوانان فيهما تقارب رغم تباعد سنى كل من المؤلفين ، وتباعد الاتجاهات السياسية لدى كل منهما ، لكن ماذا أنت قائل فى ترب تلك القرية التى نعم بها كلانا ، وشهدت طفولته ومراحل حياته الفكرية ، حتما ستشاركنى القول بأن هذه القرية تحمل فى أحشائها أسرارا .

بل ربما تقاسمنى التعبير بأن رحم تلك القرية مايزال قادرا على وضع أفكار متقاربة ومفكرين ربما اعتصموا برحم الزمان يوما ، أو كانوا فكرة فى ضمير الغيب آخر حتى اذا كانت لحظة الوضع فتلاقى الأصل التليد بالمراقة الوليدة تلاقى الأصل مع فرعه .

بيد أن ما يمكن قوله هو أن " وميض الأدب بين غيوم السياسة " جاء موضوعه فى أدب السياسيين أو سياسة الأدباء ، أما " وميض النصرانية " فقد جاء فى مقارنة الأديان ، فلهذا نبهت ، واليه نوهت ، ولطالب المزيد الرجوع اليهما فربما أغرته النصوص حتى دفعته الى مزيد المطالعة ، والله الهادى الى سواء السبيل .

المؤلف

دكتور / محمد الغزالى

غزالة الخيس فى غرة شهر رمضان الفضيل

١٤١٧ هـ يناير ١٩٩٧م

((مقدمة الطبعة الثانية))

الحمد لله به تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء بأتم الرسالات ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه النجوم الزاهرات ، وأرض اللهم عن التابعين الثمرات الزاكيات ومن تبعهم باحسان الى يوم العرض والعرصات..

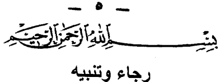
أما بعـــــد ؛

فما ان صدرت الطبعة الأولى الا ونفدت في الشهر الأول مما جعلني أفكر في اعادة الطبع وبخاصة أنها مهمة ، اذ فرقت بين مصطلحات مهمة في الأديان ، مما هو مهم لتاريخ الأديان والمقابلة .

بيد أن هذه الطبعة قد رأيت حذف بعض فصولها حتى لا أرهق القارئ في مطالعة كتاب كهذا ربما أغرته سطوره أو أرهقته كلماته ، والقارئ عادة يخلد لمطالعة هذه الوريقات أثناء أوقات راحته ، وما أقلها في هذه الظروف التي يجري الناس فيها على ألف قدم ومليون ساق وراء لقمة العيش الكريمة التي ربما أستغرقت العمر كله .

ولا أبدى دهشة بقدر ما أقدم شكراً لله على أن لاقت هذه المباحث الرقيقة نوعا من الاستقبال الفياض ، وكثيرا من المشاعر النبيلة التي كانت تطالب بالمزيد ، وأنى لمثلى أن يزيد غير الشكر لله – عز وجل – والدعاء الخالص أن يجعله المولى الكريم عنده مقبولا ، انه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف
د / محمد الغزالي



رجاء وتنبيه

قد يظن البعض من مطالعى هذا البحث . أن كل ماذكر فيه ، انما يمثل وجهة نظرى فيما تناوله من قضايا . وهذا الظن ليس بصواب لأمرين :

الأمر الاول : أن الباحث فى مقارنات الاديان ، يعنيه بالدرجة الأولى أن يذكر الآراء والمذاهب التى يؤمن بها أصحابها ، وأن يتعقب كل ذلك حتى يبين عنه أوضح بيان ، لأنه يمثل وجهة نظر أصحابه ، والأمانة العلمية توجب ذلك . ومن هنا فقد ذكرت القضايا المسيحية التى تناولتها وأبنت عنها لدى كل فرقة من طوائف المسيحية . وذكرت أدلة كل طائفة . ووجوه الاتفاق والاختلاف بينها ، وربما قويت بعضها لغلبة أدلته .

وفى القضايا التى عرضتها لدى الاسلام ، قمت على هذا المنهج . فالباحث فى الاديان لايعنيه أن يصدر أحكاما ، بقدر ما يعنيه أن يوضح اتفاقا واختلافا . وله أن يقوم على النقد والموازنة من خلال الأدلة فقط وتلك ناحية منهجية لاتتعلق باعتقاد الباحث من أية جهة فما عليه الا أن يبحث وأن يقابل ويوازن ويقارن وألا يتأثر بعقيدته الدينية التى يؤمن بها . ضمانا للحيدة وانصافا للحق ، ورفعة لشأن البحث . وهذا ما قمت به فى هذا البحث .

الأمر الثانى : اتفق العقلاء من المسلمين على أن " حاكى كلام الكفرة ليس كافرا " لأن حكاية الشئ تختلف عن اعتقاد ذلك الشئ وبالتالى فان ما جاء بهذا الوميض موافقا لجماعة المسلمين فهو مذهبى ، وما جاءت به نصوص القرآن الكريم ، وأقره رجال التفسير والتأويل دون خلاف فيه فهوغايتى ، وما تواترت به السنة المطهرة الصحيحة وأقره علماء الحديث الشريف الموثوق بهم المعتد باستنباطهم فهو اعتقادى ، ولست مسؤلا-من جهة اعتقادى-عن ما يرد مخالفا لتلك وانما مسؤليتى عنه من جهة نقله ونسبته الى أصحابه وتغليب الأدلة فقط .

ولعل الذين يلتحفون العجز ، ويفترشون الحقد يراجعون أنفسهم ، فلا يتعجلون فى اصدار الاحكام على عقائد الناس ، وأن يفرقوا بين معتقدات الناس وحكاياتهم عن غيرهم لأن فن الرواية أصيل فى الفكر الانسانى ، والحكاية عرفها العقل البشرى أمما لم ترتضع ألبانها وتمرد بعض الوقت على صدرها ، ولكنها كانت تجذبه من آن لآخر ، فهذا ماقصدت وله رجوت وعليه نبهت .

والله الهادى والموفق ... ،،،



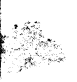
المقدمـــة

الحمـد للـه ، الواحـد الأحـد ، الفــرد الصمـد ، المــنزه عــن الشــبيه والشـريك والصاحبـة والولـد ، تقدسـت ذاتـه وتحققـت كمالاتــه ، فليـس كمثلــه شئ وهـو السـميع البصيـر . وأشـهد أن لا إلـه إلا اللــه وحــده ، لاشـريك لــه وأشــهد أن سـيدنا محمـدا رسـول اللــه وخــاتم رســله ، و أفضــل خلقــه ، صــاحب الشـفاعة العظمــى والســراج المنـير ، اللهـم صلــى وسـلم وبــارك عليـه وعلـى آلـه وأصحابـه النجـوم الزواهـر والتــابعين ومــن تبعهـم بإحســان إلى يـوم الديـن .

أمـا بــعد ،،

فــان الحديــث فــى مقارنــات الأديــان- إن صــح التعبـير- بعيـد المنــال ، تكتنفــه المزالــق ، ويلفــه الغمــوض ، وتدفــع إليــه الصعوبــات وقــد يتكلــف البـاحث فيـه الجهـد الطويـل ، الـذى يسـتغرقه ووقتـه جميعـا ، بيـد أنــه علــم- مقارنــة الأديــان- يســتحوذ علــى منشــطات الفكــر ومعضــدات الذهــن ، لمــا فيـه مـن مقارنـات مدققـة ، وتفـاصيل لابـد أن تكـون محققــة وأدلــة لابـد مـن الرجـوع بهـا إلـى مصادرهـا الموثقـة.

وغالبـا يحجـم الكثـيرون عنــه ، ويلـوذون الــى غـيره ، واثقيـن أن مــا لديهم لـن يكـون مجديـا ، والماديـات النـى ينتظرونهـا لـن تكـون كافيـة فكـم مــن كــاتب اسـتخدم قلمــه آمــلا الوفـير مـن المـال ، للوثـير مـن الفــراش والنـاعم من الـزوج ، والهـادئ من الولـد ، والملـذ مـن المطعـم والمشـرب ، والمؤلف فى مقارنــة الأديـان كعلـم لايتحقـق لـه شئ مـن هـذا .



وغير الذى سلف ، هناك من يتخذه تجارة ، فيقوم فيه بغير أداة ، ويدخل اليه دون روية ، فتأتى نتائجه بلا مقدمات بدهية ، أو ما فى قوتها المنطقية ، وتكون النهاية ، أنه نقل فكر غيره ، وجمعه فى مؤلف واحد ، دون تمحيص يتطلبه ، ولا تحقيق هو الأصل فيه ، وكثيرون ساروا على هذا الدرب ، فجاءت كتابات بعضهم فيها من القصور ما لا يمكن دفعه ، ومن النقص ما لا يجدى جبره .

ولما كان علم مقارنة الأديان ، يقتضى- بالضرورة- ، النظر إلى الأدلة وجبت على الباحث فيه أمور عدة حتى تأتى قضاياه مسلمة ونتائجه مقبولة - وتلك **الأمور هى** :-

١- ألايتعصب الباحث فيه الى رأى ، مالم تغلب أدلتة .

٢- ألايتحيز لقوم ، ولو كانوا قرناءه فيما يعتقد .

٣- ألايتعجل فيدلي مسبقا بحكم .

٤- أن يرجح من الآراء ما تكون أدلته الى القبول أقرب ، والصواب أتم .

٥- أن تكون نتائجه ومقدماته قد انتزعها من نصوص أصحابها ، أو ألزمهم بها ولم يتمكنوا من دفعها ، بصحيح العقل وصريح النقل اوبهما معا.

٦- أن يلتزم الحيدة ، وأن يعلن عن الأدلة التي جعلته يميل الى هذا الرأى دون غيره .

ولما كانت هذه الامور عسيرة المنال ، كان السير فى علم مقارنة الأديان وعرا ، غير مذلل الصعاب ، ولما كان الباحث فيه ليس بمأمن



من الانزلاق الى الرأى الذى يعتقد ، فأنه يحاول النجاة وقد تصل به سفينته الى شاطىء النجاة ، بعد طول انتظار ومعاناة.

وعلم مقارنة الأديان الأن ينـدر القيام بـه ، والعمل فيه ، ونجد البعض- رغم قلة الاداة - يدعيه ، ونحب أن ننوه هنا لأمور، وننبه عليها .

الأمر الاول : علم التأريخ للأديان.

وهو علم يقوم على جمع المعلومات ، عن كل دين على حدة ، حسب ما تدلى به النصوص كالمراسل فى المعارك الحربية ، والمصور لها مهمته تنحصر فى جمع المعلومات وتوصيلها ، وهو علم تاريخى على أحسن تقدير .

وبالتالى ، فهو قديم فى البيئة الإسلامية قدمها ، وربما هى أول البيئات معرفة له ، واحاطة به ، حتى يمكن القول بأن علم االتأريخ للأديان من ابتكار الفكر الاسلامى الاصيل ، بكل ما فيه من دقة وانتظام ، ومن أبرز ممثلى الباحثين فيه:

١- الامام الشهرستانى وكتابه الشهير " الملل والنحل " ويقرر فيه ما قعدنا له فيقول " وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم ، من غير تعصب لهم ، ولاكسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله[١] ومن هنا فهو كتاب تأريخ للاديان ، لامقارنة الأديان .



---

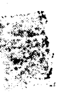
(١) المقدمة الثانية فى تعيين قانون ينبى عليه تعديد الفرق الاسلامية الملل والنحل صـ١٤ - تحقيق الأستاذ عبدالعزيز محمد الوكيل مؤسسة الحلبى.

٢- الامام الأسفرايني وكتابه ، التبصير في الدين وبيان الفرقة الناجية ، وان كان عنوان الكتاب يوحي بأنه في مجال مقارنة الأديان سيدخل ، إلا أن موضوعاته جاءت حصرا وتعدادا للفرق والمذاهب ، وان كان ذلك بنوع من العناية .

٣- الامام البغدادي - الفرقْ بين الفرق

٤- الامام ابن حزم - الفصل في الملل والأهواء والنحل .

ولعل القوم كانت لديهم الملكة ، التي يقوم عليها علم المقارنة ، ولكنهم لجأوا الى التأريخ خشية العامة ، أو لعدم توافر الحرية العقلية ، في ظل ظروف سياسية ، يكون المحكوم فيها قِنّا لحاكمه والمفكر صيدا معقولا لطاعمه .



الأمر الثاني : علم مقارنة الأديان .

وهو علم يقوم على جمع المعلومات الخاصة بكل دين أو مذهب أونحلة ويقارن بينهما من حيث :

١- مصدرها وصحة انتسابه الى السماء - ان كانت ديانة سماوية - وصحة انتسابها الى أصحابها - ان كانت وضعية .

٢-البحث في النصوص ، وبيان ما اذا كان فيها اختلاف من عدمه ، وهل يمكن التوفيق في حالة وجود الاختلاف ؟ لأن الاختلاف في النصوص - اذا لم يمكن التوفيق بينها بصورة مقبولة عقلا أو نقلا - ، يكون دليلا على كذب النصوص ، وسبيلا الى عدم الاعتداد بها ، كما في اليهودية والمسيحية ، وبالتالي تسقط دعوى كونها سماوية ، أومن

عنـد اللـه عـن طريـق الوحـى ، اذ أن مـا كـان من عند اللـه ، لايوجـد فيـه اختـلاف ولا فـى ظـاهره يصعب فيه التوفيق أبـدا .

٣- البحث فـى الظواهر الخاصـة بكـل ديـن علـى حدة ، وبيـان مـا اذا كـان لها شبيه فـى ديـن آخـر مـن عدمـه ، ومـا اذا كـانت أصيلـة فيـه ، أو مـأخوذة عـن غيره ، كمـا فـى قصـة أشتار البوذيـة ، التـى هـى صـورة غير ناضجـة مـن أم يسـوع فــى المسـيحية ، وكمــا فــى تصويــر اللحظـات الأخـيرة قبـل مجئ اليوم الآخر ، عنـد أصحــاب العقيـدة الأشـتارية ، وأصحــاب العقيـدة الألفيـة .

٤- دراسـة الأصـول الخاصـة بكـل ديـن أو مذهـب أو نحلـة التـى قـام عليهـا - دون وثـوق فيهـا - مـن حيـث اعتقادهـا ، صحـــة أوكذبــا ، بمعنـــى أن يكـون مفرغـا مـن كـل حكـم سـابق - غـير دينـه المعتقـد - وبشـرط أن ينزلـه للبحـث أيضـا شـأن غيره متـى لـزم الأمـر ، وبيـان مـدى كـون هـذه الأصـــول ثابتـة لـه أو مشـاركة فيـه غـيره ، كمــا فــى عقيـدة تقديـس الحيـة والصليـب عنـد اليهـود واتبـاع المسيحية ، و تقديـس العجـل ومشـاركة ابـن أتـان لـه فـى هـذه المنزلـة عندهمـا أيضـا .

٥- الأستعانة بالمصـــادر المضافـة الـى المصـــادر الأولـى ، لبيـان التطـور الـذى دخـل علـى النصـوص والعقيـدة مـن عدمـه ، فقـد تكـون المصـــادر الأولـى مؤقتـة مقيـدة فتـأتي المضافـة لتؤيدهـا وتطلقهـا ، كمـا فـى شـــأن المسـيحية فـان النصـوص الأولـى عندهـم جعلتهـا مؤقتـة حتـى يـأتى الفـــارقليط وهـو ســـيدنا محمـــد ﷺ ، الـــذى هـــو مـــن نسـل اســماعيل فـــى بشـــارة ابراهيـم عليه السلام . ثـم جـاءت النصـوص المضافـة - رسـائل بولـس وأعمـال الرسـل - فجعلتهـا مؤبـدة ، وأن النبـى الآتـى بعـده لايجـب الايمـان بـه ،

وهذا دفع من النصوص المضافة الى التكذيب بالمصادر الاولى مما يسقطها معا .

كذلك جاءت المصادر الاولى عندهم ، فجعلتها " لخراف بيت اسرائيل الضالة " ثم جاءت المصادر المضافة ، فجعلتها لكل مكان تصل اليه من الارض أو السماء ، حتى نشط أتباع المسيحية أملين غزو الفضاء ليحملوا اليه رسالة المحبة عندهم والسلام ، وهذا فى حد ذاته يجعل النصوص الأولى والمضافة مما لايمكن قبولها جميعا .

وهناك أمثلة عدة نورد منها عل سبيل المثال :

أ- جاءت توراة موسى فطلبت من اليهود ، أن يؤمنوا بالاله الواحد المنزه عن كل مثيل ، المتفرد بكل كمال وجلال ، فجاءت الأسفار لتشرك به غيره ، وتجعل العجل معبودا من دونه ، ثم تقيده جل وعلا فتجعل يده مغلولة ، بل تلصق به صفات العجز ، فيصارعه عبد من عبيده ويهزم خالقه ، حتى صار من المؤكد أن عبادة اليهود عبادة مادية فقط جعلتهم يطالبون برؤية الله جهرة

ب- جاءت التوراة الموسوية لتقول لأتباعه، إن أنبياء بنى اسرائيل ، لم يأت بعد آخرهم ، وانه المسيح المنتظر ، ورسمت التوراة له عدة ملامح فلما جاءهم طوروا فى النصوص حتى لاتنطبق عليه ، ويكونوا فى حل من اتباعه ، بحجة أنه ليس الموعود به فى الكتب وأغروا صدر الحاكم عليه ، وتمنوا لو أن أيديهم تمكنت منه لغسلوا أيديهم بدمه ولكن الله لم يمكنهم منه .



ج- جاء عيسى عليه السلام لبنى اسرائيل يخبرهم أنه عبدالله ورسوله ، وأنه آخر حلقة فى أنبياء بنى اسرائيل ، وأن العالم بعده صار مستعدا لقبول النبوة الأخيرة من نسل اسماعيل سيدنا محمد ﷺ .

الا أن أتباعه شادوا على ذكره لأنفسهم ماشادوا ، فجاءت رسائلهم ومجامعهم ومؤتمراتهم على غير ماذكرت أولى مصادرهم فجعلوا :

١- الاله ثالث ثلاثة " قضية التثليث "

ولهم فى اثباتها كلام كثير طويل ، ينقض باذن الله تعالى بسهولة ويسر .

٢- جعلوا عيسى لكل العالم إلى الأبد " قضية الأبدية " .

وهم يوهمون فيها بقدر ما يمكنهم ، ألا أنها لا سند يقف خلفها ، وقد نقضها القرآن الكريم وجاء خاتم النبيين ، سيدنا محمدﷺ وبالتالى فقد سقطت دعواهم فى الأبدية .

٣- قضية الصلب والفداء

ولهم فيها أدلة جدلية لاتقوم على برهان واحد ، والقرآن الكريم أبان عن كذبها فى قوله تعالى " وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ".

٤- قضية الأبوة والبنوة .

وهى تكذيب ما بعده تكذيب ، حتى على القول بأنها من باب المجاز .

٥- قضية القيامة :

وهى أسطورة خيالية ، تنقصها الحبكة الفنية وتطور الحدث .

٦- الرفـع والـنزول .

وهمـا بصورتيهمـا فـى المسيحية طبـق الأصـل منهـا فـــى البوذيـة . وهـذا كلـه ممـا أفقـد المصـدر الأول الثقـة فيـه ، والمصـدر الثـانى كـــان التكذيـب من حظـه .

وعلـم مقارنـة الأديـان ، لـه فـى الفكـر الاســلامى قـدم ثابتـة ، فقـد وجـد فـى ثنايــا كتابـات المفكريـن المسـلمين فالامــام ابــن تيميـة يفـرد لـه كتابــا ضخمـا تحـت عنـوان " الجـواب الصحيـح لمـن بـدل ديـن المسـيح " ، وتـأتى المقارنـة فيـه علـى شـكل أسئلة واستشـعارات وأجوبـة ، ثـم يـأتى بعـده تلميـذه الامـام ابـن القيـم فيكتـب " هدايـة الحيـارى فـــى أجوبـة اليهـود والنصــارى " ، وتتــابعت المؤلفــات حتــى جــاء العصــر الحديــث فظهــرت الكتابــات المسـتقلة فـى علـم مقارنـة الأديـان ، لكنهـا خلـت مـن وضـع قواعـد هـذا العلـم بصـورة تنظيميـة أو عمليــة .

وأبـان غـروب شــمس القــرن التاسـع عشـر جـاء الأفغـانى ومدرسـته ، والأمـام محمـد عبـده وتلميذه الشيخ محمـد رشـيد رضـا ، حيـث شـادوا لهـذا العلـم بنيانـه وقعـدوا لـه فـى الشـرق قواعـده بصـورة عمليـة وتنظيميـة .

بينمـا راح الغـرب علـى يـد مـاكس مولـر ، وشـيلر ، يحـاول وضـــع قواعـد لهـذا العلـم عندهـم ، بـل وخصصـوا جوائـز ماليـة لمـن يقـوم بالدراسـة فيـه ، وقـد نشـط المستشـرقون فـأدخلوا فـى الأديـان - مـن حيـث مقارنتهـا - الكثـير مــن العبـادات وقـارنوا بينهـا ، ووسـعوا موضـــوع العلـم ، وجــل غرضهـم أن يثبتـوا نوعـا مـن المعادلـة بيــن رسـالة الإســلام الخـالدة ، التـى قـام بهـا المسـلمون علـى أكمـل وجـه متبعيـن هـدى نبيهـم خـاتم رسـل اللـه ،

سيدنا محمد ﷺ ، وبين تلك التى وضعها أتباع الديانات السابقة ، التى انتهت كرسالة ودستور .

الأمر الثالث : علم تاريخ الأديان

وهو الذى يضبط حركة الأديان عبر مرورها بالسنوات والأحداث التى تمت لصالح الدين أوعليه ، وهو علم قديم بعض الشئ ، لأنه يقوم على أستنطاق الأحداث اليومية والحوادث الزمانية ، مع مراعاة جانب واحد هو الذى تقوم عليه روايته .

وهذا العلم له فى الغرب قدم ثابتة ، ويد طولى إذ قامت عليه أغلب مدارس أوربا اللاهوتية حتى وجدنا كتبا كثيرة تحمله كأسم خاص بها ، أو علم نمت فى أحضانه فرأينا مثلا :

كتاب تاريخ الأديان .

كتاب تاريخ اليهودية .

كتاب تاريخ النصرانية .

كتاب تاريخ الكنيسة .

كتاب تاريخ الكتاب المقدس .

وكلها وأمثالها كتب تاريخ لاتهتم إلا بهذا الجانب ، لكن المسألة أن يقال : تاريخ أديان فاضافة الأديان الى التاريخ هى التى جعلت المسألة أكثر عمقا وأصعب تناولا . وقد استفاد من هذا الموقف كتاب كثيرون ، كانوا مؤرخين للفكر الإنسانى فى جانب منه ثم اتسع تناولهم للأمر فأنتدبوا أنفسهم مؤرخى أديان .

الأمر الرابع : علم مقابلة الأديان

ومقابلة الأديان علم يهتم باقامة الدين كله فى مواجهة دين أخر كله بمعنى أن يقابل مثلا بين اليهودية كلها ، دينا ، وكتابا ، ورسلا ، وشريعة ، وتاريخا ، وثباتا أوتطورا . ثم يأتى بالنصرانية كلها كتابا ودينا ، ورسلا وشريعة ، وتاريخا وثباتا أوتطورا ، ثم يضع الدينين فى مقابلة كل منهما للآخر ، وبالتالى فهو يقابل بين الأديان ككل ، على عكس ما يصنع صاحب المقارنة بين الأديان .

فهو حين يقابل بين الأديان لايتناول عقيدة منها وحدها ، أوجملة من العقائد ويترك الشريعة ولكنه يتناولها كلها جملة . ويأتى بالثانية جملة كذلك ثم يقيم بينها نوعا من المقابلة وكذلك قد تحدث بين دينيين أوبين أديان كثيرة ، كمن يقابل بين كل من

١- البوذية .

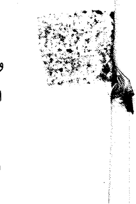
٢- الزرادشتية .

٣- الكونفوشيوسية

٤- المانوية .

وعلم مقابلة الأديان فيه مجهود عقلى كبير ، لابد أن يقوم صاحبه به على نحو ثابت أكيد فلا تخضع دراساته لعامل العقيدة الذى يعتنقه ، ولا للفكر الذى يغذى جوانحه ، وانما لابد له من التخلى مؤقتا عن هذه الأمور التى عاش فى رحابها طيلة عمره ، وحكمت سلوكه وتصرفاته .

ولذلك فإن الديانة الأشتارية ، اذا وقف منها صاحب مقابلة الأديان ففحص عقيدة أشتار ، وترك باقى العقائد لايكون مقابلا بين الأديان ،



وانما يكون ذاكرا عقيدة واحدة ليس الا ، ولايدخل هذا فى عمل مقارنة الأديان أو المقابلة بقدر ما يكون داخلا فى صلب تاريخ الأديان .

وأنوه الى أن الدراسات اللاهوتية ، أو الميتافيزيقية ، أو علم الكلام والتوحيد لاتدخل كلها فى مقارنات أو مقابلات أو تاريخ أوتأريخ الأديان ، أنما تدخل فى صميم علم الكلام الإسلامى عند المسلمين ، أو هو علم التوحيد عندهم الذى نقف له نشرح قضاياه ومضمون مسائله والفرق بين الأمرين كبير .

وربما يقال : ما موقع " كتاب الأجوبة الفاخرة من الأسئلة الفاجرة " للامام القرافى مثلا من هذه الأمور الأربعة ؟ أوكتاب مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الايمان للخزرجى ؟ والجواب :

أنها تمثل أسئلة و أجوبة ، أو اعترضات وأسئلة ، ومن ثم فيمكنها أن تتناول التاريخ ثم تتجاوزه الى التأريخ ، أوتتناول المقارنة ثم تتعداه الى المقابلة طبقا لتخصص المؤلف وسعة اطلاعه ، وقدرته على ادارة الحوارات من داخل النصوص ، وامكانياته فى انتزاع الأسئلة والأجوبة من باطن واحد هو النقل المعتمد بالنسبة للأقوام الذين يحاول الوقوف معهم على أثارهم . التى هى بالنسبة له موضع البحث والمقارنة أوموضع التدقيق والمقابلة .



نقطة أخيرة تقوم على مايلى :

١- هذه محاولة فى مجال المقارنة ، من خلال قواعد العلم فى الشرق والغرب على أنها خطوة ستعقبها باذن الله خطوات .

٢-اخترت التعبير عن النصرانيه بالمسيحية ، حتى يتم التاكيد على ان رسالة عيسى قد انتهت ، وبالتالى انتهت النصرانية ، التى هى دين السماء ، وان الباقية هى المسيحية ، وهى دين وضعى على أحسن تقدير ، قام به بولس ومن جاء بعده ولذلك حاولت إبانة وميض النصرانية من غيوم المسيحية .

٣- قابلت بين النصوص وقارنت بعيدا عن أى تأثر خارجى ، وما قصدت بذلك الإساءة الى أحد أو الوقوع فيه ، وانما اظهار الحق والحق وحده .

٤- جعلت عنوان الكتاب " وميض النصرانية بين غيوم المسيحية " ليكون فى باب الأدب أدخل ، وإليه بعد علم المقارنة أقرب وحتى يكون القارئ الفاضل على علم مسبق بأنه مادام وميضا ، فسيسطع ضوؤه على ما نجد أنه أولى .

٥- أن ما نسجله بعد هذه المقدمة ، هو الجزء الأول بأبوابه الثلاثة وفصوله الأحد عشر ، وسيتلوه بإذن الله الجزء الثانى ، ثم الثالث حتى تكون الأمور على بينة .

والله حسبى فله الشكر ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور

محمد حسينى موسى محمد الغزالى

غزالة الخيس – مركز الزقازيق غرة رمضان المعظم ١٤١٧ هـ

الباب الأول

عيسى عليه السلام بين البشارة والحمل

الفصل الأول

نشأة مريم رضى الله عنها

تمهيد

الحديث في مقارنات الأديان وعنها ، تحوطه المزالق ، وتكتنف أرجاءه ألوان الغموض ، وغالبا ما تغطى جنباته بباقات من الورود وتزان بالكواعب من الخمائل ، وبين هذه وتلك يجد الباحث (في مقارنات الأديان) عسرا في أن يخط لنفسه بين السالفين طريقا ، لايأخذ به نحو التعاطف أويسلمه الى التشدد ، أويلقى به في أحضان تقاليد دينه الذى يعتنق .

ولما كان الباحث في مقارنات الأديان ، يجب أن يتحلى بالحكم النزيه وأن يحلل ما يراه في ضوء نصوص ذلك الدين من خلال ما ترمى اليه ، كان عليه أيضا أن يتحرى دقة المصادر وصحة انتسابها الى أصحابها ، حتى لا يقع في زيف غير مقصود من جانبه ، وأن يعمل قدر طاقته حتى يتأكد من شعائر أتباع ذلك الدين ، وما اذا كانت تنطبق على عقائده ونصوصه أولا تنطبق ، وهذا مادفعني الى الكتابة عن النصرانية والمسيحية في محاولة لمعرفة العلاقة بينهما ، وأصل كل منهما ومصدره.

وسيكون النص وقراءته وشروحه ومراميه هو الأصل الذى أعول عليه ، ومتى كان خاليا من الانتقادات سألمح اليه ، وحيث اعترته وجوه نقص أوعدم أتفاق سأنبه اليه ، وأقف عليها ما تمكنت الى ذلك من سبيل تلك ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فان الحديث عن عيسى عليه السلام يقتضى الموازنة والمقارنة بين أخبار السماء والأرض ، ومن هنا فان القرآن

الكريم والسنة المطهرة سيكون لهما مكانتهما من البحث والحكم الى الله وحده فى قضية غلب عليها طابع الفكر وغاب عن أكثرها أصل الدين وجوهر خبر السماء ، ومتى سلمت الأناجيل قبلت ومنى انتقصت رفضت وذاك منهج أقوم عليه فى هذا البحث .

لأنه صار من المعلوم لدى الباحثين أن النصرانية الحقة قد اختفت تماما ولم يعد لها أدنى وجود ، حتى الوجود الاسمى فقد جاءت المسيحية - مع أنها وضعية- لتغيير كل ملامح الديانة النصرانية ، ولتحل بدلا منها مع الفارق الكبير بين دين أنزله الله على عيسى عليه السلام وهو النصرانية وبين دين اخترعه أفراد وساقوا الناس اليه بصورة أو أخرى ، وهو المسيحية وكان المدبر لها هو المفكر اليهودى الأصل شاؤل الذى ادعى المسيحية ليقيمها على أنقاض النصرانية ، ولذا قلت أنها قضية غلب عليها طابع الفكر ، وغاب عن أكثرها أصل الدين الحق ، من ثم فلا مناص من القول بان المسيحية غير النصرانية امر تقتضيه طبيعة البحث العلمى وتقضى به الدراسة السليمة .

نشأة مريم رضى الله عنها

أم مريم بين الأمل والرجاء:[١]

غالبا ما يحلو للباحثين فى مقارنات الأديان وعلى الخصوص فى النصرانية- أن يزودوا القارئ بحديث طويل عن العذراء مريم (أم عيسى) من حيث دعوة أمها لله تعالى وابتهالها له ، أن يرزقها (حِنّة) ما تقرُّ به عينها ويصل الى شاطئ الأمان حائر فؤادها ، ويكتبون فى ذلك الصفحات ، وكأن الحديث عن ميلاد عيسى عليه السلام يقتضى بالضروره الحديث عن ميلاد أمه العذراء البتول ، حتى لكأن معجزة عيسى فى ميلاده ، وكونه من غير أب هى مسبوقة بارهاصات منها أن أمه ولدت من زوجين بلغا من الأمل فى الوليد غايته ، ومن العمر أرذله ، وما ذلك إلا لأن امها (حنة) كانت قد ولدت مريم وهى عاقر على خلاف المعهود.[٢]

ولا شك أن أم مريم حنة بنت فاقوذا ، قد فاضت مجامع صبرها ونفذ كل ما فى أمرها آمله أن تكون لها الذرية ، ولما زاد الأمل ، ولم يتحقق الرجاء ، هبت ترفع الى ربها اكفها ، ان هى رزقت الولد لتجعلنه خادما لله محررا ، وقيل إن سبب قول امرأة عمران هذا ، أنها كانت كبيرة لاتلد ، وكانوا أهل بيت من الله بمكانة .[٣]

فلما جاء حملها بأنثى كفكفت دموعها ، وناجت ربها وهو عليم بحالها أن تلتزم بما وعدت مع علمها بأن ما رزقت به انثى وتضرعت الى ربها

---

(١) الفخر الرازى - مفاتيح الغيب ص ٤٣٥ - وأبو حيان - البحر المحيط ج ٤ ص ٤٣٦ ، القرطبى ج ٤ ص ٦٥ .

(٢) الامام محمد عبده والشيخ رشيد رضا تفسير المنار ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٣) الامام القرطبى الجامع لاحكام القرآن ج ٤ ص ٦٦ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

أن يقبل منها ما نذرت وأن يباعد بينها (مريم) وبين الشيطان الرجيم .

وهنا نلمح ما ذكره القصص القرآنى فى أسلوبه البديع حين يتلو على أسماع الزمان وفى عقول العاقلين " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(١) " إنك انت السميع لتضرعى وندائى ، العليم بما فى ضميرى وقلبى ونيتى " (٢) .

" فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى " وهذا القول منها يفيد فى نفسها انشاء التحزن " (٣) وقال ابن عباس " انما قالت هذا لأنه لم يكن يقبل فى النذر الا الذكور وقبل الله مريم "(٤) " والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى ، وانى سميتها مريم ، واسم مريم فى لغتهم له مدلول دينى يفيد التفاؤل لصاحبه بالخير والعبادة الخالصة والتقرب لله تعالى .

قال القرطبى : مريم " يعنى خادم الرب فى لغتهم " (٥) وقال الفخر الرازى " ومريم فى لغتهم معناه العابدة ، أرادت (أم مريم) بهذه التسمية التفاؤل لها بالخير والتقرب الى الله تعالى ، والتضرع اليه ، بأن يكون فعلها مطابقا لاسمها " (٦)



---

(١) سورة آل عمران الايات ٣٣-٣٥
(٢) الفخر الرازى - مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٤٣٥ .
(٣) الدكتور / سليمان دنيا الشيخ محمد عبده بين المتكلمين والفلاسفة القسم الثانى صـ ٥٣٥ طبعة عيسى الحلبى .
(٤) الإمام القرطبى الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ صـ ٦٧ .
(٥) المرجع السابق صـ ٦٨ .
(٦) الفخر الرازى ، مفاتيح الغيب جـ ٢ صـ ٤٣٩ .

وكانت جنّة على أمل فياض ، أن يباعد الله بين مريم وذريتها من جهة وبين مصدر السوء ، ونذير التعاسة ، ومقدم الشرور : الشيطان الرجيم/من جهة اخرى ، وهنا نلمح جمال التعبير ، وصدق النية ، وحماس الضمير الخالص فتزكو عند الله وهذا مايوجه اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا "، قال القرطبى : " وكفلها زكريا ، أى ضمها اليه وقال ابو عبيدة ، ضَمِنَ القيام بها ، وقرأ الكوفيون وكفلها بالتشديد ٠٠٠٠ أى الزمه كفالتها وقدر ذلك عليه ويسره له [١] " وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف " كفلها زكريا جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها " [٢] .

وزكريا هذا هو النبى الاسرائيلى ، الذى كان زوجا لخالة مريم وصديقا لعمران والدها أحد احبار بنى اسرائيل وقد وقع عليها سهمه فكفلها وقصّ علينا القرآن ذلك الخبر فى قوله تعالى " ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون " [٣] وظل يحفل بها طالما كانت فى كفالته ، وكانت " كُلّما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ".[٤]

---

(١) القرطبى - الجامع لأحكام القران جـ ٤ صـ ٧٠ .

(٢) الشيخ حسانين محمد مخلوف - المفتى الأسبق - كلمات القران تفسير وبيان صـ ٣٨ .

(٣) سورة ال عمران الاية ٤٤ .

(٤) سورة ال عمران الاية ٣٧ .

والواقع انه لايختلف فى التحدث بتلك السيرة – التى مضى ذكرها ، وربط تلك السلسلة – كثير " من الباحثين ، وهم على السواء القدامى منهم والمحدثون ، سواء كانوا من المتخصصين فى دراسة العقائد أم من المفسرين أو كانوا من أصحاب السير والمؤرخين فأنهم جميعا – اثناء الحديث عن ميلاد عيسى عليه السلام – يربطون بينه وبين ميلاد أمه ، بسلسلة طويلة من الأمانى الحلوة والذكريات العذبة ويوثقون عرى هذه بما كان بين نبى الله زكريا عليه السلام وابنه يحيى ذلك السيد الحصور النبى من الصالحين ، وكأن الباحثين يريدون أن يدخلوا الى قلب القارىء وصدره ووجدانه بحلقة كاملة من انبياء الله لبنى اسرائيل .

وها نحن سنفارق الجمع ونبدأ الحديث عن عيسى عليه السلام (منذ شبت أمه) مريم – فتاة طاهرة تعبد ربها وتوشك رغائب الأمومة أن تتحرك فى صدرها،وسيكون حبل الاعتصام هو كتاب الله ، والسند سنة رسوله ﷺ محمد بن عبدالله الصادق الامين، أما الكتابات الاخرى فسيكون لها مكانها من البحث وبقدر أثرها الذى خلفته فقط ، حتى يقف القارىء الفاضل ، على واضح رؤية وكامل بينة والله الهادى .

مريم فى الهيكل

وفاء بوعد امرأة عمران (حنة بنت فاقوذا) أدخلت مريم ، أم عيسى عليه السلام الهيكل خادمة فيه ، منذ طفولتها الاولى ، وكانت مريم فى طورها الاول تدنو منها ملامح أصطفاء الله لها ، فلم تكن كغيرها من اترابها ، بل عاشت فى الطهر والقداسة ، بعيدة عن الدنس " لايجد الشيطان سبيلا أو منفذا ينفذ الى النفس منها ، تمهيدا لأمر جليل قد اصطفاها الله له دون العالمين [1] •

وكانت كفالة النبى زكريا لها " بعد أن وقع سهمه عليه وكان قد تنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت أمامهم وصاحب قربانه " [2] ورعايته اياها فرصة متاحة لتنمو فيها ملكات العفة وتستقر على سواحل أمنها سفن الهداية فأعدت مريم لما نيط بها وتمكن داخلها بما هيأت له العناية ، ورسمت فى فؤادها صورة نقية كاملة حتى ان عناية الله لها كانت اغراء لغيرها ، أن يرجو من الله مطلبا كم عزّ نواله ، وأملاً كمْ ترددت فى الصدر اصداؤه ، ذلك هو مطلب النبى زكريا عليه السلام فى وريث للشريعة يرثه ويرث من آل يعقوب وقد استجاب الله لندائه •

وقد اختلف الباحثون فى صلة زكريا بمريم على أقوال منها :

١- قال قوم أنه زوج اختها •

٢- وقال قوم اخرون انه زوج خالتها •

---

(١) الشيخ / محمد أبو زهرة - محاضرات فى النصرانية صـ ١٢ .

(٢) الإمام الخازن لباب التأويل جـ١ صـ ٢٩٨ .

أصحاب الرأى الاول : ربما مالوا الى ماذكره لوقا فى انجيله من بشارة مريم بيسوع (عيسى) " وهوذا اليصابات نسيبتك وهى ايضا حبلى بأبن فى شيخوختها " (١) وكانت مريم " فى كفالة زوج اختها زكريا عليه السلام " (٢).

أما اصحاب الرأى الثانى : القائل أنه زوج خالتها ، فهم كثرة ولهم سند قوى منهم :

١- الامام الطبرى الذى يقرر" أن المقطوع به فى التاريخ أن زكريا وعمران أبا مريم ، كانا متزوجين بأختين أحدهما عند زكريا ، وهى أم يحيى ، والأخرى عند عمران وهى أم مريم فمات عمران وأم مريم حامل بمريم " (٣) .

٢- الرسالات الكبرى للسيدة سنية قراعة ، تؤكد **أن** زكريا بن برخيا كان ممن يخدمون الهيكل ، فجاءته يوما امرأة عمران أخت زوجته لتقدم له ابنتها مريم التى نذرتها لخدمة الهيكل " (٤) .

٣- الدكتور عبدالمتعال الصعيدى ، يؤكد أن " اليصابات " هى أخت حنة " (٥) وخالة مريم " .

٤- الامام الخازن يؤكد " أن زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت ايشاع -اليصابات - بنت فاقوذا وهى أم يحيى عند زكريا وكانت حنة بنت فاقوذا أخت ايشاع عند عمران ، وهى أم مريم " (٦).

---

(١) لوقا ٣٦/١ ومن هؤلاء الدكتور رفقى زاهر فى كتابه صـ ١٣٨ .

(٢) قصة الأديان صـ ١٣٨ والدر المنثور " وكانت اخت مريم تحته "

(٣) الامام الطبرى - تاريخ الطبرى جـ٢ صـ ١٣ .

(٤) الاستاذة / سنية قراعة الرسالات الكبرى صـ ٢٦٦ .

(٥) الدكتور / عبد المتعال الصعيدى لماذا أنا مسلم ؟ صـ ٦٩ .

(٦) الامام الخازن - لباب التأويل جـ١ صـ ٢٩٧ .

٥- صحيح البخارى فى حديث الاسراء يؤكد ذلك والقرطبى وكثير غيرهما ، يؤكدون على أن زكريا عليه السلام ، كان زوجا لخالة مريم وهو الذى أميل اليه وقد رجحه الامام الفخر الرازى ٠ (١)

وعلى كل فان زكريا كان يتردد على مريم كثيرا فى الهيكل الذى جعله لها ولايصل اليها أحد سواه وكان كلما تردد عليها وجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء ، وكان كلما سألها عن مصدر ذلك كان جوابها بالاحالة على مشيئة الخالق سبحانه وتعالى ، وقد قص القرآن علينا ذلك فقال تعالى : " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله أن الله يرزق من يشاء بغير حساب " (٢)٠

ومن هنا فأن زكريا عليه السلام قد " أغراه ظهور الفاكهة فى غير أوانها أن يسأل الله غلاما زكيا ، يرثه ويرث من آل يعقوب ، على الرغم من كبر سنه ، وعقم زوجه اليصابات وتفتحت ابواب السماء لدعاء الشيخ ٠٠٠ فحملت زوجه بيحيى (٣) ٠

ولاشك أن يحيى هو الاسم الذى وقعت عليه البشارة من الله لنبيه زكريا حين قال " يازكريا إنا نبشرك بغلام أسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا "(٤)

وقيل انه سمي بيحيى لانه احيا به رحم أمه (٥) أو أن يحيى من الاسماء التى لها دلالة تفاؤلية عند أصحابها وأن " يحيى تعريب لكلمة يوحنا فى لغة بنى اسرائيل ، وهى من مادة الحياة فالاسم " يحيى - يشعر بأنه يحيى حياة طيبة بأن يكون وارثا لوالده ، ومن آل يعقوب ، ماكان فيهم من النبوة والفضل ٠ (٦)

---

(١) الفخر الرازى مفاتيح الغيب جـ ٤ صـ ٤٣٥ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٧ .
(٣) الدكتور / رفقى زاهر قصة الأديان صـ ١٣٨
(٤) سورة مريم الآية ٧ .
(٥) الامام القرطبى الجامع لأحكام القرآن ٧٦ .
(٦) تفسير المنار جـ ٣ صـ ٢٤٤ .

وقد اختلف الباحثون بعد ذلك فى نوع الرزق الذى كان يأتى مريم ولا يعرف مصدره وذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا " ، ووقع اختلافهم على أقوال نورد أهمها على النحو التالى :

الاتجاه الاول : القائلون بأنه ظهور الفاكهة بين يدى مريم فى غير أوانها.

١- الامام الفخر الرازى قال : والجمهور الاعظم من العلماء ، المحققين والمفسرين قالوا ان زكريا عليه السلام ، رأى عند مريم من فاكهة الصيف فى الشتاء ، ومن فاكهة الشتاء فى الصيف ، فلما رأى خوارق العادات عندها، طمع فى أن يخرقها الله تعالى فى حقه أيضا فيرزقه الولد من الزوجة الشيخة العاقر"(١) .

٢- الامام القرطبى يقول : " وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القيظ وفاكهة القيظ فى الشتاء ، فقال يا مريم من أين لك هذا فقالت هو من عند الله ، فعند ذلك طمع زكريا فى الولد وقال ان الذى يأتيها بهذا قادر على أن يرزقنى ولدا " .

٣- مقاتل بن سليمان الزيدى ، يؤكد أن زكريا كان يجد عند مريم الفاكهة فى غير أوانها " فقال إن الذى يأتى مريم بهذه الفاكهة فى غير حينها لقادر أن يهدى لى زوجتى ويهب لى منها ولدا " (٢)

---

(١) الامام الفخر الرازى مفاتيح الغيب جـ ٢ صـ ٤٣٩ .

(٢) مقاتل بن سليمان الزيدى تفسير مقاتل جـ١ صـ ١٦٨ تحقيق د/ عبدالله شحاته .

٤- شيخ الاسلام ابراهيم البيجورى قال :

" وأنبتها نباتا حسنا ، أى أنشأها إنشاء حسنا ، بأن سوى خلقها وجعلها تنبت فى اليوم كما ينبت المولود فى العام ، وكفلها زكريا ، وكان لا يدخل عليها غيره ، وكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف [١] .

٥- الدكتور رفقى زاهر ، يؤكد على أن زكريا " كان يتردد عليها فى الهيكل فيجد عندها الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء [٢] والغالبية العظمى على هذا الدرب يسيرون ، ولكن بدا اتجاه آخر يرفض أن يكون الرزق هو الفاكهة وظهورها فى غير أوانها وهو الاتجاه الثانى .

الاتجاه الثانى :

١- الامام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار ، وغيرهما ومن ساروا خلفهما فالامام يقرر " أن زكريا عليه السلام - لما رأى ما راه من نعمة الله على مريم فى كمال ايمانها ، وحسن حالها ، ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب ورؤيتها ، وأن المسخر لها هو الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبتة ، ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة الى عالم الاسباب ، ومقام التفرقة وقد أذن بسماع ندائه ،واستجابة دعائه سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة وهى على غير السنة الكونية ، فأجابه بما أجابه [٣] وربما استند أصحاب الرأى الثانى الى الاسباب منها :

---

(١) شيخ الإسلام ابراهيم الباجورى تحفة المريد على جوهرة التوحيد القسم الثانى ٧٢ ، ٧٣ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية صـ ١٩٦٧

(٢) الدكتور / رفقى زاهر قصة الأديان صـ ١٣٨ .

(٣) الامام محمد عبده تفسير المنار جـ ٣ صـ ٢٤٣ - ٢٤٤ .

١- ان الرزق أعم من أن يكون فاكهة يوضح فضل الله بصورة أعظم .
٢- أن القرآن لم يحدد ان الرزق فاكهة فمن أين لمن حددوها أن يقولوا بما قالوه .
٣- الأولى عدم التشقيق واستغراب زكريا يمكن مرده للعناية التى كان يرى آثارها واضحة لدى مريم دون أسبابها وهو الذى أميل اليه وارجحه .

وكانت اجابه زكريا لمطلبه ، واستجابة الله لدعائه ، وأنين فؤاده ، مركز اعتزاز وفضل لذلك النبى ، الذى طالما تطلعت نفسه ، وكم تلهفت جوانحه ليكون له وريثا فكان النبى يحيى ولعل الاسم مطابق للمسمى وانى لأميل الى مايلى :

أولا : أن عناية الله لمريم كانت على العموم ، أما الرزق فبالخصوص لكونها فى ذلك المكان وتحت تلك الظروف .

ثانيا : أن طلب زكريا عليه السلام من ربه غلاما يرثه ، لم يكن ليرث الشريعة ، فهى هبة اذا كانت بمعنى تبليغها على أنها من مآثر النبوة ، ولكن اذا كانت الشريعه على أساس أنها من جزئيات الدين فلا مانع من أن يبلغ بها من يقدر عليها ويكلف بها ، ولعلها كانت فى بنى اسرائيل فى آل يعقوب ويحيى عليه السلام نبى .

ثالثا : أن زكريا كان دائم الطلب شديد الالحاح بأدب مع الله لأن ما شاهده على مريم وعندها حرك فى نفسه الرغبة الشديدة من جديد ، فى أن يسأل الله الولد الصالح ، فيرزقه به ولا حرج على فضل الله " وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا

له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين " [١] .

نعود الى العذراء البتول ، فالسماء تعد مريم لأمر نيط بها ، وتأكد للكل طهارة أصلها ، وتقدمت من الشباب سنى حياتها ، وها هى قد صارت غضة يافعة ، تربت فى أحضان العبادة ، وترعرعت فى كنفى الطهر والنقاء فلا شك أن كل شاب من أهلها قد فكر مرات فى الظفر بها زوجا ، وأن يكون هو لها بعلا ، لمقومات منها :

١- أنها طاهرة بتول .

٢- فى ظل نبى كريم .

٣- حياتها النسك .

٤- ألفاظها العبادة ، نهارها التبتل ، وليلها الدعاء والضراعة .

٥- مطعمها التقوى .

٦- ملبسها مخافة الله فمن مثل تلك ، ومن ذا الذى لايفكر فى هاتيك ؟

لك الله يامريم من مثلها ، ومن الذى يحظى بها ، غيرها كواعب لكن لهن متاعب ، أما العذراء ، فان لها شأوا آخر ، هن فى لهوهن الا أن " هذه العذراء العائشة بكل طهر ، بدون أدنى ذنب ، المنزهة عن اللوم ، المثابرة على الصلاة مع الصوم [٢] لاتعرف الا العبادة سلوكا والخالق العظيم الها كريما ، واحدا له صفات الجلال والجمال والكمال والاكرام .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٨٩-٩٠ .

(٢) انجيل برنابا ١ ، ٢ .

ولذا هتف لها فؤاد اسرائيلى من بنى جنسها ، وصمم على الفوز بها وأن تكون زوجا تحته ، الا أن العناية الالهية قررت لمريم أن تكون أما لطفل لا أب له ، لم يخلق بنطفة رجل ، وكانت الارادة الالهيـة العليا خصصت مريم لعيسى ، وباشرت القدرة الربانية مهام التنفيذ ، وأحاط العلم الالهى الشمولى ، وما خرج عيسى بكل هذا عن كونه واحدا من البشرية . انها كلمة الله التى اذا قيلت خرج من العدم الى الوجود كل موجود تريده المشيئة الالهية أو انقلب الموجود الى العدم ، وقد قيلت قبل عيسى فكان آدم أبو البشرية الاول ، وقيلت لحواء فكانت للانسانية أما وقيلت لعيسى فكان عليه السلام ومن قبل بشرت به أمه ، وحكى القرآن نوع مماثله " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون " (١) " إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " (٢) " إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ".(٣)

والذى يتأمل ما صنع المليك ، يجد عناية مدققة ، ويشاهد حكمة عليا فيخر لله ساجدا وعلى نعمه شاكرا ، فآدم أبدع من لاشئ اللهم الا التراب الذى اختلط بالماء أو وصف به ، بعد اضافته اليه فكان من طين لازب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، الى آخر ما أفاضت فيه آيات القرآن شرحا وتفصيلا ، فقد كان آدم أبو البشر بلا واسطة اصلا ، ثم كانت حواء بواسطة الأب آدم " فاستخرج من ضلع آدم القيصرى حواء ، فقصرت المرأة بذلك عن درجة الرجل ... وكانت حواء من الضلع للانحناء الذى

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩ .
(٢) سورة يس الآية ٨٢ .
(٣) سور النحل الآية ٤٠ .

فى الضلوع لتحنو بذلك على ولدها وزوجها " (١) ولعل شيخ المتصوفة يستند الى وصية الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ حين قال " استوصوا بالنساء خيرا .. فانهم خلقن من ضلع وان اعوج شئ فى الضلع اعلاه. (٢) وقوله تعالى " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام إن الله كان عليكم رقيبا " (٣) " هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين " (٤) .

وهنا أشير الى أن مريم رضى الله عنها حملت بعيسى فيما بعد فجاء تكملة لأطراف القسمة العقلية فى الخلقة الإنسانية وبيانا لإمكان تخلف السنن الكونية متى كانت الإرادة الالهية " ولقد جاء عيسى عليه السلام مكملا لضروب القسمة العقلية فى قدرة الله على خلق الإنسان بالنظر الى الأسباب والوسائط ، والضروب العقلية فى ذلك أربعة.

١- أن يخلق الله إنسانا بغير واسطة على الإطلاق ، أى بلا أب ولا أم وهو آدم عليه السلام .

٢- أن يخلق الله انسانا بواسطة الأم والأب معا ، وهو كل البشر العاديين

٣- أن يخلق الله انسانا بواسطة الأب دون الأم وهو حواء .

٤- أن يخلق الله انسانا بواسطة الأم دون الأب وهو عيسى عليه السلام (٥)

---

(١) الامام محى الدين بن عربى - الفتوحات المكية . السفر الثانى جـ٢٤٨ تحقيق د. عثمان أمين .

(٢) صحيح مسلم . (٣) سورة النساء الآية ١ . (٤) سورة الأعراف الآية ١٨٩ .

(٥) الدكتور / محمود محمد مزروعة - الملل والنحل - المسيحية صـ ٤٠ .

ويمكن القول بأن ظهور عيسى عليه السلام ، من غير أب ، كظهور حواء من آدم من غير أم [١] ، ولقد تحققت الأقسام الثلاثة الاولى " وبقى الضرب الرابع من القسمة العقلية ، لكى يكمل البرهان على قدرة الله الخالقة المتحررة من سلطان الأسباب ، والمستغنية عن العلل المادية ، التى نألفها ونراها وهذا الضرب الرابع جاء عيسى عليه السلام تحقيقا له ، وبه كملت هذه الاقسام التى ذكرناها [٢] .

ولاشك أن مريم وقد هيأتها السماء فلابد أن تحقق النداء ، وأن تكف عن سلطان الايحاء ، لتسمع الملك صوتا ، ولأمر هذه العناية لحنا وليتكرر فى سمع الزمان صداها ، ويحمل ابنها مناها ، ولتكتب فى سجل الخالدين أمنية أمل ، وبسمة طاعة ، وواحة هدوء على كل جبين ، فتبشر بعيسى مع المبشرين .

---

(١) محى الدين بن عربى – الفتوحات المكية السفر الثانى صـ ٢٩٩ .

(٢) الدكتور / محمود محمد مزروعة – المسيحية صـ ٤٠ .

الفصل الثانى

بشارة مريم بعيسى والحمل به
وموقف العلماء منها

تمهيد

لم يكن هنالك واحد من البشر حسن الحظ شاهد مريم فى لحظات حملها الاول أو أطلع على خفايا وجدانها ، أوبحث فى حنايا صدرها ، أو فتش داخلها وظل أمينا على ما حصل ، ثم نقل الينا تلك الأمور كلها أو بعضها ، ولا كان هناك من شاهد غير أمين ، اختلس النظرات اليها وتتبع سرها ، أو قفز الى أسوار أمنها عله يكشف ما وراء حجبها ويشيع شيئا ما قد يضر بخلوتها ، أو يفقدها ثقة الأهل بها .

فاذا افترضنا أن أحداً تمكن من اختراق حجبها وعرف سويعات حملها الاول فربما نشر هذا الخبر أو أذاع ذلك السر ، فعرف اهلها وما كانوا فى حاجة الى أن ينطق ولدها ببراءة الأم ، ويعلن نبوة جديدة فى بنى اسرائيل ويذاع سر من نواميس الله فى الكون ، وما كان لها أن تعلن بصوت عال أيها الناس أفيقوا ، فالحياة ليست ما تعرفونه مادة فحسب ، وانما هنالك عالم الأروح ، عالم الغيب .

كان الشاهد الوحيد الخالق رب العالمين عالم السر واخفى الذى أعد مريم لما يريد وجعل خبرها وحملها وولدها آيه من علامات قدرته ، فكان ما أراد ، ونقل ذلك كله بالخبر الصادق ، والحكم الأكيد ، لامجال فيه للرجم بالغيب ، ولا مكان فيه لقول غير سديد اذن فلا مجال للاتهام فى أمانته ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والحق كل الحق فى الثقة بشهادته " ومن أصدق من الله قيلا "

وقد حاولت الاناجيل الاربعة أن تقرر (على اختلافها) أن شخصا ما قد عرف بحمل مريم من اللحظات الاولى وكان ذلك على النحو التالى :

١- **مَتّى** : يؤكد أن خطيب مريم (يوسف) قد علم بحملها ، وأنه كان فى تفكير عميق ، حتى أراد أن يخليها ثم ظهر له ملاك الرب وجعله يغير رأيه ويراجع تفكيره . (١)

٢- **مرقس** : أهمل حمل مريم وولادتها ، وتناسى عيسى وأمه حتى لكأن السماء قد ألقت بهما ، ولم يذكر الا أنه جاء من ناصرة الجليل ، فى فترة وجود يوحنا المعمدان (٢) .

٣- **لوقا** : فقد عرف بالخبر مرتين من جانب يوسف خطيب مريم ، ومن جانب اليصابات (٣) .

٤- **يوحنا** : لم يذكر شيئا عن الحمل والولادة كل ما ذكره هو تجسد الكلمة وكأن الكلمة هى التى حملت بعيسى ، ووضعته وذكر أم عيسى وكأنها وابنها سحرة لاهم لهما الا جذب أنظار المشاهدين واللعب بحلومهم (٤) وسنذكره فى مكانه بتفصيل ومقارنة . إن شاء الله تعالى .

غير اننا نقول ما أن ضمها زكريا اليه طفلة ، وتكفل بها " حتى اذا شبت ، وبلغت مبالغ النساء ، بنى لها محرابا فى المسجد ، وجعل بابه فى الوسط ، ولايرقى اليه الا بسلم ، ولا يصعد اليها غيره (٥) .

وبدا لنا أن كفالة زكريا لمريم ، كانت فى كل شئ يحتاج اليه الكائن العاقل المفكر - الانسان - فشعرت مريم أن وظيفتها هى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، وظلت على تلك الحال حتى صفت تماما ، وصارت قديرة على تحمل مايناط بها ، وبدات الأمور لها فى نوع من الالهام القلبى ، فترامى الى سمعها ، وأمام بصرها ملمح عظمة الله وقدرته ، فاذا هى تستعد لسماع صوت ملائكى ، فى محراب قدسى .

---

(١) متى ١/ ١٨ - ٢٢ (٢) مرقس ١/ ٨ - ١٠ (٣) لوقا ١/ ٤١ - ٤٥
(٤) يوحنا الاصحاح ١ ، ٢ (٥) الامام الخازن - لباب التأويل فى معانى التنزيل صـ ٢٩٩ جـ ١

مراحل ثلاث

(١) المرحلة الاولى : " مرحلة الاصطفاء "

قال الله تعالى " إذ قالت الملائكه يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يامريم اقنتي لربك واسجدى واركعى مع الراكعين " [١] ، واصطفاك الاولى أى قبلك من أمك ، ولم يقبل قبلها أنثى فى نذر ، واصطفاك الثانية معناها هداك واختصك بالكرامات [٢] .

وهنا نلحظ مريم أنها كغيرها ، ويجيش بخاطرها ما تطاير الى سمعها وتحار فى أمر نفسها إنها تسمع صوت فؤادها ، وتتلفت فى أرجاء محرابها تجيل النظر فيه ، وتطيل التأمل فى رحابه ، لكن هذا الخاطر ترك فى نفسها أثرا لا يمحى ، وذكرى لاتذوب ، وأملا لا ينقطع فدفعها ذلك الى مداومة العبادة ، ومطاولة الوقت فى الطاعة ، حتى استعدت نفسيا لأمرجليل ، وتهيأت داخليا لاحتواء معنى عميق ، واكتملت خارجيا لتكون أما لعيسى عليه السلام .

ويبدو أن مريم ، بعد اصطفاء الله لها وتطهيره اياها ، شعرت بحاجتها الى الابتعاد عن كل الناس ، وخشيت على نفسها أكثر من ذى قبل ، انها أنثى طاهرة ، فاحتاطت بكل ما وسعها ، ورأت أن بعدها عن قومها غير كاف ، ولابد من مانع قوى يحول بينها وبينهم .

---

(١) سورة آل عمران الأيات ٤٢ ، ٤٣

(٢) الاستاذ / محمد فريد وجدى المصحف المفسر جـ ٣ صـ ٧٠

وقد صور القرآن الكريم تلك الحالة التى انتابت مريم فقال " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا " (١) .

وهنا ازداد اضطراب مريم ، انها تقيم الحواجز ، بل كل الحواجز فكيف تمكن هذا من الوصول اليها ولم تكن تعلم قبل أنه جبريل الأمين عليه السلام .

٢- المرحلة الثانية : " مرحلة البشارة "

اقتربت مريم من ربها باصطفائه لها " ثم رفع الله مريم درجة أخرى من القرابة ، حين بعث اليها ملائكة تخبرها اصطفاء الله اياها وتأمرها بطاعة الله وأن تجدّ فيها ما استطاعت (٢) " بذا تهيأت مريم واستعدت لقبول الأمر وتحمل تبعاته وراحت فى وحدتها تلوذ الى أحضان الصمت وتستقر فى رحاب التأمل ، وبينما هى كذلك عرض لها بعض شأنها فراحت اليه لتفرغ منه .

ولما كان صوت الكهنة يصل الى سمعها ، وحركات القوم تقطع صمتها بدا لها أنهم ملازموها عارفون بكل تصرفاتها ، ولذا خشيت أن يعرفوا أمرها ، فحاولت أن ترفع درجات الاستعداد النفسى لديها وهذا ما قص القرآن الكريم علينا خبره " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ".

(١) سورة مريم الأيات ١٦ ، ١٧

(٢) الدكتور / محمود محمد مزروعة – دراسات فى الملل – المسيحية صـ ٢٨ جـ ١ .

هنـا دب فـى صدرهـا الخـوف ، وراحـت فـى تساؤل ، أيوجـد هنـا مـن يريدنى ...؟ كيف وصل الى هنا ؟ اننى أقمت كل الحواجز وأغلقت كل الثغرات ، فمن أين جاء هذا ؟ ومن هو؟ اننى عابدة مشغولة بالعبادة ، وجدانى ومشاعرى هناك فى رحاب ملكوت خالقى ولكن شكل الروح الملائكى قطع كل تساؤلاتها ، فهبت تستعيذ بالله منه ، وتخوفه بسلطانه ، وراحت نبراتها ترسل فى أذن الكون اسما كريما " قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا " وليس هذا باستسلام منها ، انما يؤكد على أنها همت تواجه قدرها بشجاعة لامثيل لها فهى تؤكد أنها تقية ، وأن معايير التقوى عندها الخوف من الله فى كل حال وتحت أى ظرف مهما كان الشيطان قد بذل ليمهد لمرتاد طريقا ، وتؤكد ان هذا - الذى شاهدته - لن يفلت من دفاعها عن نفسها ان لم يكن تقيا وحاول الوصول اليها بأذى .

ولكن الأمين جبريل - سرعان ما كشف لها عن هويته ، والمهمة التى كلف بها ، فهو ليس من البشر ولكنه رسول رب العالمين ومهمته معها البشارة بان الله يهب لك غلاما ذكيا ، يخلد اسمك معه وتكونين أما له وصديقة " قال إنما أنا رسول ربك لأهب لَكِ غلاما ذكيا " وهنا استرقت سمع فؤادها ، وخلت الى حديث وجدانها ، كأنها تستقرئ الغيب المجهول فألفت نفسها فى أحضان الأسئلة الحائرة ، وكان حوارها الداخلى عنيفا ، أيها الملاك الطاهر جئت تبشرنى بغلام ذكى ولعلك تعلم أنى لست متزوجة من قبل ، ولا بعل لى الآن ، ولا مسنى بشر تحت أى ظرف ، ولا ترانى أعرف مواطن اللهو ، ولا مجالات السمر والبغى ، والولد يحتاج الى أب يأتى بسببه ، فمن أين آتى بغلام أكون أماً له ، وقد عرفت عنى ما عرفت؟

وسجل القرآن خواطر رأسها من تعجب واستغراب " قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا (١) " والبغية هى الزانية ولهذا جاء فى الحديث النهى عن مهر البغى (٢) وهنا يأخذها الأمين برفق ويحيلها الى قدرة الله وأمره ، وأنه لا يحول بينه وبين ما يريد حائل ، وأن هذه الأمور وتلك الأسباب يمكن أن تبطل فاعليتها ويضعف وجودها ، ويختل بقاؤها ، وليس ذلك ببعيد على الله سبحانه وتعالى لأنه الخالق للكائنات كلها .

" قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا " (٣) " قالت رب أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٤) " .

وقد وقع خلاف بين الباحثين فى المكان التى بشرت فيه مريم والحالة التى كانت عليها حينما ظهر لها جبريل عليه السلام ، نورده على الوجه الآتى :

١- **الأمام القشيرى** : يؤكد أن الانتباذ الذى وقع من مريم هو نوع اعتزال وأنها " اعتزلت عنهم لتحصيل طهرها ، فاستترت عن أبصارهم ، فلما أبصرت جبريل فى صورة إنسان لم تتوقعه ، أحست فى نفسها رعبا ، ولم تكن لها حيلة إلا تخويفه بالله ورجوعها الى الله (٥) " وتحصيل الطهر كلمة واسعة فضفاضة غلب على الإمام فيها طابع التعميم العلمى .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٠

(٢) الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ١١٥

(٣) سورة مريم الآية ٢١

(٤) سورة آل عمران الآية ٤٧

(٥) الامام القشيرى لطائف الاشارات مراجعة وتقديم د. ابراهيم بسيونى ، المجلد الرابع صـ ٩٥ الكاتب العربى .

١- **الأستاذ / محمود زهران** : يحاول وضع إجابة على السؤال السابق "واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا " فى دارها ودخلت خلف ستار أتخذته حجابا بينها وبينهم ، لتستحم ، فأرسلنا إليها جبريل روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا جميل الخلق ، لطيف الطلعة ، مستوى التكوين ، فلما رأته وهى عريانة فزعت لوجود انسان غريب فى حمامها ، فهو شاب غريب ، يقتحم عليها مع أنها استترت عن أهلها ومحارمها. (١)

٣- **الدكتور / محمود مزروعة** : يؤكد ، أن العذراء البتول " كانت فى خلوتها منقطعة عن الناس ، ما راعها إلا شاب جميل الصورة ، مكتمل الرجولة ، وقد تسور عليها خلوتها ، وظنت مريم بالشاب ظن السوء . (٢)

٤- **الدكتور / رفقى زاهر** : يميل الى نوع من التفويض ، ولا يجرى على طريقة البسط فى مثل تلك الموضوعات فهو يقول مؤكدا " نزل ملك الرب الى مريم ، فتمثل لها بشرا سويا ، ليهب لها غلاما ذكيا تسميه عيسى أو يسوع ويكون رسولا نبيا يجدد صلة بنى إسرائيل بخالقهم العظيم (٣).

٥- **انجيل لوقا** : أما انجيل لوقا فانه يشير الى أنه " أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة الى عذراء .. واسم العذراء مريم ، فدخل اليها الملاك ، وقال سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة أنت فى النساء ، فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ماعسى أن تكون هذه التحية ، فقال لها الملاك لاتخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع (٤).

---

(١) الاستاذ / محمود زهران قصص من القرآن صـ ٢٢٥ مكتبة غريب .
(٢) الدكتور / محمود مزروعة - دراسات فى الملل والنحل المسيحية صـ ٢٩
(٣) الدكتور رفقى زاهر - قصة الأديان صـ ١٣٩
(٤) انجيل لوقا ١/ ٢٦-٣٣

ولعله الوحيد من الأناجيل الكنسية التى تحدث عن حالة مريم وقت البشارة ، وتحدث عن البشارة ذاتها وكانت بشارته غامضة لأنه لم يحدد لنا المكان أو الزمان كل ما هنالك أنه ربط بين بشارة مريم وكون اليصابات حاملا فى الشهر السادس ، وهو بهذا لايصل بنا الى غاية يمكن الاطمئنان اليها .

وآيات التنزيل فى توضيح جليل ، تشير مرة الى أن البشارة التى وقعت لمريم ، كانت بواسطة روحنا - جبريل وحده ، وتمثله لمريم بشرا وتشير مرة ثانية الى أن البشارة كانت من الملائكة دون تمثيل " إذ قالت الملائكة يامريم أن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين " (١) .

ويمكن التوفيق بين الآيات ، بأن الأمر كان للملائكة جميعا ، على سبيل الاعلام من الله لهم والأخبار بما سيكون ، ولجبريل وحده على سبيل التبليغ والتمثل والتنفيذ وهذا ما أبانت عنه الآيات من سورة مريم " فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا (٢) " وتمت البشارة التى سلف الحديث عنها .

أيقنت مريم بأمر ربها ، وأذعنت له ، فأخضعت نفسها لسلطانه وقلبها لجلاله وهاهى الآن على أتم الأستعداد لما يراد منها ولها الا أنها فى نفس الوقت راحت تصارع فى وجدانها الأفكار ، كيف يتم الحمل ؟ أفى الرحم ذاته أم فى الكم،فى الثياب أو فى طوق القميص يكون النفخ أو فى هذه وتلك ؟

---

(١) سورة [illegible] عمران الآيات ٤٥ ، ٤٦

(٢) سورة مريم الآية ١٧

وهل ستطول فترة الحمل الى الوقت المعتاد عند كل النسوة ، أم ستقصر حتى تكون لحظة أو بعض سويعات ، هل ستشعر بألم المخاض ، أم سيختفى ، كيف تواجه قومه بوليدها حين يتم حمله وتتمكن من وضعه هذا ما نحاول توضيحه فى المرحلة الثالثة .

(٣) المرحلة الثالثة : " مرحلة الحمل ":

ليس لدينا نص صريح قاطع ، على كيفية حمل مريم بعيسى عليه السلام ، كل ما هنالك أنه أثناء الحديث عن طهارتها وعفة فرجها ، يأتى الحديث عن الحمل ، وتتوالى احداثه ، دون أن تظهر لنا كيفيته والكل فى ذلك سواء ، حديث القرآن الكريم عنها ، فى الآيات التى تعرض لها فيها ، وأقوال المفسرين والشارحين ، بل ونقلة الأخبار والآثار.

بيد أنه فى تعرض القرآن الكريم نرى أنه حدّث عن قضية النفخ ، وهو ما يمكن تسميته مكان الحمل ، ويصح أن يكون جوابا لسؤال ، فى أى مكان من جسم مريم كان الحمل ؟ وهو بهذا يأخذ بجامع قلوبنا الى أن نتفهم مرامى نصوصه " ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين " (١).

والحديث فى هذه الآية انما هو عن مريم على الخصوص ، وعود الضمير يحدد مكان النفخ بأنه ذلك الذى أقيمت له التحصون من جانب مريم " احصنت فرجها فنفخنا فيه " ولا يحدد كيفية الحمل وكيفية النفخ .

---

(١) سورة التحريم الآية ١٢

وفى حديث آخر للقرآن الكريم عن جملة من الرسل رفعوا أكف الضراعة الى ربهم فاستجاب لنداءاتهم ، وحقق ماجال بخواطرهم ، جاء حديث عن العذراء البتول مريم حديث يملأ جوانب النفس عظمة ، ويشيع فى سويداء الفؤاد أملا ، وهو قول الحق جل وعلا " والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين " (١)

وفى هذه الآية حديث غير ما فى الآية الاولى ، ففى الآية الأولى من سورة التحريم نجد حديثا خاصا عن مريم ، بعد الحديث عن بعض النسوة ، كان لهن من الشأن ما كان ، فأدخل بعضهن النار وبعضهن الجنة ، وحصنت مريم منهن وكانت ممن حزن الجنة بفضل الله تعالى.

أما هنا فى سورة الأنبياء ، فان الحديث عن فضائل كثيرة ، شملت أنبياء الله ومن جملة الأنبياء ، عيسى عليه السلام فجاء الحديث عن طهارة أمه ، واختيار الله لها ، وابنها ليكونا آية للعالمين ، وجاء التعبير بالنفخ هنا ، ومكانه جملة مريم وليس التحديد فى فرجها كما جاء فى الآية السابقة ، بل انها أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا فحملت مريم بعيسى عليه السلام ، تنفيذا لأمر الأله سبحانه وتعالى .

أما مكان النفخ فقد اختلف الباحثون حوله ، اختلافهم فى مدة الحمل ، مما يجعلنا نفرد له فصلا خاصا نناقش فيه الأقوال ، وندلى بدلونا كما هو الشأن فى دراسة مقارنات الأديان ، وما نراه انما يمثل وجهة النظر المحايدة للرأى الذى تغلب أدلته .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩١

الفصل الثالث

قضية النفخ وموقف العلماء منها

قضية النفخ

تلقف بعض الباحثين المسلمين موضوع عيسى عليه السلام وولادته من غير أب ، وأخذوا ذلك كله مأخذ التسليم ، ثم بدت لهم أمور ، كان رجال الأديان الأخرى هم المفتشون عنها والمحاولون كشف أسرارها ، ومن هنا كان على الباحثين المسلمين ، أن يراجعوا مواقفهم وأن يحاولوا توضيح بعض معالم فضل الله ، مادامت هذه المعالم قد خفيت على غيرهم وكان من بين هذه وتلك قضية النفخ التى تعرض لها القرآن الكريم وجاءت فى سياق الحديث عن حمل مريم رضى الله عنها بعيسى عليه السلام .

الا أن هؤلاء الباحثين لم يتفقوا على رأى محدد حول مكان النفخ أهو الفرج أم الكم أم الجيب ، وهل كل ذلك ، أم أن النفخ وقع فى ذات عيسى مباشرة وهو قول بعيد جدا ، والذى نلاحظه أن بعض هذه الوجوه وجد أصحابها ما يقوى اعتقادهم ويعضد تفكيرهم ، ويحسم بشدة نقاط الخلاف لصالحهم على غيرهم .

ويمكن تقسيم تلك الاتجاهات على النحو التالى :

(أ) القائلون بأنه " جيب قميصها " أو جيب درعها :

١- الامام ابن كثير يميل الى تحديد المكان " فنفخنا فيه من روحنا " أى بواسطة الملك وهو جبريل ، فأن الله بعثه اليها ، فتمثل لها فى صورة بشر سوى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه فى جيب درعها فنزلت النفخة فولجت فى فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام (١).

---

(١) الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٤ صـ ٣٩٤ .

وهذا من ابن كثير بعيد ، ولايجدا سند من آيات القرآن الكريم أو الحديث الشريف يؤكد ما ذهب اليه ، ولهذا لم نلتفت اليه .

٢- الشيخ / محمد أبو زهرة :

فهو يقف طويلا ثم لا يتطرق الى موضوع النفخ الا أثناء الحديث عن منزلة النفس عند اليهود ثم يقرر فى الآية " والتى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين " (١) إن ذلك الايحاء ، الذى لم يكن العامل فيه سوى ملك من الارواح (٢) الا ليهيئ اليهود لفهم الروح ، ويحدد سيادته مكان النفخ ، بأنه لافرج مريم ، ولاهى ذاتها وانما هو نفخ فى جيب مريم فكان الانسان (عيسى) من غير بذرة الانسان وجرثومته وكان ذلك اعلانا لعالم الروح بين قوم أنكروها ، ولم يعرفوها ، فكان هذا قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح ، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الانسان ، الا على أنه جسم لاروح فيه ، وهذه آية الله فى عيسى وأمه عليهما السلام (٣).

ثم ان سيادته لا يجعل موضوع النفخ قضية برأسها ، وانما تجده يهتم بموضوع الحمل ويأتى النفخ عرضا ، وكأن موضوع النفخ أستقامت فيه الأراء أو هو لايحتاج الى مزيد من الإيضاح فنراه يتحدث عن الحمل فيقول حملت العذراء مريم بالسيد المسيح عليه السلام وهو الأمر الذى اجتباها الله له واختارها لاجله ، ولقد فوجئت به إذ لم تكن به عليمة.(٤)

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٠

(٢) الشيخ / محمد أبو زهرة / محاضرات فى النصرانية ص ١٦ ، ١٧

(٣) الشيخ / محمد أبو زهرة / محاضرات فى النصرانية ص ١٧

(٤) المرجع السابق ص١٤

والذى لا نتفق فيه مع فضيلته ، هو تحديده لمكان النفخ بأنه جيبها دون تحديد لمفهوم الجيب الذى يقصده ، وهل عنى به الفرج وعبر بما يفيد ؟ أم أنه قصد الجيب بذاته كما سبق اليه الامام ابن كثير ، ان التعميم فى مثل هذة القضايا غير مفيد خاصة من العلماء والباحثين الذين لهم مكانتهم فى القدرة على اجتلاب المعانى من بطون الألفاظ .

٣- الدكتور أحمد شلبى :

وقف الدكتور / أحمد شلبى يؤيد من يرى أن النفخ كان فى جيب قميص مريم حيث جاءها الملك فيقول: نفخ الملك فى جيب قميصها فبدأ الحمل [١] ثم يسرد سيادته دراسة خاصة عن الروح ودلالتها فى القرآن الكريم ولكونها متصلة بقضية النفخ من جهة نورد بعضها ونشير الى الأصل الذى يمكن الرجوع اليه ، يقول سيادته " وهناك دراسة عن الروح ، ينبغى أن نوردها هنا متصلة بقوله تعالى ، فنفخنا فيها من روحنا ، وسبب هذه الدراسة فى نظر سيادته " أنى سمعت من يقول أن عيسى خلق من روح الله ، فهو أفضل الأنبياء ، فلنحاول هنا أن نحق الحق فى قضية الروح وقضية عيسى عليه السلام [٢] على النحو التالى :

" وردت (الروح) فى القرآن الكريم بمعان ثلاثة هى :

(١) بمعنى جبريل – قال تعالى " أيدناه بروح القدس "[٣] " فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا " [٤]

---

(١) الدكتور / أحمد شلبى المسيحية صـ٣٤

(٢) المرجع السابق صـ ٣٤

(٣) سورة البقرة الآية ٨٧ (٤) سورة مريم الآية ١٦

" نزل به الروح الأمين (١) ، " تعرج الملائكة والروح اليه" (٢) " تنزل الملائكة والروح فيها " (٣).

(٢) بمعنى الوحى بوجه عام ، أو القرآن بوجه خاص ، قال تعالى " ينزل الملائكة بالروح من أمره " (٤) " يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده "(٥) " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " (٦)

(٣) بمعنى القدرة التى تحدث الحياة فى الكائنات الحية .

قال تعالى : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى "(٧) ، " والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا "(٨) ، " ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا "(٩).

ثم يواصل مسيرته فى عرض كيفية مجئ عيسى عليه السلام من غير أب فيقول :

(٤) روح بمعنى الرحمة ، وهذا غير الروح " ولا تيأسوا من روح الله " (١٠) ، فمعناها (١١) الرحمة " وكان يكفى من الرأى هذا لكن بدت بعض الأمور ولذا سنلح ونسأله لماذا استشعر هذا أو استشفه ، كيف سيكون موقفها هذا من الناس الذين لا يعلمون ما تعلم (١٢) ، ثم راح يصور حال مريم ، التى ستصبح أُمًّا فيما بعد ، أن كل أم حين تشعر بأن شيئا ما فى احشائها يمكن أن يكون طفلا ، يضفى حنانا على فؤادها ترقص من فورها ، الا تلك الأم التى تشعر بأن هذا الولد الذى ينسب اليها

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٣ (٢) سورة المعارج الآية ٤ (٣) سورة القدر الآية ٤
(٤) سورة النحل الآية ٢ (٥) سورة غافر الآية ١٥ (٦) سورة الشورى الآية ٥٢
(٧) سورة الاسراء الآية ٧٥ (٨) سورة الأنبياء الآية ٩١ (٩) سورة التحريم الآية ١٢
(١٠) سورة يوسف الآية ٨٧
(١١) الشيخ محمد أبوزهرة محاضرات فى النصرانية . نقلها د/ أحمد شلبى هامش ٣٥،٣٤ من كتاب المسيحية .
(١٢) الدكتور / أحمد شلبى المسيحية صـ ٣٥ .

ربما يظن أنه ولد خطيئة وثمرة معصية أو تعجز عن الإدلاء بمصدره ويبدو أن حال مريم كان كذلك (عنده) " وبدا الجنين يدب فى رحم العذراء ، وكثرت أوهامها ، وأفكارها عما سيقوله الناس عنها " . ويواصل

" خرجت من الهيكل الى قريتها الناصرة واقامت فى بيت صغير ، واعتزلت فيه الناس ثم خرجت مع يوسف النجار الى بيت لحم فلما أوشكت على الوضع وأحست ألم المخاض ، خرجت من القرية (بيت لحم) فأجاءها المخاض دفعها الى جذع نخلة يابسة ، وحيدة فريدة حيث وضعت السيد المسيح ، ونظرت لطفلها البرئ الذى سيصبح فى نظر القوم دليل جريمة وقالت [١] ما حكاه القرآن الكريم على لسانها " ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا "[٢] .

والذى لا نتفق فيه ما يلى :

أولا : أنها خرجت من الهيكل لتقيم فى قريتها الناصرة ، ولم يعرِّف أحد بقرية مريم الا الأنجيل الذى نسب الى لوقا [٣] والسؤال : هل ذهبت مريم من الهيكل سرا أم علانية ؟ ألم يسأل عنها أحد من القوم ؟ هل أخفت حملها عن كل الناس ؟ ألم يسال قومها وبخاصة من تكفل بالقيام عليها وعنايتها – زكريا عليه السلام عن سر تركها الهيكل الذى وهبت له منذ طفولتها ، وهاهى قد شبت عن الطوق فيه ؟ وكان الأجدر به أن يعلم ؟!

ثانيا : حاول سيادته الاجابة على بعض ما يرد عليه من أسئلة ، وتحسس طريقة نحوها ، وحاول جاهدا إغراء المتابع ، بأن قومها لم يعرفوا قصة

---

(١)الكتور / احمد شلبى – المسيحية صـ ٣٥

(٢) سورة مريم الآية ٢٣

(٣) لوقا الاصحاح الأول

حملها لأنها كانت تعيش بعيدة عن الناس فى عزلة تامة ، فهل ياترى أهلها كانوا ممن شملهم الحظر ؟ أم أنهم كانوا على اتصال بهـا ، وكـلا الأمريـن غير مقبـول لأنـه فـى الأول يوجب الشـك والريبـة ، وفـى الثـانى يوجــب المعرفة واذاعة الخبر ونشره أو مداراة الحقيقة وهذا غاية البعد.

ثالثـا : قـرر سيادته قصـة خروجهـا مـع يوسـف النجــار ، وهـذه حكايــة الأناجيل وحدها ومن أخذ عنهم ، والسؤال الآن ، بأى حال سمحت للعذراء البتول أن تخرج من الهيكل وحيدة لمجرد احساسها بالحمل ، ثم تذهب لبيت لحم ، بصحبة رجل أجنبى عنهـا ؟ هذا العمـل الـذى يريـدون أن تقـع فيه؟ دون تحديد لصفة ذلك الرجل، إلا من خلال روايات الأناجيل الكنسية التى تدع الأسئلة الحائرة تتسلل الى رحاب عفة مريم، دون إجابة شافية .

رابعا : حينما أحست مريم ألم المخاض ، خرجت من القرية ، حيث وضعت وليدها – كما يروى سيادته – فهل كان يوسف معها ؟ وقد قـرر أن خروجهـا من الهيكل الى الناصرة ، كان دون مسـاعدة أحـد ، وأيـن جـذع النخلـة الـذى آوت إليه ؟ .

ثم يؤكد مرة أخرى أن خروجها من الناصرة الى بيـت لحـم كـان بصحبـة يوسف النجار ، فأين كان يوسف لحظة الوضع ؟ هل كان معها حتى بيت لحم فقط ؟ أم أنه أستمر معها وارتحل حيث شاهدها تضع وليدها ولوكان الأخير ، ماكان ليوسف الحق فى مشاهدة امرأة مصطفاة فى لحظة الوضع وقد حرمـت عليه فى كل وضع ، وعلى فرض وجوده ، فان قول القرآن الكريم لها " فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا "(١) كان يجب فيه استثناء يوسف لأنه من البشر

---

(١) سورة مريم الآية ٢٦

وهو مـالم يحدث وبالتـالى يصدق القرآن الكريـم ، ولايصدق الأخرون " وسنعود اليه بشئ من التفصيل فيما بعد .

(ب) القائلون بأن مكان النفخ هو " ذيل قميصها " :

١- ابن اياس :

يقرر أنه قد " مد جبرائيل يديه " وأخذ بذيل قميصها ، ونفخ فيـه فلما بلغت النفخة الى صدرها ، خلق الله تعالى من تلك النفخة عيسى عليه السلام"(١) والذى يجب التنبيه إليه أن الذى ذكر وأمثالـه ، اجتهاد مـع النص ، وتلك مخالفة صريحة لقاعدة أصولية ، تقرر أنه " لا إجتهاد مع النص " وقد قرر النص الرأى ، وأصدر فيـه الحكم ، والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيــه وبالتالى : فلا قبول لرأى يخالف صريح النص ، بل ولا التفات اليه .

٢- الإمام القرطبى :

نقل عدة وجوه ، وحمـل بعـض الأراء ، ونسـب بعضهـا الـى أصحابها فقال " قال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت بذلك " . وقال بعضهم : لايجوز أن يكون الخلق من نفـخ جبريل لأنـه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الانس ، ولكن سـبب ذلك أن اللـه تعالى ، لما خلق آدم ، وأخذ الميثاق من ذريته فجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء ، وبعضه فى أرحام الأمهات " (٢).

والامـام القرطبـى ، ينقل رأى غـيره ، ويصـور فكـرة لهـا خطـورة واضحة على صلب القضية ، يلمحه من له المامه بالناحية العلمية ، وحيث

---

(١) ابن اياس بدائع الزهور فى وقائع الدهور صـ ١٨٣ .

(٢) الامام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ صـ ٩٢

أن الإمام القرطبى ينقل رأى غيره فالأولى أن يقف عندما يحتاج الأمر الى الوقفة ، إلا أنه يقرر حاكيا أو منشئا " فاذا اجتمع الماءآن - ماء الرجل وماء المرأة - صارا ولدا وأن الله تعالى ، جعل الماءين جميعا فى مريم ، بعضه فى رحمها وبعضه فى صلبها ، فنفخ فيه جبريل ، لتهيج شهوتها ، لأن المرأة مالم تهج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل ، وقع الماء الذى فى صلبها فى رحمها ، فاختلط الماءان فعلقت بذلك [1].

والباحث يؤكد ، وجود مخالفة علمية صريحة ، فى قول الإمام القرطبى تقوم على مايلى :

١- أن نفخ جبريل لم يكن لإهاجة شهوة فيها ، إذ لا وجود للشهوة هنا حتى تهيج ، وليس فى القرآن شئ من ذلك ولا أشارت إليه السنة المطهرة الصحيحة .

٢- قوله لأن المرأة ، مالم تهج شهوتها لا تحبل هذا قول غير سليم من الناحية العلمية المعملية . لماذا ؟ لأن العلم يقرر ، إمكانية حمل المرأة دون أن تهيج شهوتها ، فقد تحمل المرأة متى وصل إليها الحيوان المنوى وكانت البويضة قادرة على التفاعل معه ، ومستعدة إليه ، وقد تحمل رغما عنها دون إهاجة شهوة ، إذا وصل الحيوان المنوى إليها عن طريق حامل له كالأنبوبة مثلا .

وتطالعنا الميادين العلمية بأبحاثها فى هذا المجال حيث تورد أمثلة متعددة ينشأ عنها حمل دون أن تشعر المرأة به ، فضلا عن عدم إهاجة شهوة فيها ، فأين هذا مما قاله الامام القرطبى ؟

---

(١) المرجع السابق جـ ٤صـ ٩٣ .

وإذا كان هذا حال العامة في فهم المسألة فما بالنا بالتى اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين فى زمانها .

(جـ) المتوقفون :

توقف بعض الباحثين ، عن تحديد مكان النفخ وتخيلوا أنه لا أهمية للتحديد من جهة ومن جهة ثانية ، أنه ليس بأيديهم ما يؤكده ، من نص أو رأى واضح محدد ، أو تثبُّت من المكان . من هؤلاء على سبيل المثال :

<u>الأول :</u> قرر صاحبه نقطة هامة فيقول " نفخ جبريل فى مريم ، فحملت بالمسيح عليه السلام ، وليس لدينا دليل على موضع النفخ ، وليس له عندنا كبير أهمية ، فسيان نفخ جبريل فى جيبها ، أو كمها ، فلقد حملت مريم بالمسيح وهو الأمر الذى أختارها الله له ، وهيأها لأجله (١).

ونحن من جانبنا لا نسلم له بعدم وجود دليل على مكان النفخ ، فقد حددته آية واضحة الدلالة ولم يقم دليل على عكس ما حكت الآية وصورت ، فكيف لا تكون فى باب الأدلة وهى قرآن كريم ، ومعروف أن " منزلة الكتاب فوق كل الأدلة ، لأنه أصل هذه الشريعة وحجتها وقلبها وسجل أحكامها الخالدة الى يوم القيامة ويقدمه مالك على السنة وما وراءها ... فهو يأخذ بنصه الصريح الذى لا يقبل تأويلا " (٢) .

<u>الثانى :</u> يميل الى لون من التأويل الغامض ، الذى لا يسوغ قبوله إذا ما تعلق بأمر غاية فى الوضوح ، كما أن التوقف فيه عمل بغير ضرورة ، فتراه يقول " فالنفخة هى أمر الله بتكوين عيسى فى بطن مريم ، وأما ما

---

(١) الدكتور / محمود محمد مزروعة – دراسات فى الملل والنحل المسيحية صـ ٣٠
(٢) الشيخ محمد أبو زهرة تاريخ المذاهب الاسلامية جـ٢ فى تاريخ المذاهب الفقهية صـ٢١٤

يقال من أن جبريل نفخ فى فمها ، أو نفخ فى جبيب درعها ، فنزلت النفخة الى فرجها ، فهذا كلام غير مقبول ، لأن المسالة أولاً وأخيرا متعلقة بأمر الله بتكوين عيسى وخلقه (١) وكيف ذلك وقد جعلته الآية الكريمة واضح المعالم ؟

(د) القائلون بأنه فى الفرج ذاته :

تظاهرت نصوص قرآنية على أن النفخ كان فى فرجها " ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين " (٢) ولا شك أن ذلك التحديد من جانب النص القرآنى يجب الأخذ به ، لأنه نص قطعى الدلالة ، وغير قابل للتأويل ، ومادام الأمر كذلك ، فلاوجه للغرابة عند الأخذ به ، طالما أنه لم يكن المقصود بلفظ النفخ فى الفرج ما يجرى فى أعراف الناس والنص القرآنى متواتر " ومعلوم أن النقل المتواتر يفيد العلم اليقينى " (٣) .

ومادام الأمر كذلك ، فأن الحديث عن النفخ ، تؤكده الأدلة القرآنية وأنه فى الفرج ذاته ، كما أن اللسان البليغ عرفه من ناحيته ، وأن فيه لونا من ألوان المجاز يعرفه البلاغيون ، ويؤكدون على " أن هذا هو من باب اطلاق الكل وارادة البعض حيث يطلق الكل ويراد الجزء (٤) فنفخنا فيها من روحنا وسواء كان الضمير راجعا الى مريم أو الروح .

---

(١) الدكتور / محمد الطيب النجار – تاريخ الأنبياء فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية صـ ٢٧٨ دار الاعتصام .
(٢) سورة التحريم الآية ١٢
(٣) الامام ابن تيميةـ درء تعارض العقل والنقل جـ١ تحقيق د. السيد سالم مطبعة دار الكتب المصرية .
(٤) الدكتور / على محمد العمارى – أسرار البيان صـ ٨٦ مكتبة الجامعة الأزهرية .

ومن هذه المجازات جاءت الوان عدة فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالى " يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين " (١) فان استحالة دخول الأصبع كلها فى الأذن جعل المراد من الأصابع الأنامل " (٢) ويكون الحديث عن مريم فى النسق القرآنى من هذا الباب " اطلاق الكل وارادة الجزء " .

حقا قصة عيسى فى طريقة الحمل به ، مخالفة لما جرى عليه وضع الناس وما استقر فى أعرافهم ، لكن هذا المخالف فيه اعجاز أراده الله تعالى ، ومن العدل الصراح أن توضع الأمور فى نصابها ، فاذا ماانبهرت العقول بما لم تألفه وليس لها فيه طول ، فلتعلم أن مرجع ذلك كله ، الى ارادة الخالق الحكيم ، ولذا فاننا نجد أن " معجزات عيسى عليه السلام ورسالته ، كانت ايقاظا شديدا لعصره ، وتنبيها لمكان الروح وسلطانها ، وبيانا لقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد " (٣)

واذا كان السابقون لهم بعض العذر ، فى تحديد مكان النفخ ، لأن الأبحاث المعملية لم تكن لها السلطة أو تقدمت بهذا الشكل فأنه لا عذر الآن بعد أن استسلمت النتائج العلمية بين يدى كل طامع وأكدت " أن الحمل لايتم الا فى الرحم ، وأن " وظيفة الرحم للسيدة ، أنه مكمل للجهاز التناسلى الداخلى ووظيفته بالدرجة الأولى ، استقبال البويضة الملقحة وزرعها فى الغشاء المبطن للرحم ، لتنمو هذه البويضة الملقحة، والتى تصل الى داخل الرحم قادمة من الأنبوبة الرحمية التى حدث بداخلها التقاء الحيوان المنوى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩ (٢) المرجع السابق صـ٨٦

(٣) الدكتور / على يوسف السبكى الأمثال فى القرآن الكريم وآثرها فى الدعوة صـ دكتوراه بكلية أصول الدين – القاهرة .

بالبويضة الخارجة من المبيض ، والتى تلقفتها أهداب طرف الأنبوبة الرحمية ، وبعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى تحدث بداخلها عدة انقسامات وتصل الى المرحلة التى تسمى علقة ، وهى التى تنزرع فى الغشاء المبطن للرحم ، والرحم بذلك هو مكان استقبال الجنين حيث ينمو ويكبر تدريجيا ، حتى موعد الولادة ، والتى تتم بسلسلة من الانقباضات الرحمية التى تمكن الجنين من الخروج وبذلك تتم ولادته .

اذن وظيفة الرحم ، هى استقبال البويضة الملقحة والمشاركة فى تغذيتها ونموها لتصبح جنينا جاهزا للخروج للحياة ، وكذلك المساعدة على ولادته بحدوث الانقباضات المتتالية الدافعة للجنين الى الخارج ، وتكوين الدورة الشهرية واخراجها [١] .

فاذا اعتبرنا أن ذلك فى الأمور العادية ، فان عيسى عليه السلام ما خرج الا بكونه لا أب له ، وأنه تم بالأمر التكوينى ، كن فيكون ، لكن ذلك كله تم داخل الرحم ، مما لا مجال للاذعان بغيره ، ولايتعلق به شئ من الاسباب العادية ، اما اذا كان تحديد المكان والهرب منه راجعا الى ابطاله بالاسباب العادية ، فان ابطال الاسباب به أولى ، فالأسباب عندنا لا هى مؤثرة بذاتها ، ولا بالقدرة على تحريك ما أراد الله سكونه ولا العكس .

---

(١) طبيبك الخاص العدد ١٥٥ السنة الثالثة عشر نوفمبر ١٩٨١ صـ ٣٠ - ٣٣ .

وان كان عدم التحديد راجعا ، الى ما يسمى بالحياء الأخلاقى ، فأعتقد أنه لَهْوُ قول ، وترديد خرافة ، فالقرآن الكريم ذكر المكان وحدده " كما أنه يبدو فى قصة عيسى تقابل يلقى الطمأنينة فى نفس مريم ، وذلك بعد أن بشرها روح الله بولدها [١] وبالتالى فلا حرج [٢] .

وعلى كل فأن سفينة ابنة عمران ما تزال تخوض فى محيطاتها ومازلنا نرنو اليها آملين أن تعود عامرة بالخير جنباتها ، وقد أكدنا على أن مكان النفخ هو الفرج ، والنصوص صرحت به ، وعليها كان تعويلنا والله الهادى لما فيه الخير .

---

(١) الأمومة فى الإسلام صـ ٩٩ المركز الدولى الإسلامى بجامعة الأزهر .

(٢) راجع تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٤ صـ ١٣٢ وتفسير روح المعانى ٢٨ / ١٦٤ وأنظر رسالة الدكتوراه ، الأمثال فى القرآن الكريم وأثرها فى الدعوة الى الله للزميل الدكتور على يوسف السبكى صـ ٢٤٩ مخطوط ، بمكتبة أصول الدين - القاهرة .

كيفية النفخ

أما كيفية النفخ فقد يقع فيها الاختلاف ، لعدم وجود نصوص توضحها والأسلم عقائديا ، احالة ذلك الى علم الغيب - علم الله وحده - فهو سبحانه وتعالى جعل ذلك فى علمه وحده قال تعالى : " فنفخنا فيه من روحنا - وهو أعلم كيف نفخ - وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من المواظبين على الطاعة " (١) والتسليم بكيفية معينة للنفخ ضرب من الاستخفاف ما لم يقم عليه دليل ، له من القوة ما للبراهين العقلية .

وعندى أن كيفية النفخ مردها الى علم الله وحده ، ولا مجال للعقل فى ذلك وهو أسلم ، والتفويض فيها أتم وأحكم ، بيد أن هنالك نقطة يجب أن توضع فى الحسبان الا وهى التفرقة بين النفخ وكيفية النفخ .

فالأول - النفخ :

تظاهرت النصوص به دالة عليه ، محددة مكانه ، اذن فلا مجال للايهام فيه ، ولا عذر فى الحديث عنه ، بل يجب فيه التوظيف الكامل للفظ النفخ ، بكل المعنى المتبادر وهو المطلوب ، شريطة الا يوقع فى تنزيه معطل ، أو تجسيم مشبه .

والثانى - كيفية النفخ :

فلم تقف النصوص موضحة لها ، ولم يعلم من الاثار شئ عنها وبالتالى فالتفويض فيها أولى والحديث عنها يجب الاحتراز فيه والاقلال منه ، وتلك وجهة نظر محايدة فى القضايا التى تعرض لها البحث .

ومن هنا فان القائلين بوقوع النفخ فى جيب مريم ، أودرعها ، أو طوق قميصها عاندهم الصواب لوجوده تذكر منها .

(١) الاستاذ/ محمد فريد وجدى - المصحف المفسر صـ ٧٥٣

١- ليس هنالك دليل على أن الله أمر جبريل بأن ينفخ فى الجيب أو الطوق ولو وجد دليل واحد ، لأعلنوا عنه كمستند لهم وارتكنوا اليه

٢- لماذا لم يكن النفخ فى الفرج ، كما نصت الآية ، مادام غيرها لم يوجد؟ .

٣- تخيل الامام ابن كثير حركة المد والجذر فى النفخة حتى اعطاها قوة ذاتية تفعل ما يتاح لها يقول " فنزلت النفخة فولجت فى فرجها " مع علمه وكل العقلاء أنه لاداعى للنزول ، ولادليل عليه ، أو على أن الايلاج كان للنفخة ، بل أن القول بالايلاج للنفخة ، دخول فى تصوير الكيفية ، وقد سبق القول بأن الكيفية مردها الى علم الله والتفويض فيها أسلم .

٤- رأى الامام القرطبى يمثل خطورة تظهر فى أمور منها :

أ- أن العلم الحديث كشف عن وجود بويضة غير قابلة للتلقيح لا تحتاج الى حيوان منوى ، ويتم التلقيح فيها ذاتيا - بقدرة الله تعالى ، وتسمى البويضة العذراء ، ويطلق على التلقيح اسم التلقيح الذاتى Prathongss وهو معروف جدا فى قانون العلم ، سواء فى عالم الحيوان أوالحشرات ، والفقريات ، وان كان بصورة استثنائية ، والمسألة عندى هى تحويل بويضة مريم ، الى بويضة عذراوية ولاغبار فى ذلك ، فهو أمر خارق للعادة بمثابة أرهاص واضح لمقدم نبى .

ب- قول الامام القرطبى ، يخالفه العلم . لماذا ؟

لأن العلم يقرر أنه متى كانت البويضة ذاهبة للاستقرار فى الرحم ، مع خلوها من المعوقات ، والتقى بها حيوان منوى مخصب يتم الحمل دون حاجة الى أن تهيج شهوة المرأة ، ومثله يتم كثيرا فى الحيوانات ويسمى

التلقيح الصناعى ، وكذلك فى عالم الانسان ،عند أصحاب الزار ، ومن يدعون اتصالهم بعالم الغيب ، ويعرف ذلك بالصوفة ، وكم من امرأة حملت عن طريق الصوفة ولم تهج أبدا ، بل فى لغة العلم ، أنه متى بلغت الأنثى مبلغا تتمكن فيه أعضاؤها من القيام بمهمة الحمل حملت ، وكم من فتاة فقدت قدرتها العقلية وأبانت الأمور عن حملها من خلال من لايعرف للأرحام حرمة ، اذن فلا حاجة الى القول بأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل ، ولذا قررت ما رأيت ، وتركت ما نفيت .

الفصل الرابع

موقف الأناجيل من بشارة مريم وحملها بعيسى عليه السلام

تمهيد

اعتمدت المسيحية – مجامع ومؤتمرات – أربعة أناجيل ، وأطلق عليها " العهد الجديد " كما قد تسمى الأناجيل القانونية ، ثم يضاف اليها بعض الرسائل والأسفار ، ويظل الأسم والمطلق على الجميع واحدا .

والمطالع للعهد الجديد ، يجد أنه يقف من نبى الله عيسى ﷺ ، موقفا قد لايتناسب معه ، فى موضوعات عدة ، منها هذا الفصل الذى عنينا به ، البشارة والحمل وحتى يكون الحكم من خلال الأدلة ، سنضع القضية من النصوص ، بين يدى القارئ ، وبالترتيب الذى هى عليه فى العهد الجديد .

١ – انجيل متى :

يصور متّى بشارة مريم بعيسى (يسوع) على النحو التالى :

" لما كانت مريم أمه ، مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا ، وجدت حبلى من الروح القدس ، فيوسف رجلها اذ كان بارا ، ولم يشأ أن يشهرها أراد تخيلتها سرا ، ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور اذا ملاك الرب قد ظهر له ، فى حلم قائلا ، يايوسف لاتخف أن تأخذ مريم امرأتك ، لأن الذى حبل به فيها ، هو من الروح القدس ، فستلد ابنا ، وتدعون اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل ، هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ، ويدعون اسمه عمانوئيل ، الذى تفسيره " الله معنا " [١]

---

(١) متى ١/ ١٨ – ٢٣

" وعمانوئيل كلمة عبرانية تفسيرها باللسان العربى " الهنا معنا "[١]
ومتّى بهذا يضع عدة أمور لاتتناسب مع نبى الله عيسى منها :

أ- المغالطة الصريحة فى الاقرار مرة ، بأن مريم كانت مخطوبة ، وأنها فى نفس الوقت امرأة وفرق واضح بين أن تكون الأنثى مخطوبة وأن تكون امرأة لخاطبها فى نفس الوقت ، مما يوقع فى لبس وايهام لايتفق مع أم نبى من أنبياء الله ألا وهى مريم أم عيسى عليه السلام .

ب- أنه جعل يوسف عالما بأمر حملها ، ولم يبين منزلة يوسف ، هل هو نبى اسرائيلى يعلم بالوحى ، أم أنه اتصل بعلم الغيب ، أم هى التى كشفت له مناما عن سرها المكنون ؟

ج- صور يوسف بحكيم لامثيل له ، يعرف أن مخطوبته حامل ، ولا يتخلى عنها لمجرد أنه رأى فى منامه شيئا يدعوه الى التمسك بها ، وهذا أيضا موقع فى اللبس ، ومدعاة للظن .

د- صور مريم كأى فتاة عادية ، تعيش حياتها كغيرها ، لامكان فيها للتقوى والعبادة ، كل ما فيها أنها شبت عن الطوق ، فخطبها يوسف ، وقبل زفافها علم يوسف بحملها ، فساورته شكوكه فى أن يتركها وشأنها ، وراحت تلك الشكوك تملأ عليه أرجاء حياته ، حتى بات فى قلق لايهدأ وليل لايعقبه نهار ، ومادام قد جعلها كغيرها ، فلاشئ يمكن دفعه عنها .

ثم يطور الانجيل فى حدثه ، فيصور يوسف فى ثياب قديس طاهر خلع عليه عدة صفات :

١- أنه كان بارا بها ، وأنه كان ذا دخيلة صافية .

---

(١) شيخ الاسلام ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٢ صـ ٢١١ مطبعة المدنى تقديم على السيد صبح المدنى .

٢- أنه كان عالما بحال زوجه ، ولم يفكر فى استغلال الموقف لصالحه .

٣- أنه كتم كل شئ اتباعا لأمر الرب ، الذى بدا له فى منامه .

ثم ان " متّى جعل البشارة بعيسى ليوسف وليست لمريم ، فالرؤيا قد أخبر بها يوسف عن طريق ملاك الرب ، وأمره بكذا ، وكذا ، وما زادت مريم عن كونها وعاء يحمل ما يقذف فيه دون ارادة له .

هذا فى متّى المعتمد " وأما انجيل متى غير المعتمد عندهم فيقرر أنها لم تكن زوجة ولا مخطوبة ، وانما كانت من العذارى اللائى نذرن أنفسهن ونذرهن أهلهن لخدمة المعبد ، أى كانت من الراهبات اللائى كن يتوفرن على العبادة ، وخدمة المعابد التى يعتكفن فيها وهذه الطائفة كان يحرم على أفرادها الزواج ، والاتصال بالرجال (١) .

ويبدو أن متّى القانونى ، كان متأثرا لحد ما بقصص العهد القديم فنسج على منوالها ، وهو بهذا قد جرد مريم البتول ، وجعلها كغيرها مما يمكن أن تقع فيه أترابها ويخدش منها العفة ويجرح فيها الحياء ونحن لا نملك الا أن نقول ، لك الله يامريم ، هو معك يشهد بعفاك وأعلن فى قرآنه براءة رحمك ، وطهارة ولدك ، عبدوك من دون الله ظلما ، وانتسبوا اليك بهتانا وأنت يامريم منهم براء .

٢- انجيل مرقس :

الحديث عن موقف مرقس من البشارة والحمل ، يجعل الباحث يحترس لأن مرقس تجاهل حمل العذراء بالسيد المسيح ، وتناسى البشارة ، وظل فى ذلك التجاهل والتناسى حتى ولادة المسيح ، ولم يشر اليهما .

(١) الدكتور/ على عبدالواحد وافى - الأسفار المقدسة صـ ٩٤ .

بل انه تناسى أم المسيح أيضا ، وكأن السماء أمطرت أشخاصهم ، ولا يعطى حتى مجرد فكرة عن حياة عيسى عليه السلام ، كل ما ذكره ، أنه ربط بين أمرين أو وجود شخصين .

الأول : يوحنا

الثانى : عيسى ، ووجود علاقة ما بينهما ، أثناء اعتماد يسوع .

فقال : " وفى تلك الأيام ، جاء يسوع من ناصرة الجليل ، واعتمد من يوحنا فى الأردن ، وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلا عليه ، ولايذكر عيسى بعد الا حين جاء يبشر الناس بدعوته ، حين هب فيهم صارخا " قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالانجيل " (١)

وهكذا فان موقف مرقس يدعو للدهشة ، ويوحى بالاستغراب ، اذ كيف يقع منه خبر السماء هذا الموقع ، وكيف يتجاهله مثل هذا التجاهل وذلك النسيان ، والدعوى أنه انجيل قانونى ، ومن خلال وحى معصوم فهل تتطابق الدعوى مع الدليل ؟ بالبحث تأكد اختلافهما تماما .

٣- انجيل لوقا:

لاشك أن ثقافة الشخص تؤثر على معتقده ، كما أنها قد تغير فى سلوكه ، وقد تحول بينه وبين حقائق الأشياء ، فيعتقد ما يصوره له خياله ولوخالف كل العقلاء فى فهمه ، وانجيل لوقا يفيض بجوانب الدقة ويحفل بالرقة ، فقد تحدث عن نبى الله زكريا عليه السلام ، وزوجه اليصابات ورؤيا زكريا فى منامه لملاك الرب ، ثم بشارة زكريا وزوجه بيوحنا ، وقدم لكل من زكريا واليصابات بما يشبه بطاقة تعريف فقال .

---

(١) انجيل مرقس ١ / ٩ -١٥

" كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية ، كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا ، وامرأته من بنات هارون،واسمها اليصابات ، وكان كلاهما بارين أمام الله ، سالكين فى جميع وصايا الرب واحكامه بلا لوم ، ولم يكن لهما ولد اذ كانت اليصابات عاقرا ، وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما " (١)

أما بشارة مريم بعيسى وحملها به ، فقد قصها تاركا أمر يوسف ورؤياه التى حكاها غيره ويذكر أن مريم هى التى بشرت بعيسى ، وليس يوسف ، وهى التى قد بشرت بعيسى مقرونة بحمل اليصابات زوج النبى زكريا ، ففى " الشهر السادس - من حمل اليصابات - أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة ، الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف "واسم العذراء مريم".

ويذكر أيضا أن مريم شعرت بشئ ما يدفعها الى الاقتراب من بيت كريم تأوى اليه ربما تجد فيه لآلامها برءا . ولحزنها سلوى " فقامت مريم فى تلك الأيام وذهبت بسرعة الى الجبال ، الى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلمت على اليصابات .(٢)

وهنا شعرت اليصابات بأن مريم حامل ، وأن من فى بطن مريم ، خير ممن فى رحم اليصابات ، ثم يؤكد أنه قد " صعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة ، الى اليهودية ، الى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ، ليكتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى " (٣) وكان ذلك فى الاحصاء العام بلغة العصر.

---

(١) لوقا ١/ ٥ - ٧ يقصد تقدم السن
(٢) لوقا ١/٣٩-٤٠ ومتى ١/٢٦- ٢٧
(٣) لوقا ٢/ ٤ -٥

ولوقا بهذا يجعلنى أراجع فقراته معه ، فتهاجمنى أسئلة أوردنا مثلها سابقا فمن هو يوسف ؟ وما علاقته بمريم ؟ ومتى علم بحملها ؟ وكيف عرف ؟.

والذى لاشك فيه ، أن لوقا رسم ملامح البشارة ، وصور الحمل ولكنه ترك الأسئلة الواردة عليه ، دون أن يشير الى اجابات محددة عنها ، ووسم يوسف بملامح الخاطب القاسى القلب الذى لا يفكر فى مشاهدة محبوبته ، الا على فترات متباعدة ، وفى شهور طوال .

٤- انجيل يوحنا :

لسنا واجدين عنده من جديد ، ذلك لأنه لم يعبأ بحال العروسين كما فعل متّى مثلا ، ولاعرّف بظروف كل منهما ، كما فعل لوقا ، ولكنه سار على درب مرقس ، فراح فى غموض مقصود ، وتعقيد غير محمود فجعل الكلمة حالة متجسدة فى شخص عيسى ، وجعل الكل شهودا له وانطلق يزرع قضية الثالوث ، ولسنا هنا بصددها .

حقا انه متأثر بالثالوث الأفلاطونى ، حتى أضفى على عيسى صفة الألوهية " ذلك لأنه الانجيل الذى نص صراحة على ألوهية المسيح " [١] ، و" لأنه الانجيل الذى تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح " [٢] ، وكم كنا نأمل أن يقتصر الأثر الافلاطونى ، على كتب الفلسفة ، أما أن يتخطاها الى كتب تنسب الى الرسل المبعوثين من الله لهداية الخلق فذلك دليل واضح على كذب تلك الكتب ، ولم يتقدم يوحنا فى أمر النفخ والحمل خطوة عن مرقس ، ولكنه انحسر عنه .

---

(١) الدكتور أحمد شلبى المسيحية الطبعة الخامسة صـ ٢١٣
(٢) الشيخ محمد أبو زهرة محاضرات فى النصرانية صـ ٤٨

ويبدو أن خيال البحر عبأ صاحبهم ، وكيف يحاسب البحر من الجداول؟ وكم من خيال سمح لصاحبه أن ينظر الى العنقاء ، ثم يتخيلها تلد وتبيض ، مع أنه لاوجود لها ، فلماذا لايسمح له بأكثر من هذا ويزيد " حتى أكد أن " الكلمة صار جسدا ، وحل بيننا ، ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب ، مملؤا نعمة وحقا " (١) هذا كل ما عنده فهل يكفى ؟!!

لقد كان يوحنا يسير كما يشاء ، ومن هنا ترك أمر عيسى وبشارته وحمله ، اللهم الا أنه ذكر ، أن عيسى كلمة حلت وتجسدت ، وانتظر حتى تأتى المفاجأة ، عندما يتأمل يوحنا من ذلك القادم من بعيد ؟ " وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلا اليه ، فقال هوذا حمل الله يرفع خطية العالم (٢)".

ثم يتناسى يسوع مرة أخرى ، ولا يذكر من أمره الا زقاق الخمر والعرس وكأن عيسى – يسوع – جاء ليفسد طباع الخلائق ، ويهدم شريعة الحق وهذا ما لا يقره أحد من أهل الحق على نبى من أنبياء الله ، فما بالك بواحد من أولى العزم ؟ وبعد هذا العرض والتجوال داخل الأناجيل الكنسية ، فلعلك معى فى أن الرحلة طالت ، والجهد بلغ منا مبلغه وتبقى نقطة استيضاح نثبتها فى هذا التعليق .

تعليق خفيف ومواجهة بين انجيلى متّى ولوقا

أولا : كيفية الخطبة وقضية الحمل :

١- أكد مَتّى على أن مريم خطبت ليوسف أوّلاً ، ولم يكن يعلم أحد أنها حبلى ، ولما قررا أن يجتمعا وجدت حبلى و" لما كانت مريم أمه– عيسى – مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس "(٣)

(١) يوحنا ١/ ١٤ (٢) يوحنا ١/ ٢٩–٣٠ (٣) متى ١/ ١٨ –٢١

وعلى هذا يكون الحمل أيضا من الروح القدس مباشرة .

٢- أكد لوقا أن مريم خطبت ليوسف ، ثم حبلت ثانيا [١] ثم تراجع وأكد أنها حملت أولا ، ثم خطبت ثانيا ، ومعنى هذا أن الحمل تم قبل الخطبة ، وبالتالى يكون يوسف قد علم بحملها قبل خطبتها ، حيث تم اكتتاب يوسف مع " امرأته المخطوبة وهى حبلى " [٢] ويكون حملها تم بحلول الروح القدس عليها ، واظلال قوة العلى لها "[٣]

ونحن نلاحظ عدم اتفاقهما فى تلك النقطة ، كما ظهر لك ، رغم ادعائهما أن ما كتباه معصوم ، ولا يوجد فيه اختلاف . فأين العصمة إذن مع وجود كل هذا الإختلاف ، الذى تنطق به الأناجيل ونصوصها ، فإذا قيل : ان هذا خطأ الترجمة قلنا من الذى ترجم ؟ وتحت رعاية من تمت الترجمة ، ولصالح من معالجة هذه الأمور بهذا الشكل .

ثانيا : البشارة بالتسمية :

١- أكد مَتّى أن الذى وقعت له البشارة يوسف ، وكان ذلك فى حلم رآه ، حين خاطبه ملاك الرب قائلا " يا يوسف بن داود " لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس ، فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع [٤] .

وأيضا فإن متّى يجعل البشارة بالتسمية ، قد جاءت ومريم حبلى به [٥] الا أن التسمية بيسوع تخالف مانصت عليه الكتب أيضا من قولها : " هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ، ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا " [٦] وفرق بين التسمية بعمانوئيل وبين يسوع . ثم ان الذى سمى الولد بعد

---

(١) لوقا ١/٢٦-٢٧ (٢) لوقا ٢/٥ (٣) راجع لوقا ١/٢٥
(٤) راجع متى ١/ ٢٠ -٢١ (٥) راجع متى ١/٢٠-٢٢ (٦) راجع متى ١/ ٢٣

ولادته هو يوسف ، حيث أنـه لم يعرفها - مريم - حتى ولدت ابنها البكر ودعا - يوسف - اسمه يسوع [١] .

٢- لوقا : جعل الذى وقعت له البشارة مريم ، وليس يوسف ، كما ذكر متى آنفا ، وأكد على أن البشارة وقعت حينما : أرسل جبرائيل الملاك من الله ... الى عذراء مخطوبة ، فقال لها الملاك ، لاتخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع " [٢]

غير أنه تراجع ثانيا فأكد أن يسوع تسمى قبل أن تحمل به أمه " لأنه تسمى من الملاك قبل أن حبل به فى البطن " [٣] وأيضا فان الذى سمى المولود هو مريم وليس يوسف حسبما وردت به البشارة عن طريق جبرائيل الملاك ، فهل يا ترى بعد هذا البيان ، يمكن الادعاء باتفاق الانجيلين ؟ أم أنهما بالأدلة على أشد الخلاف وأيهما على صواب ، والدعوى أنهما صادقان ، فهل يصدقان معا وتكذب النصوص . لست أدرى؟!!

وما دمنا قد انتهينا من عرض موضوع البشارة والحمل فى الاناجيل المعتمدة كنسيا ، فلابد من عرضها فى انجيل قد لا تقره الكنيسة لتتم الحلقة وحتى تكون الأدلة بين يدى الحكم النزيه واضحة المعالم .

بيد أننا ننوه الى أن الكنيسة لاتقر انجيل برنابا ، وتراه غير موافق للأناجيل المعتمده كنسيا ، بل وبعضهم يميل الى أن كاتبه مسلم انتحل اسم برنابا لتنطلى المسألة على شعب الكنيسة . وهذا قول غير سديد ، لأن

---

(١) راجع متى ٢٥/١
(٢) لوقا ٢٦/١-٣٣
(٣) لوقا ٢١/٢

المسلم **لا يسلم** بانجيل برنابا ، وإنما يأخذ منه ما يصلح شهادة على زملائه فى الديانة ، لأن المعروف أن برنابا شخصية كنسية كان لها دورها البارز فى الكنيسة ، سواء سلم به الكنسيون جميعا أو سلم به بعض وأنكره آخرون ، فهيا نذهب إليه .

انجيل برنابا

ورد ذكر برنابا فى الأناجيل الكنسية كثيرا ، باسمه مرة ولقبه مرات [١] وقد كان برنابا لقبا على اسم رجل يقال له يوسف " وان يوسف الذى لقبه الرسل برنابا ، الذى تأويله ، ابن العزاء ، اللاوى القبرصى الأصل " هو الذى نحاول أن نتعرف على وجهة نظره من خلال انجيله.

تحت عنوان " بشرى جبريل للعذراء مريم بولادة المسيح " حكى برنابا فصله الأول ، وفصل القول فى اللحظات التى سبقت الحمل بعيسى ، وكيف كانت حالة مريم ، حين فاجأها ملاك الرب وحدها وما الذى اختمر فى ذهنها ، ثم صور الحوار الذى كان بين العذراء وجبريل عليه السلام .

فقال " لقد بعث الله فى هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبريل الى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا ، بينما كانت هذه العذراء العائشة بكل طهر ، بدون أدنى ذنب ، المنزهة عن اللوم ، **المثابرة** على الصلاة مع الصوم ، يوما ما وحدها ، واذا بالملاك جبريل قد دخل مخدعها ، وسلم عليها قائلا :

---

(١) راجع أعمال الرسل ٤/ ٣٦

ليكن الله معك يا مريم ، فارتاعت العذراء من ظهور الملاك ولكن الملاك سكن روعها قائلا ، لا تخافى يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله ، الذى اختارك لتكونى أم نبى يبعثه الى شعب اسرائيل ليسكنوا فى شرائعه باخلاص " (١) .

والملاحظات على هذا النص توضح على النحو التالى :

١- أنه أكد على أن مريم كانت عذراء ، عند البشارة ، غير عارفة لأحد من الناس - يوسف أو غيره - على سبيل الخطبة أو التبعل.

٢- أنها كانت تعيش على الطهر والعبادة .

٣- أن جبريل جاءها بأمر الله ، وبشارته ، وكانت وحدها .

٤- أن مخدعها هو المكان الذى تمت فيه البشارة .

٥- أنها ارتاعت من مشاهدتها الملك لأول مرة ، ومن كونه فى مكان لايوجد فيه رجل على الإطلاق ، أويظن .

٦- أن الملاك سكن روعها ، وعرفها بنفسه ، وأخبرها بما جاء من أجله وأنها مهمة تكليفية من الخالق العليم جل وعلا .

٧- وأنه بشرها بالنعمة التى نالتها من الله جل وعلا ، باختياره لها أمًّا لعيسى نبى الله ، دون نساء العالمين .

٨- أن نبوءة ابنها قاصرة على شعب بنى اسرائيل .

٩- غاية مهمة ابنها إرجاع شعب اسرائيل الى الانخراط فى شرع الله الذى شرعه الى موسى عليه السلام ، وان كان عيسى سيعمل على توضيح التوراة وتجديد مابلى منها من خلال نصوص الانجيل الالهى .

---

(١) انجيل برنابا دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ٤/١

وهكذا صورت عبارات برنابا الموقف الأول وهو بشارة الملاك لمريم بأنها ستكون مصطفاة من الله ، ومختارة ثم رسم موقف العذراء من البشارة وتحسس تساؤلاتها ، وكأنه عايش الانثى الآمال والأحلام والخواطر فيقول :

" فأجابت العذراء ، وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلا ؟ فأجاب الملاك ، يامريم أن الله الذى صنع الإنسان من غير انسان لقادر أن يخلق فيه انسانا من غير انسان ، لأنه لا محال عنده ، فأجابت مريم إنى لعالمة أن الله قدير فلتكن مشيئته ، فقال الملاك ، كونى حاملا بالنبى الذى ستدعينه يسوع - عيسى - فامنعيه الخمر والمسكر ، وكل لحم نجس ، لأن الطفل قدوس الله مبارك ، فانحنت بضعة قائلة ، ها أناذا أَمَةُ الله ، فليكن بحسب كلمتك " (١) .

ونلاحظ أن مريم راحت فى تساؤلات طويلة كيف ألد وأنا عذراء ، لم أعرف رجلا قط ؟ اننى من اسرة تقية ، فكيف أحمل ؟ اننى راهبة فى صومعة ، ولامكان فيها للشبهة ، ان هذا لغاية فى العجب ، أن كونى سأحمل بلا رجل ، أمر فى حد ذاته يدعو الى وقوعى فى أمر ما أنا بالقادرة على دفعه ، لأنه لم تعرفه طبائع قومى ، ولا جرت به عادة النسوة عندهم ، هل أكون أنا الأولى .

ويأتى ملك الرب ، فيأخذها الى رحاب القدرة الالهية ثم يضع بين يديها دليلا منطقيا غاية فى التلازم والوضوح ، ان الذى أوجد الشئ من لاشئ قادر على أن يصنع الشئ من الشئ ولايمكن القول بوجود محال عليه جل

---

(١) انجيل برنابا ١/٥ -١١

وعلا ، ولم يكن للعذراء إلا التسليم ، وتعلن جوابها الذى يشف عن داخل صادق ، وينم عن وجدان مهذب ، ويشعر بكيان متصل بخيوط السماء ، يلتحفها ويفترش الأرض ، فكان جوابها " وإنى لعالمة أن الله قدير ، فلتكن مشيئته " [١].

كما نلاحظ أن خبر البشارة بالحمل أتاها فى ثنايا الحوار ، وعرفت فى أخبار حملها اسم من ستحمل به ، وبعض الملامح التى يجب أن تجعله يتحلى بها ، وذلك واضح فى قول الملاك " كونى حاملا بالنبى الذى ستدعينه يسوع (عيسى) فامنعيه الخمر والمسكر ، وكل لحم نجس " [٢] .

وكأنها راحت تسأل لماذا أمنع طفلى هذا وأحرمه من ذاك ؟ أليس هو شرع بنى اسرائيل الذى يقولون به ليلا ونهارا ، أليس الخمر حلالا ، عندهم والمسكر طلبا لهم ، واللحم النجس غايتهم ؟!!

وكان الجواب :

ان حرمانك الطفل من هذا ، انما هو نوع من الاحترام لشرائع السماء ودليل على أنها تحرم تلك " ولأن الطفل قدوس الله مبارك " [٣] ولما وجدت مريم الإجابة على سؤالها ، بأن طفلها مبارك من قبل خالقها واختارها أما لذلك الطفل مولاها العليم ، وقفت تشكر ربها الخالق وانحنت بجسدها ، وراحت شفتاها تخرجان ما انطوى فى صدرها ثم هتفت " ها أنا ذا أمة الله " تسليم المتوكل ، واحساس بالعبودية المطلقة نحو الألوهية للخالق الذى لا تجد أقرب الى نفسها من الاعتراف به .

---

(١) برنابا ١/ ٧
(٢) برنابا ١/٨-٩
(٣) برنابا ٩/١

ولمح خاطرها أمر الله يرسل إليهـا ، واشتعل الوجدان وراح الخـاطر والوجدان يستعيران ما فى جعبتها ، وهنا انطلقت تردد فى هدوء : " فليكن بحسب كلمتك " (١) وهكذا قص برنابا البشارة والحمل ، وشرح بوضوح ما تمكن منه ، ولكنه ترك أمر الكيفية وشأنه ، وقد سبق القول بأن أمر الكيفية يجب تركه وعدم البحث فيه أولى .

وقد لمسنا أن برنابا ، أغفل أمر الكيفية ، وراح يدلل على صدق حملها لا علـى كيفيتـه حيث قـال " أمـا مريـم ، فـإذ كـانت عليمـة مشـيئة اللـه ، وموجسـة خيفـة أن يغضب الشـعب عليهـا لأنهـا حبلـى ليرجمهـا ، كأنهـا ارتكبت الزنا " (٢) ثم أسلمها الى حالة من التردد ، الذى يقطـن فيـه القلـق والاضطراب ، ولم يذكر برنابا أن حملها عرفت بـه مـن خـلال جبريل ، وأنها بعده استعدت لأمر هى فيه واقعة ، ولعل برنابا تذكر ثـم غـابت عنـه ذكرياته ، حيث تخيلها تستسلم للوهم " فاتخذت لها عشـيرا مـن عشيرتها ، قويم السيرة ، يدعى يوسف (٣) ، ولكنا نؤكد على أن مريم ، وقد علمت أن هذا الحمل بأمر ربها ، فلم تعد بحاجة الى أن تجعل سندها واحدا من الناس وعلى هذا فليست مريم بحاجة الى العشير ، الذى تأوى إليه .

بعد تلك المحاولة لجمع كلمة الأناجيل ، تبقى كلمة وهى :

أن السير خلف روايات الأناجيل حـول – قضيـة بشـارة مريـم وحملهـا بعيسـى– يشـير الـى قصـة اللقـاء الأول بيـن مـلاك الـرب ومريـم ، ولكنهـا لاترسم الملامح للقصة الواضحة فنيا ، ولا تحـدد أدوار البطولـة ، ولا مـن يقاسـمها أو يقـوم وحـده بهـا ، ويوضـح أيضـا أن هـذه الأنـاجيل الأربعـة القانونية لا تتفق مع بعضها ، فى عرض وجهة النظر عند مطالعة العديد

(١) برنابا ١١/١ (٢) انجيل برنابا ١/٢ (٣) انجيل برنابا ٢/٢

من قضايا المسيحية ، وبالتالى فلا يمكن الاعتداد بها ، أو جعلها مصدرا يعتمد عليه إلا فى دراسة العقائد المسيحية التى صنعها القسس وبلورتها المجامع والمؤتمرات المسكونية ، التى يعلن عنها من أن لآخر أتباع بولس رسول المسيحية الأكبر .

الباب الثانى

من النفخ فيه إلى النشأة

الفصل الأول : موقف القرآن الكريم من قضية النفخ فيه والحمل به

الفصل الثانى : مولده عليه السلام وموقف الأناجيل المعتمدة منه.

الفصل الثالث : مولده عليه السلام وموقف القرآن الكريم منه .

الفصل الرابع : قصة المجابهة بين مريم وقومها .

تمهيد

اذا كانت " البشارة هى اخبار المرء بما يسره ، من خبر (١) فان ، مريم العذراء ، وقعت لها تلك البشارة ، وكانت بشارتها من الله تعالى " بكلمة منه ، يعنى برسالة من الله ، وخبر من عنده " (٢) كما أن البشارة قد تطلق على " كل خبر صدق يتغير به بشرة الوجه ، ويستعمل فى الخير والشر ، وفى الخير أغلب " (٣) .

وقد تعرضنا لبعض موقف القرآن الكريم ، من قضية النفخ ، وها نحن نزيد الأمر إيضاحا ، ونقرر أن القرآن الكريم قد وضح عدة أمور فى هذه القضية بيانها كالتالى :

١- أرشد القرآن الكريم ، الى عفة مريم وطهارتها " إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم " (٤) وان مريم الطاهرة من أسرة مصطفاة " إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين " (٥) .

---

(١) الامام الخازن لباب التأويل جـ ١ صـ ٣٠٤
(٢) المرجع السابق جـ ١ صـ ٣٠٤
(٣) الشريف الجرجانى التعريفات صـ ٣٩ مكتبة الحلبى ١٣٠٧/ ١٩٣٨
(٤) سورة آل عمران الآيات من ٣٢ -٣٥
(٥) الآية ٤٢

٢- أنه بين تطور مريم فى سنى حياتها ، وما طرأ عليها ، حتى راحت تتقلب أحضان العمر الهادئ فى رحاب النبى الكريم ، زكريا عليه السلام زوج خالتها وكافلها .

٣- أنه ركز على حركة مريم ، وقدرتها فى مواجهة الأحداث ، فانتبذت من أهلها ماكان يجيش بخاطرها ، ومايتراقص على ساحة فؤادها .

٤- شرح قضية النفخ ، بأنه تم بارادته تعالى ، وعلمه ، ولم يكن هناك واحد يمكنه أن يسمعه أخبارها .

٥- حدد القرآن الكريم مكان النفخ من مريم ، بأنه فرجها باعتباره المراد ، وحين ذكر كل بدنها خص منه الفرج لأنه محل الحمل ومكان الجنين وفيه من وجوه البلاغة ما فيه .

٦- أبهم قضية الكيفية ، حتى يبذل كل ما فى وسعه ، فى محاولة للكشف عن الغائب المجهول مع تدقيقاته وتفاصيله ، أو كشف ذلك السر المكنون ، وكل ذلك لم يجعل الباحثين يقطعون بأنهم وصلوا الى غيب يبتغونه أو غريب يأملون حصوله بل انهم مازالوا ينتظرونه ليكشف لهم عن مواطن اختفائه .

ذلك أمر الكيفية ، وقد أوجز القرآن الكريم فيها القول ، أما من عمل على التشقيق فقد شقق على نفسه ، وجعلنا نضبطه فى أمر وقع فيه وسنعلق على بحثه ونحن ننقله .

الفصل الأول

موقف القرآن الكريم
من
النفخ فيه والحمل به

تعليق خفيف

حاول أحد الباحثين صبغ الديـن بقضيـة العلم وإلهـاء النـاظرين إليـه ، حتـى لا يقف النـاقدون منـه موقف البصير بألاعيبـه ، علـه يلقـى علـى الجائعين ثمرات الوهم ، ويوحى اليهم أنهـا مـن نبت العلم ، وذلك ليؤيد غرضا فى نفسه ، ولما كانت المسألة يهتم بهـا علـم مقارنـة الأديـان علـى العموم ، وقضية الاسلام على الخصوص ، سأنقلها وأعقب عليها .

قال : فى كتابه " اللـه واحد فـى ثـالوث ، أن دم المسيح مختلف عن دمائنا ، وكان غرضه الوصول الى أن المسيح بهذا هـو ابـن اللـه – تعـالى الله عن قوله وغيره علوا كبيرا – واحتكم الى مسائل العلم المعملى ، بعيدا عن نصوص دين الإسلام ، أو نصوص الدين الذى ينسب اليه بغيـة القـول بان عيسى ابـن اللـه علـى الحقيقـة ، وحتـى يبعد تصرفـه عن المسـاءلة ، اعتبر نفسه ناقلا عن غيره ، فاذا سلمت أراح صدره وان وقعت تعلل بأنـه مجرد ناقل فقط ، قـال :

" لهذا نفضل أن نسجل أقـوال الدكتـور ، دوهـان ، فـى هـذه النقطـة ، حيث قال : يختلف دم المسيح عن دمنا ، من ناحية خلوه التام مـن أى أثـر للخطية ، ولهذا فهو دم ثمين ، وفى نفس الوقت غير قابل للفساد وهذا الـدم غير البشرى ، دم الرب يسوع المسيح " .

والذى لا يستقيم هنا هو منطق الناقل وزميله لأنه صادر على مطلوبـه وقد اعتنق النتيجة قبل أن يذكر المقدمات ، ذلك أن اختلاف دم المسيح عن دم غيره من بنى البشر ، عقيدة مسيحية لـم يقـم دليـل واحد علـى صحتهـا يخلو من وجوه الضعف ، وخلوه من أى أثر للخطية ، تلك عقيـدة مسيحية

أخرى تقوم على أن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة ناسيا ، ورث أولاده ، من بعده الخطية ، وهذه العقيدة أَوْهَى من سابقتها وأوهن .

وقد حكى القرآن الكريم ، أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى ، قال تعالى : " أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى " (١) .

أما كونه دما غير قابل للفساد ، وهو دم الرب يسوع المسيح ، فتلك عقيدتهم ، ولا يتفق معهم عاقل عليها ، الا أن الرجل راح يدلل على صدقها ، ومن هنا وجبت مناقشته احتراما للعلم الذى يستند عليه ، واحتراما لعلم مقارنة الأديان الذى نقوم عليه ، ثم نقل القس بقية مقال الدكتور دوهان على هذا النحو .

فقال " موضوع الدم فى حالة الحمل ، هو عطاء من الأب ومادام الأب من أولاد آدم ، اذاً فهو خاطئ - لأن آدم عندهم قد أخطأ حين أكل من الشجرة ، وهو يورث أبناءه تلك الخطيئة عندهم أيضا - أما عناصر جسم الطفل ، قبل أن يولد فيتكون من الأم ، بينما الحياة التى هى الدم ، تأتى من خلية الرجل ، بعد اتحادها ببويضة الأم " .

وهنا مغالطة علمية ، لأن الحياة ليست هى الدم الآتى من خلية الرجل انها قاسم مشترك بين البويضة والحيوان المنوى ، فاذا قيل إن الحياة تأتى من خلية الرجل فقط كانت مغالطة علمية تكذبها المعامل واما إذا كانت من خلية الرجل ، وبويضة المرأة ، فذلك أمر عادى إلا أنه يواصل مغالطته نافلا .

(١) سورة النجم الآيات ٣٦-٤١ .

" وهكذا تكون بداية الحياة الجديدة فى بطن الأم ، نتيجة اتحاد الخليتين الصغيرتين ، بويضة أنثوية لاترى بالعين المجردة ، وحيوان منوى أصغر منها ، أما البويضة ، فهى البذرة الأنثوية ، وأما الحيوان المنوى فهو البذرة الذكرية ، وعندما يدخل الحيوان المنوى (Sperm) فى البويضة الأنثوية يتم الحمل ، وتبدأ حياة جديدة فى بطن الأم " .

وهذا فى حد ذاته ، كلام علمى لا غبار عليه ، الا أن تصويره ، له واستدلاله به يفقدانه حيدته ، ويجعلانه موضع الإتهام والشك وذلك ما سيتضح حيث ينقل ، قائلا " اذاً الحياة تبدأ بخلية واحدة " وذلك ما يجعلنا نتهم العلم ، حيث تقرر سلفا أن الحياة تبدأ من اتحاد خليتين مذكرة ومؤنثة ، كل واحدة منها خلية واحدة ، ولأن العلم يقرر أن الخلايا التناسلية واحدة ، فاذا جاء العلم على لسانه ، وقال أن الحياة تبدأ بخلية واحدة وقفنا منه والعلم معنا ، إذ كيف يكون التقابل بين اثنين حيوان منوى (Garm.Plasm) مكون من خلية واحدة ، وبين بويضة أنثوية مكونة من خلية واحدة أيضا ، ويقال عليهما معا ، انهما خلية واحدة ؟! انهما على انفرادهما ، تسمى كل منهما خلية واحدة ، أو أحادية ، وحين تلتقيان/بإذن الله تعالى / يطلق عليهما الخلية المزدوجة ، أو الثنائية ، أو الخلية الملقحة بلغة العلم :

وهذا بعينه نص التقرير الذى ينقله ، ويستعمل فيه قلمه ، يقول النص المنقول " اذن الحياة تبدأ بخلية واحدة - غير مسلمة - وهى حين تتقابل بذرة الذكر مع بذرة الأنثى فتدخل الأولى - بذرة الرجل - فى الثانية - بذرة الأنثى - وتغلق البذرة الأنثوية ، على الحيوان المنوى تماما ، لتكون النتيجة خلية واحدة ، جاءت من اندماج واتحاد الخليتين الأصليتين

" والسؤال الآن على النقل، هل هما خلية واحدة أم يقال عليهما معا خلية ملقحة ؟!! ان العلم يؤكد أنهما معا خلية ملقحة .

ثم يقول النص " أما باقى الخلايا المكونة للجسم والدم فتأتى نتيجة إنقسام الخلية الأولى ، فى داخل الجنين بحيث لا تدخل أية خلايا أخرى من الخارج ، أما عناصر بناء الجسد الصغير للطفل ، فهى من الأم مع عدم دخول أية أنسجة منها الى الجنين ، وهذا عن طريق دم الأم الذى يفصل بين الدورة الدموية للأم ، والدورة الدموية للطفل ، " ونحن مع العلم فى هذا ، ولا غبار عليه ، غير أن النقل لا يقف عند هذا الحد ، بل يواصل حكاية التقرير ، آملا أن يصل الى مايريد فينقل .

" ان الخلية الأولى ، والمكونة من اتحاد البويضة بالحيوان المنوى تنمو بانقسامها ذاتيا " ونحن كمسلمين نعترض على التعبير ذاتيا ، وانما نقول تنمو بعناية الله الخالق لها ، والذى أراد للخلية الملقحة مايدور فيها " فتنقسم الى ٤ ثم الى ٨ ثم الى ١٦ ثم الى ٣٢ ثم الى ٦٤ ثم الى ١٢٨ ، وهلم جرا ، حتى يكتمل الجسم كله ، وتلك الخلية تحتوى على شيئين :

(١) الجينات ، وهى المادة الحاملة للصفات الوراثة .

(٢) الكروموزومات ، وهى المادة النى تحدد نوع الجنس (١).

وهذا التقسيم الذى ذكره القس ناقلا ، انما هو للخلية الملقحة ومادام يتحدث بلغة علم المعامل ، كان عليه أن ينقله كاملا ، أو عن مراجع معتمدة ، اذ من المعروف علميا ، أن أجسامنا تتكون من خلايا ثنائية التقسيم وذلك يدل على أنها دائمة الإنقسام ، وانقسامها راجع لصالح الجسم نفسه ، اما لنموه أو تعويضه بدل ما يفقده منه ، أو عند موت بعض الخلايا ، وموتها

---

(١) القس . بولس فرج بولس – الله واحد فى ثالوث صـ٨٤ – ٨٥ بتصرف

معروف ولأسباب كثيرة " وكل خلية من هذه الخلايا تتكون أساسا من مادة عجيبة ، نطلق عليه اسم " البروتوبلازم " ، وبداخل كل خلية محتويات عدة ذات وظائف محددة ، وعدد هذه المحتويات الكروموسومات ثابت فى خلايا كل نوع من أنواع الحيوان والنباتات المختلفة ، وفى كل خلية من الخلايا التى يتكون منها جسم الإنسان ستة وأربعون من هذه الكروموسومات ، وعندما تنقسم الخلية الى خليتين داخل أجسامنا فإن كل خلية جديدة لابد أن تحتوى على العدد نفسه من الكروموسومات .

" ان جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الإنقسام فى جسم الإنسان لابد أن تحتوى – كما ذكرت – على ستة وأربعين كروموسوما ، ماعدا نوعين أو ثلاثة من الخلايا هما : الخلايا التناسلية ، الخلايا العصبية ، والخلايا العضلية ، ذلك أن الخلايا التناسلية ، أى الحيوان المنوى فى الذكر والبويضة فى الأنثى ، عندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية ، فانها تنتج خلايا تحتوى على الستة والأربعين كروموسوما فقط لماذا ؟

لأن الخلية الذكرية ، الحيوان المنوى ، لابد أن تندمج هى والخلية الأنثوية – البويضة – لتكوين أول خلية فى جسم الجنين ، وهى التى نطلق عليها اسم (الخلية الملقحة) حيث ينضم الثلاثة والعشرون كروموسوما ، التى فى الخلية الأنثوية لكى يعود عدد الكروموسومات فى الخلية الجديدة ، الى العدد الأصلى ، وهو ستة وأربعون كروموسوما ، وهذه الخلية الملقحة ، التى أصبحت تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما يتوالى انقسامها فتصبح ، خليتين ثم أربع خلايا ، ثم ثمان خلايا ... وهكذا حتى يتم تكوين الجنين ، الذى يخرج من بطن أمه " (١) بإذن الله تعالى .

---

(١) الاستاذ/الدكتور يوسف عزالدين عيسى. الله أم الطبيعة ؟ دار المعارف سلسلة كتابك صـ٥/٧

وحتى يصل الى غرضه اجتزأ من المقال العلمى ، ما يتصور أنه موصله الى ما يريد ولذا سنعمل على متابعته حتى نكشف عن وجه الخطأ عنده – يقول ناقلا " وبالتناسل ينفصل الحيوان المنوى ، (Sperm) من جسد آدم وبه الروح ويدخل فى رحم حواء ثم تبدأ فى بناء الجسد ، وعندما يكمل هذا البناء يخرج الجنين بانفصاله عن جسد حواء الى الدنيا انسانا جديدا "(١) .

ونحن لانتفق معه هنا ، لأن العبارة توحى بأن الرجل وحده سبب الحياة ، وأنه يعطى مع فضلاته الروح فقط ، بينما الجسم تمنحه المرأة ، وهذه النظرة ليست على صواب ، لأنه قد سبق وتقرر ، أن بويضة الأنثى فيها أيضا مادة الحياة – الروح – والا لما نمت ، ولما تفاعلت مع الحيوان المذكر للرجل ، ولكن [illegible] يؤثر عبارته ، ليصل الى أن عيسى جاء من أم ، ولابد له من أب ، يمد هذه الأم بقطعة منه ، فيها الروح ، وقد ثبت أن مريم أم عيسى عليه السلام ، لم يكن لها بعل من البشر أصلا اذن لابد لعيسى من أب يهب لأمه حياته ، وذلكم هو الله تعالى عن قولهم وتعاظم .
فاقرأ ما ينقله [illegible] ويكتبه وان " هذا هو السبب فى ولادة المسيح من العذراء ، ففى الوقت الذى لم يحصل فيه على جسد من العذراء فانه لم يحصل على دم منها ، ثم حصل على بذرة الحياة من الروح القدس أى بعيدا عن أى أب بشرى خاطئ ، وهكذا تجنب المسيح دم آدم الخاطئ كلية "(٢) وقد سبق أن البويضة الأنثوية ، تبتلع الخلية الذكرية كما أنها تتأثر بها وتؤثر فيها ، فكيف يسلم مقال لعب فيه قلم ؟!

---

(١) القس بولس فرج بولس – الله واحد فى ثالوث صـ ٨٧ .
(٢) المرجع السابق صـ ٨٦

كما أنـه يريد أن يشيع فوضى علمية ، مستغلا قلمه ، متناسيا قواعد المنهج العلمى ، ومتجاهلا قانون الاطراد فى العلم والاستثناء فيه ، ناسيا أن مريم ، أم المسيح عليه السلام ، لم تكن ككل الناس فهى لم يأتها ما عهدته الفتيات والنسوة ، ولم تعرف ذلك الضيف الثقيل الذى يؤانس الأنثى عدة أيام من كل شهر ، علامة من معالم نضجها فلم تكن مريم ككل الاناث

كما أنه من المعروف علميا أن " الدورة الشهرية للأنثى نظام معقد يتم التحكم فيه كلية بواسطة الهرمونات الجنسية المختلفة Hormones المنشطات ، والتى تفرز فى غدة الجسم السفلى ، وفى المبيض هذه الهرمونات Hormones تعمل على احداث التغيرات الوظيفية المختلفة فى الجهاز التناسلى للأنثى ، تبعا لدورة خاصة ثابتة لا تتغير " (١) والسؤال الآن ، هل كانت مريم كذلك ؟

الجواب : كلا .

وحتى لا نتجنى على مقصده ، سنترك الفرصة ليدلى برأيه ، وليحدث بما فى وجدانه فيقول " وبانفصال الحيوان المنوى Sperm من جسد آدم ، وخروجه الى الخارج حيا ، أصبحت عملية ولادة ، أى ولادة الروح " وأصبح آدم والدا لهذا الجنين الذى يتكون من اندماج الحيوان المنوى مع البويضة ، بعدة عمليات معقدة ، حتى تصبح حواء والدة وتصبح الأم ، وبالإختصار فان الرجل يعطى الروح لابنه فيصبح والدا ، أو أبا ، والمرأة ، تعطى الجسد لابنها وتصبح له والدة " (٢) ثم يواصل ناقلا مدللا على مقصده الفاسد فيقول :

---

(١) الدكتور / محمد مصطفى الفولى / بعض مظاهر التقدم فى البيولوجية صـ ٧٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م .

(٢) بولس فرج بولس – الله واحد فى ثالوث صـ ٧٨ .

" وفى حالة يسوع المسيح ، نجد أن التى أعطت الجسد للمسيح العذراء مريم ، فهى أم الطفل يسوع (عيسى) وهو ابنها ولنبحث عمن أعطاه الروح ليكون له أبا ، فنجد أن روح يسوع هى من الله فيكون الله الأب ، والدا ليسوع المسيح ، ويسوع ابن الله " وهكذا تخيل أن المعركة قد انتهت وأنه قد فاز فيها ، والصواب أنه الذى بدأها ، وقد انهزم فيها ، لأنه ما من عاقل ، الا ويدرك أن وجود جميع الكائنات مستمد من الله ، وأن آدم نفخة من روح الله ، " ونفخت فيه من روحى " ، بل ولا كائن من الكائنات فيه نسمة روح ، إلا وهو مستمد روحه تلك من روح الله ولم يقل أحد أنه ابن الله ، كما يقول ويدعى ، ولم يسلب واحد تلك العناية الإلهية ، والروح السارية إلا الملاحدة ، وأصحاب المذاهب الطبيعية ، أو الماركسية التى تنفر من الأديان ، ولا تؤمن بإله إلا أنه يواصل ناقلا " وحيث أن روح يسوع المسيح ، هو روح الله ، يكون المسيح هو الله نفسه " ولاشك أن هذا التعبير " بيكون المسيح هو الله نفسه" ، بعيد كل البعد عن لغة العلم المعملى الذى بدأ معركته به ، بل هى عقيدته ومن يجرى معه طريقه الذى يقوم على نسبة البنوة لله تعالى ، والحلول والاتحاد ، وقد برهن القرآن الكريم على كذب هذه الإفتراءات ، وقضى عليها .

إلا أنه يعلل ما حكم به " لأنه نفس الجوهر ، والطبيعة اللاهوتية وحيث أن يسوع المسيح ، خرج من جسد إنسان ، فهو إنسان كامل ، وحيث أن روحه هى روح الله فهو إله كامل ، فيكون يسوع المسيح ابن مريم بالجسد ، وهى أمه ، ويكون المسيح ابن الله بالروح ، وهو أبوه ، أى الله الأب " (١) وتلك مغالطة مايقول بها متدبر ، للأسباب التالية :

---

(١) بولس فرج بولس – الله أحد فى ثالوث صـ٨٨

أولا : أن اللـه ليس جوهرا ، عند علمـاء الإسـلام ، وفـى قواعد مقارنـة الأديان لأن الجوهر " ينقسم الى بسيط روحانى كالعقول والنفـوس المجـردة ، والى بسيط جسمانى كالعناصر ، والى مركب فـى العقل دون الخـارج ، كالماهيات الجوهرية المركبـة مـن الجنـس والفصـل ، والـى مركـب منهمـا كالمولدات الثلاث " (١) والله سبحانه وتعالى ، لا يقال عليه واحد من تلك ، ثم ان الجوهر متحيز بذاته ، أوفى غيره على سـبيل القيـام بـه ، وفـى هـذا نوع من الاحتياج ، الذى يتنزه البارى جل وعلا عنه .

ثانيا : كون المسيح خرج من جسد مريم فقط (على زعمـه) فتكـون مريـم قد أعطته الجسد فقط ، وبالتالى لا يكون عند ولادته انسانا كاملا ، بل يقال عليه جسد فقط ، كما لو ولدته ميتا ، فالميت لايقال عليه انسان كامل ، انما الانسان الكامل هـو الـذى يوجـد بالجسـم والـروح ، فهـل يرضـى ، أن يكـون النـاقص كـاملا والكـامل ناقصـا ؟ ، ان هـذا قلـب للحقـائق ومكـابرة ظاهرة .

ثالثا : أما كون روحه (عيسى) – على زعمه – روح الله فغاية الغرابة لأن الله ينفخ فى خلقه من روحه ، وحذف حرف من الذى قـام بـه ، موقـع فى التجسيم والمنقصة ، والسؤال عليه كيف تكون روحـه هـى اللـه ، ويكـون الهـا كـاملا ، مـع أن الـروح مشـتركة بينهمـا إذن فـلا يكـون أحدهمـا كـاملا ، ولايصلح أحدهما أن يكون الها وبالتالى تبطل دعوى أن المسيح اله كامل .

رابعا : حديث الناقل والمقال ، يشيران الى أن المسيح ليس انسانا كـاملا ، وهذا وقوع فى نبى من أنبياء الله ، أمرنا الله تعـالى بالايمـان بـه ، ونـنزه رحابه عن النقص الذى يخل برسالته أويؤدى ، الى نفرة الناس عنه .

---

(١) الشريف الجرجانى / التعريفات صـ ٧١ باب الجيم .

ثم ان هناك ملاحظات على المقال الذى جعله عمدة فى استدلاله ، وهذه الملاحظات منها ماهو معملى خاضع للتجربة والملاحظة ، ومنها من نتاج العقل وحده ، المنطقى المتسلسل القائم على البديهات ، وترتيب المقدمات .

أولا : النواحى المعملية :

قرر المقال أنه بانفصال الحيوان المنوى من جسد آدم وخروجه الى الخارج حيا ، تتم عملية ولادة الروح ، ونحن نقول له يلزم على ذلك القول أن يكون آدم والدا لكل حيوان منوى ، خرج منه للحياة ، سواء تعامل مع البويضة ، أو لم يتعامل معها اذ من المعروف فى باب العلم التجريبى ، أن مرة القذف عند الرجل العادى تفرز ما يقرب من ١,٥-٤ سم مكعب من السائل المنوى The sperm ، فهل يصبح والدا لها ، ولو لم تلتق ببويضة أصلا ؟

ماذا يفعل آدم ، لو أن البويضة ، كانت فى خلاف مع جرابها ، وهى فى مرحلة استرخاء كامل ، وقد تقرر أنه " عند ظهور الحيض ، تطرد البويضة غير المخصبة مع الانسجة المخاطية للرحم ، وتبدأ الدورة الجديدة تحت تأثير الهرمونات Hormons التى تفرزها غدة الجسم السفلى Hypophysis ، التى تفرز هرمون تنشيط الجراب Follicle والمسمى جونادوتروبين وبعد ذلك يفرز هرمون تنشيط الخلايا الخلالية [١] .

وماذا يقول الناقل والمقال ، اذا كانت الروح التى يخرجها الرجل حية وتلاقت مع بويضات غير كاملة الاستعداد للتعامل معها ، كما هو الشأن لدى المرأة التى أصابها العقم ، وابتلاها الله به .

(١) الدكتور / محمد مصطفى الفولى - بعض مظاهر التقدم فى العلوم البيولوجية ص ٧٦ ، ٧٧

لاشك أن العلوم البيولوجية ، توكد على أن هرمون " جونـادوتروبين " يؤدى الى نضوج الجراب ، ثم يؤدى هرمون تنشيط الخلايا الخلالية ، الى أن يقوم الجراب بافراز الهرمون المسـمى بهرمـون الجراب " الاسـترون " الذى ينشط عملية تكوين البويضات ، ويلاحظ أن جميع الهرمونات ، التـى تفرزها مادة الجسم السفلى ، تتحكم فى العمليات التى تتم فى المبيض[١]

وأيضا ، ماذا يقول ، اذا قلنا له على من تقع المسئولية الجنائية ، اذا أخرج الرجل حيوانات حية – الروح – وكانت البويضة فـى عنـاق تـام مع حيوان منوى تم الزفاف اليه فى لقاء سابق ؟ ومن المعروف معمليـا أن الرحم سيكون مشغولا بعمليات ضخمة ، تحتاج منه الى تكثيف مجهوداته لانتاج عدة هرمونات ، وهـو فـى حاجـة ماسـة لدافـع قـوى ومنظـم أكيـد ، ليؤدى له واجب التحكم فى العمليات التى تتم فيه

ولاشك أن الغدة التناسلية – المبيض – التـى تقـوم بـدور فعـال لخدمـة الرحم حين تفرز له هرمونات تقدمهـا – الغـدة التناسـلية – The ovaries الى الرحم لتتحكم تلك الهرمونـات فـى العمليـات التـى تتـم داخـل الرحـم ، فهرمـون الاسـترون ، الـذى يفـرزه الجـراب ، وهـو ينشـط عمليــة تكويــن البويضات فى المبيض ، فانه بالنسبة للرحم " يؤثر على غدة الجسم السـفلى ويقلل افراز هرمون " جونادوتروبين " وبالتالى يرفع نسبة هرمــون تنشـيط الخلايـا الخلاليـة ، والـذى يـؤدى وجـوده بنسـبة عاليـة الـى تشـجيع تكويـن هرمون الاسترون والاسترون يتحكم فى افراز هرمـون البروجسـترون ، الذى يؤدى الى تهيئة الغشاء المخاطى للرحم ، لاستقبال البويضة المخصبة ، وتستمر هذه الحالة طوال استمرار افراز البروجسترون .

(١) المرجع السابق صـ ٧٧

واذا لم تلقح البويضة ، فان الجسم الأصفر ينكمش نتيجة لقلة افراز هرمونات غدة الجسم السفلى ، ويقل انتاج البروجسترون ، ولايمكن أن يحتفظ الرحم بالغشاء المخاطى ، الذى يطرد خارج الجسم "(١) ،

وماذا يقول [illegible] ، اذا قلنا له ماذنب رجل اختار له موجهوه ، أن لايعدد ، وقد وجدت زوجه عقيما ، لأن رحمها خامل ، يحب الهدوء ، وفشلت كل الوسائل لاقناع المبيض بأن يستجيب ، هل يكون هذا الرجل أبا ، ولا ولد له ؟ مع أنه يعطى الروح ، -على حد تعبيره [illegible]- ، لكن أمامه مبيض لايتمكن من التعامل مع افرازات الرجل ، ومن المعروف علميا " أن نظام الدورة يعتمد أساسا على تنشيط المبيض على هذه الغدة ، واذا حدث اخصاب للبويضة ، فان الجسم الأصفر ينمو ويؤدى الى زيادة انتاج البروجسترون ، ويمنع طرد الأغشية المخاطية ، وتنقطع الدورة (٢) .

ونحن نتسأل مع المتسائلين ، هل يرضى أحد أن يلد الرجل ، وأن نطلق عليه أنه ولد ابنه ، لمجرد أنه قذف بعض فضلاته ، ثم نسميها ولادة الروح ، ان هذا اسقاط لشأن الرجل ، واطلاق العنان للمرأة بلا مبرر ، بل هو حط من شأن المرأة أيضا وانقاص من قدرها حين يشاركها الرجل أخص خصوصياتها ، ولايقول به باحث منصف . فما بالك أيها [illegible] ؟

---

(١) المرجع السابق صـ ٧٧

(٢) المرجع السابق صـ ٧٧

ثانيا : الملاحظات المنطقية :

١- لماذا يعتبر روح يسوع هى وحدها روح الله ، وما كل الأرواح الا من أمر الله ، قال تعالى : "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " (١) بل هى نفحة من نفحات فضله ، ومامن عاقل الا وهو ينزه الخالق عن مخلوقه فهل يسمح القس لنفسه أن يقول ان الله والد لعيسى لمجرد أن الله نفخ فى أمه من روحه وأمره ؟!

قال الحق جل وعلا مكذبا قولهم " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله " (٢) ونعى على مدعى البنوة لله " وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق " (٣) ونفى مقولة اليهود والنصارى فى أنبيائهم فقال تعالى :" وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون " .

" اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله هو سبحانه عما يشركون " (٤) ومن هنا فان ادعاء المقال ، ومن يجرى معه ادعاء كاذب ، لامبرر له ولاأساس يقوم عليه ، ومادام القرآن الكريم ، قد حكم فهو الفصل وقد عرضنا المقولة على حكم العقل فأنكرها .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨٥
(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١
(٣) سورة المائدة الآيتان ٣٠ ، ٣١
(٤) سورة التوبة الآيتان ٣٠ ، ٣١

٢- حاول المقال فرض بنوة الله جل وعلا ، عن طريق المعمل ، الا أن كل التجارب كذبته - كما بان منذ قليل - مـ أن قانون الاستثناء ألجم المقال ، فقد تقرر " أن نمو المسيح فى رحم أمه ، قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كل الكائنات البشرية ، فالبويضة التى أنتجها مبيض أمه ، لم تحتج للالتقاء بحيوان منوى Sperm يأتى من أبيه يشكل جنينا ، ثم طفلا قابلا للحياة ، ان الظاهرة التى تؤدى الى ميلاد الكائن الحى ، دون تدخل من العنصر المخصب للذكر ، تسمى التلقيح الذاتى Parathonenes ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتى فى عالم الحيوان تحت ظروف معينة " (١)

٣- نقول ....، ان ادعاءك للاله ابنا ، قد سبقك فيه الكثيرون ، وهو ما تقرره بعض كنائسكم ، وينفر منه البعض الاخر ، ويرفضه كل عاقل الا من " اعتبروا التفكير فى مسائل العقيدة او السؤال عن حل متناقضاتها عندكم خروجا على العقيدة ، لأنهم بنوا عقيدتهم على أساس المبدأ القائل "الغ عقلك وسلم ، وخذ وأنت أعمى " (٢) ، وقد تكفلت كتب عديدة بالرد على هذه العقيدة الكنسيه (٣) .

٤- تخيل ... ، أن الروح يمكن انفصالها عن الجسد ، ويمكن التفرقة الحسية بينهما ، وتلك نظرة فلسفية مردودة ، لم يتمكن مدعوها من الظفر بأدلة عليها ، ألا فى عالم الخيال ، ونحن نجاريهم فيه بما وسعهم من جهد.

---

(١) د/ موريس بوكاى - دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة صـ ١٠٤ - ١٠٥

(٢) الدكتور / على محمد جبر محاضرات فى علم الكلام صـ ١٠

(٣) راجع أدلة اليقين للجزيرى . وقصة الأديان د/رفقى زاهر ، كتب التفسير عند شرحها للآيات التى تنفىالشريك والصاحبة ، والكتاب البديع ، للشيخ رحمت الله الهندى-اظهار الحق قد افاض فى بيان ذلك ومناقشته .

٥- خيل المقال للقارئ أن المسيح عليه السلام يتقمص عدة شخصيات ، فمرة يكون انسانا كاملا ، لانه ولد من انسان بالجسد حيث قد ولدته العذراء مريم ، وهى من البشر وأتت اليه الروح من الله ، ومرة يكون الها كاملا أنفصل عن الاله الأول باعتبار أنه روح الله – على زعمهم – وما مرجع ذلك عندى الا الى الأثار التى عرفها اليونان من قبل ، وترددت فى كتابات الزرادشتية ، وكانت جزءا من تراث الأساطير المصرية ، ذات الطابع الفرعونى القديم وقد ورد ذلك كله فى قصصهم الخيالية كقصة ايزيس ومن معه ، ولذا سنضرب صفحا عنه .

٦- ما كنا نأمل أن تكون زلات المقال بهذه السعة ، وما كان لنا أن نبرئه مما نطقت به عباراته ، ذلك أن علم مقارنة الأديان ، يقوم على الأدلة ، ويرجح ما تغلب الأدلة عنده على غيره ، بعيدا عن اعتقاد الشخص ، الا أن المقال اعتقد صاحبه أولا ثم راح يدلل على صدق ما اعتقد ولذا سيبذل كل ما بوسعه بغية الظفر بما رام اليه ورنا ، وبالتالى تصدق حكايتنا عنه ، وحكمنا عليه ، ولا يصمد حكمه ، ولايقبل ادعاؤه ، بل ولايكون له من حق الحديث عن الأديان ، فى حكاية مقارناتها ، أو مقابلتها .

بيان الكيفية بطريقة معملية

تقوم هذه المحاولة على أن البويضة فى جسم المرأة ، تأتى من داخل أحد المبيضين ، حيث أن كل واحد منهما يفرز بالتناوب ، بويضة فى كل شهر مرة ، وأن هذه البويضة تستمر مدة صالحة للتلقيح ، تلك المدة هى ثلاثة أيام على الأكثر ، وتلك البويضة ، متى تم التقاء فضلات رجل قادرة

على الاخصاب بها يمكن أن يتم الحمل باذن الله تعالى ، ولا شئ غير أن بويضة مريم لم تكن كباقى البويضات ، عند كل النسوة ، وبالتالى فلم تكن بحاجة الى حيوان منوى ملقح ، وانما تم فيها التلقيح الذاتى :

اذن الارهاص فى مريم ، هو تحويل تلك البويضة من بويضة محتاجة الى حيوان منوى ، الى بويضة عذراوية ، لاتحتاج اليه ، ويكون ذلك ارهاصا بمقدم عيسى عليه السلام ، وقد قال أصحاب هذه الطريقة " ان نمو المسيح فى رحم أمه ، قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كل الكائنات البشرية ، فالبويضة التى أنتجها مبيض أمه ، لم تحتج للالتقاء بحيوان Sprem يأتى من أبيه ، ليشكل جنينا ثم طفلا قابلا للحياة ، ان الظاهرة التى تؤدى الى ميلاد الكائن الحى ، دون تدخل من العنصر المخصب الذكر ، تسمى التلقيح الذاتى : Paratho Ngenes ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتى فى عالم الحيوان تحت ظروف معينة ، وتلك حالة حشرات متنوعة ، وبعض اللافقريات ، وهى تخص أيضا حالة جنس منتقى من الطيور ، ولكن هذا استثنائى جدا [١] .

وأيضا فان كثيرا من الحيوانات ، يأتى من غير أب ظاهر ، فالدودة الوحيدة مثلا لاذكر لها ، وقد خلق الله فى أنثاها أعضاء التذكير واعضاء التأنيث ... بل ان الولادة بدون أب ، أصبحت قضية من قضايا العلم ، فليست أمرا خارقا للعادة الأن بل هى أمر ممكن عادى ويعبر عنه فى علم الحيوان والنبات بالتلقيح العذراوى " كيف ؟

---

(١) د. موريس بوكاى-دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة دار المعارف ص١٠٤-١٠٥

" ذلك لأن البويضة الواحدة تنقسم الى خلاياها الكثيرة ، وتأخذ طريقها الطبيعى فى تكوين أنسجة الحيوان المختلفة ، بدون أن يخصبها حيوان منوى ، نعم ان ذلك قليل ، ولكنه أصبح قضية من القضاياالمطردة ، لأنه قد شوهد فى كثير من الحيوانات (١) غير أن صاحب تفسير المنار ، لم يرق له هذا الرأى (٢) وان كنا نرتضيه ، كما قدمنا الأدلة دون تشبيه أو تعطيل .

فترة الحمل

ألمحنا فى عجالة سريعة ، لبعض الومضات ، كما هو الشأن فى هذا المكتوب ، وتبقى نقطة تحتاج الى بحث ومطاولة ، ولكنا سنمضى فيها كالعهد بنا فى هذه الومضات ، فقد اختلفت مدة الحمل ، واختلفت فيها وجهات نظر الباحثين ، كل حسب فهمه للسياق القرآنى وسنلم بطرف منها فى تلك السطور .

قص القرآن الكريم ، علينا حكاية حمل مريم بعيسى ، ولكنه لم يحدد تلك الفترة ، من الحمل به حتى وضعه ، فاختلف النظار فى هذا الأمر وكل أدلى فيه بدلو ، وعمل على أن تؤازره **الأدلة** وقد نتفق مع بعض النظار ، وقد نختلف ، ولكن يبقى شئ هو " ان الاختلاف فى الرأى ، لا يفسد للود قضية " طالما أن الأدلة هى الفيصل ، بحيث لاتطاول فى الصواب ، ولاتناول فى العلو .

---

(١) الشيخ/عبدالرحمن الجزيرى-أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن الملشرين . المسيحيين فى الاسلام صـ٣٦٢،٣٦١ طبعة أولى ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م مطبعة الارشاد بشبرا .

(٢) الشيخ/رشيد رضا-الوحى المحمدى-أنظر مناقشة الرأى فيه وتفسير المنار جـ٣ .

ويمكن تقسيم تلك الانظار على النحو التالى :

أ- القائلون بأنها المدة المعتادة لدى جميع النسوة .

يؤكد أصحاب هذا النظر ، على أنها المدة المعتادة ، لدى من باشرن الحمل وأنها التسعة شهور الهلالية ، وحجتهم أنها لوكانت غير المدة المعتادة ، لذكرت فى القرآن الكريم ، أوفى السنة المطهرة ومن هؤلاء:

١- الشيخ / محمد أبو زهرة .

قال رحمه الله " لم تبين الآثار مدة الحمل ، فلم ترد فى الصحاح أثار تبين تلك المدة ، ولوكانت مدة الحمل غريبة لذكرت ، فليس لنا اذن الا الفرض بأن مدة الحمل ، كانت المدة الغالبة الشائعة بين النساء ، وهى تسعة أشهر هلالية " (١) وهذا هو المشهور عند الجمهور "(٢) .

٢- الأستاذ الدكتور / رفقى زاهر .

يؤكد على أنها الشهور التسعة الهلالية حيث " تمت أشهر الحمل لمريم عليها السلام ، ووضعت ولدها -يسوعا- المسيح فى بيت لحم "(٣)

٣- الدكتور / أحمد شلبى .

يعلن أنه بدأ الجنين يدب فى رحم العذراء ، وكثرت أوهامها وأفكارها عما سيقوله الناس عنها ، وخرجت من الهيكل الى قريتها الناصرة ... فلما أوشكت على الوضع ، وأحست ألم المخاض ، خرجت من القرية فأجاءها المخاض -دفعها- الى جذع نخلة يابسة ، وحيدة فريدة حيث وضعت السيد المسيح " (٤) عليه السلام ، ويبقى للدكتور / شلبى أنه أرجع ماهية الحمل الى

---

(١) الشيخ الامام/ محمد أبوزهرة - محاضرات فى النصرانية صـ١٤
(٢) الامام ابن كثير - تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ ١١٦
(٣) الدكتور: رفقى زاهر قصة الأديان صـ ١٤٠
(٤) الدكتور أحمد شلبى - المسيحية صـ٣٥

المشيئة الالهية حيث ان الحمل مرتبط " بالمشيئة الالهية ، أكثر من ارتباطه باللقاء بين الزوج وزوجته ، وفى حالة عيسى تمت المشيئة دون لقاء " (١).

٤- انجيل برنابا :

يؤكد أنها المدة المعتادة " اذ بينما كان يوسف مقيما هناك تمت أيام مريم لتلد ، فأحاط بالعذراء نور شديد التألق ، وولدت ابنها بدون ألم ، وأخذته على ذراعيها " (٢) ويبدو أن برنابا ، كان على ثقة من أمره ، فحسم القضية لكن بلا نتائج صريحة واضحة ، اذ من المعروف ، أن فترة الحمل ، لدى بعض النسوة هى سبعة أشهر وتصل عند الغالبية تسعة أشهر فما هى المدة التى عناها برنابا بقوله " تمت أيامها ؟ الجواب أنها المدة المعتادة الغالبة عندهن لعدم وجود غير ذلك .

٥- انجيل لوقا .

أضفى لوقا على القصة ، بعض الخيال ، كما هو الشان عند كتاب القصص المغرقين فى الخيال عندما يصبغون أبطال قصصهم بطابع البطولة ويخلعون عليهم اثواب الفدائية فاعتبر لوقا مدة الحمل كما اعتبرها غيره فيقول بينما هما-يوسف خاطب مريم وهي- هناك تمت ايامها لتلد فولدت ابنها البكر ، وقمطته وأضجعته في المزود ، اذ لم يكن لهما موضع فى المنزل "(٣)

---

(١) المرجع السابق - هامش صـ ٣٥
(٢) برنابا ٣/٨-١١
(٣) لوقا ٢/٧

٦-انجيل متى .

لم يترك لنفسه ولا مطالعه فرصــة للتامل اوالافتراض ، وانمـا قـال : " هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ، يدعون اسمه عمـانوئيل الـذى تفسيره اللـه معنا " (١) وعليه فان مدة الحمل عنده غير معروفة ، وان كان الغالب علـى نصه أنها المعتادة ، والا لذكر .

٧- الدكتور / محمود محمد مزروعة .

يقول سيادته " أن مـدة الحمـل لوكـانت علـى غير المـألوف ، لذكـرت بجانب الكلام عن المسيح وعـن كيفيـة الحمـل بـه " (٢) وقـد رأينـا أن نفـرد لرأيه مكانا بعد الفراغ من هذا الوجه ، لما لرأيه من مكانة علمية .

٨- الامام ابن كثير .

يقول رحمه الله " والمشـهور الظـاهر ، واللـه علـى كـل شـئ قديـر ، أنهـا حملت به كما تحمل النساء أولادهن " (٣) ولهذا الرأى من الوجاهة ، ما يجعله يحوز قصب السبق ، ويظهر أثناء المقارعة بالأدلة أو المصارعة بالبراهين .

ب- القائلون أنها غير المدة المعتادة .

١- أليان وأشياعه

وهؤلاء كانوا يقولون ، أنها لم تحمل به ، كحمل النساء العاديات " لأن كلمة الله دخلت من أذنها ، وخرجت من حيث يخـرج الولـد مـن سـاعتها " (٤) ومـا كـان حمـل مريـم بعيسـى علـى هـذا الـرأى ، الا كمـرور نـور فـى أسلاكه ، أو ماء فـى ميزابـه ، وقـد رام هـؤلاء مـن وراء ذلـك أن يرفعـوا عيسى ومريم عن قدرهما ، الذى عـرف عنـد العقـلاء مـن أصحـاب الديـن الحق لهما ألا وهو دين الإسلام .

---

(١) متى ٢٣/١
(٢) الدكتور / محمود محمد مزروعة - دراسات فى الملل والنحل المسيحية صـ ٣٣
(٣) الامام ابن كثير - تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ١١٦ وبرنابا ٨/٣-١١
(٤) الامام ابن القيم الجوزية/ هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى

٢ - قول منسوب لابن عباس رضي الله عنه .

نقل الامام الحافظ ابن كثير فى تفسيره ، قولا منسوبا الى عبدالله بن عباس ، رضى الله عنهما جاء على شكل جواب لسؤال حيث قال "وسئل ابن عباس ، عن حمل مريم فقال " لم يكن الا أن حملت فوضعت " وهذا قول شاذ لايصدر عن مثل ابن عباس ، ولذا قال عنه ابن كثير " وهذا غريب " (١) ووجه الغرابة هو صدور حكم فى قضية غير واضحة المعالم صادر هذا الحكم عن واحد من علماء المسلمين ، وما أكثر الوضع على ابن عباس وأمثاله ، ولهذا اعتبره ابن كثير قولا غريبا " .

وقد نقل صاحب كتاب هداية الحيارى ، هذه الوجوه ، ونسبها الى أصحابها (٢) وفعل قريبا منه الشيخ محمد أبوزهرة (٣) .

الرأى الثالث :

ما كنا نود أن يدلى فى هذه أيضا ، وقد ألفنا له آراء ، تبعد كثيرا عن الاصول الاسلامية ويحكمها الرأى مما لامجال لذكره هنا ، أما هو فقد ذكر الوجوه ثم قال " وقال فريق آخر ، انها لم تكد تحمل به حتى وضعته " ثم قال ... ونحن نرجح هذا الرأى " ثم ذكر أسباب ترجيحه لهذا الراى على غيره فقال : " لأن حمل مريم ليس حملا عاديا يقتضى أن تمر عليه تسعة شهور ، انما تمر الشهور التسعة على النطفة يقذفها الرجل ، فيلتقى الحيوان المنوى ببويضة المرأة ليلقحها ، فاذا تم التلقيح تكون النطفة علقة ثم تصير العلقة الى مضغة ... الخ .

---

(١) الامام ابن كثير – تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ١١٦

(٢) راجع صـ ١٧٢ وما بعدها. (٣) راجع محاضرات فى النصرانية .

أما الشأن فى عيسى عليه السلام ، فيختلف فليست هناك نطفة قذفت الى بويضة ، وانما هناك كلمة ألقيت الى مريم فصارت بأمر الله بشرا سويا " الى أن يقول " انما الأقرب أن يكون عيسى مخالفا للسنن الطبيعية ، لأن الأساس فى خلقه مخالف للسنن الطبيعية " (١)

وهذا الذى ذكره صاحب الرأى واكده ، يحتوى على مراجعات عدة ، ولنا عليه ملاحظات منها :

١- الرأى الذى مال اليه ورجحه ، رأى شاذ قال عنه الامام ابن كثير انه قول غريب .

٢- قوله بأن حمل مريم ليس عاديا ، فهذا حق ، أما قوله يقتضى أن تمر عليه تسعة شهور فهذا خطأ وقع فيه دون مراعاته ، لأن الحمل العادى نوعان ، حمل عادى فى وسيلته كحمل كل أمهات البشر دون مريم ، وحمل عادى فى مدته ، والغالب فيه تسعة شهور هلالية ، فالشيخ أراد التعميم كنوع من الهرب المقنع ، لأنه لم يوضح المقصود بالعادى .

٣- ما هرب منه فى تعميمه وقع فيه صراحة ، حيث أكد أنه " أنما تمر الشهور التسعة على النطفة يقذفها الرجل " ولاشك أن ذلك فى الامور العادية ، وبالتالى ، فان صاحب الرأى المتحكم لم يحالفه الصواب ، فكم من آمرأة وضعت وليدها ولم تكتمل المدة التى هى الشهور التسعة ، ومع هذا عاش الوليد .(٢)

---

(١) الدكتور/محمد الطيب النجار–تاريخ الأنبياء فى ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة صـ٢٨٠ دار الاعتصام .

(٢) وقد ورد أن رجلا جاء الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب منه اقامة الحد على زوجه ، لأنه تزوجها ، وبعد شهور ستة وضعت وهم عمر بالتنفيذ ، فاستوقفه الامام على كرم الله وجهه ، وتلا عليه قول الله تعالى "وحمله وفصاله ثلاثون شهرا" والمعروف أن مدة الرضاعة هى عامان أربعة وعشرون شهرا وتكون مدة الحمل هى الباقية من الثلاثين ، وهى ستة أشهر ، وأخذ أمير المؤمنين بها ولم تحد المرأة ورجع زوجها عن ظنه .

٤- وقوله بأن عيسى مختلف شأنه عن غيره ، فذلك فى كيفية الحمل به فقط ووسيلته ، أما المدة فلو كانت غير المعتادة لذكرت فى القرآن الكريم أو السنة المطهرة .

٥- وقع فى أمر حين قرر فى شأن عيسى أنه كلمة ألقيت الى مريم فصارت بأمر الله بشرا سويا ، ومن البديهات فى الدين الإسلامى ، أن الله ربط الأسباب بالمسببات فى أغلب الأمور العادية الا فى باب المعجزات ، والمعجزات لاتكون الا للأنبياء يتحدون بها أقوامهم ، ويؤكدون بها صدق رسالتهم وليس فى القرآن الكريم ، أوالسنة المطهرة ما يفيد أن الله تعالى ألقى كلمته الى مريم فصارت بشرا سويا ، والشيخ يلقى كلماته على عواهنها ، ولادليل معه ، ولاسند عنده ، ولوقال فى التاريخ ذلك لسأله المؤرخون مع أنه تخصصه ، أما مسائل تمس العقيدة ، فانا سائلوه ، اذا قلت بغير دليل فأنت مسؤل عنه .

٦- اعتد فضيلته بالاناجيل الكنسية اعتدادا لايمكن دفعه عنه ، فتراه يقول والأقرب أن يكون عيسى مخالفا للسنن الطبيعية ، لأن الأساس فى خلقه مخالف للسنن الطبيعية ، ونحن نقول له ، ان عيسى ليس مخالفا فى شئ للسنن الطبيعة ، لقد حملته أم فى بطنها ، وغذته بلبنها ، وأراد الله أن يكون من غير أب ، وليس هذا بغريب على الله وقد سبق تفصيل القول فى ذلك ، أما كونه مخالفا للسنن الطبيعية على حد تعبيرك ، فهو كلام القسس

وتجار العواطف ، وقد رددنا ذلك كله (١) . ماذا لو: تدبر قول الحق جل وعلا " ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الايات ثم أنظر أنى يؤفكون " (٢) ، " هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء " (٣) .

ولما كانت الدراسة فى علم مقارنة الأديان ، تقوم على ابراز الأدلة لكل فريق ، وأتاحة الفرصة لكل رأى ، فقد عملت على اظهار الآراء ، حتى ظهر الرأى الثانى ، كما لرأى الأول ضمانا للحيدة ، وقد شق طريقه فى صعوبة بالغة ، امام تكتل ادلة الرأى الاول وحاولنا أن يترك له فى الأذهان مكانا ، وذا أعمق دليل على الحرية العقلية ، التى نتمنى أن يتحلى بها المسلمون ذوو العقول النيرة فى كل زمان ومكان.

فليس من العيب أن يظهر الرأى المخالف ، مهما كان من ضعف أدلته وانما العيب أن يموت ذلك الرأى فى صدور معتنقيه ، فلو ظهر ونوقش وروجع ، لكان لذلك كله ثمرات مرجوة ، وهذا ما يحث عليه الإسلام ويدفع اليه جهابزة المفكرين ، وذلك المنهج الإسلامى واضح المعالم .

حتى فى مناقشة الإسلام لأعدائه ، أبرز وجهات نظرهم بكل عناية وأمانة ، وترفق بهم حتى بلغوا المأمن ، فاذا اطمأنت الجوانح واستردت

---

(١) راجع تعلقينا على مقال القس ، وملاحظاتنا عليه فى كيفية الحمل به فى صفحات خلت من هذا الكتاب .

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥

(٣) راجع أقوال المفسرين فى الآية .

أنفاسها ، كان من الممكن بعد ذلك مقارعتها ومنازلتها والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، وهذا ما نبه عليه رسول الله ﷺ .

وقد سار بعض المسلمين على الرأى المخالف ، وأن مدة الحمل لعيسى عليه السلام كانت غير المعتادة ، وقد بذلوا ما أمكنهم لتأييد ماذهبوا اليه فانطلقوا فى كل اتجاه ، وجمعوا كل شاردة ، ونقلوا الكثير من الاسرائيليات فأدخلوا حمل مريم فى باب المعجزة ، والسؤال عليهم هو : اذا كان حمل مريم معجزة فلمن ؟ ألمريم ، وكيف وهى لم تدع أنها نبى ؟ أم لعيسى وهو لم يكن قد جاء بعد ؟!

وجاء اختلافهم هادما بنيانهم ، فمن قائل انها تسعة أشهر ، ومن قائل أنها ثمانية أشهر ، ومن قائل أنها ستة أشهر ، ومن قائل أنها ساعة أوبضع ساعات ، ومن قائل أنها بعض ساعة أو جزء من لحظة ، وربما كان لبعضهم العذر فى نظرتهم للنص القرآنى ، الذى جاءت الفاء فيه عاطفة بين قوله تعالى : " ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا "(١)

وربما غاب عنهم أن الفاء جاءت هكذا بين كل الآيات ، حتى الآية السابعة والعشرين وهى وان كانت من حروف العطف ، الا أنها لاتقتضى التعقيب بدون مهلة ، كما يعرفه علماء العربية ، وقد كانت أدلة هذا الفريق ، أضعف بكثير من غيرها ، بل غيرها وهم أصحاب الرأى الأول القائلون ان فترة الحمل هى المدة المعتادة - كانت أدلتهم قوية .

---

(١) سورة مريم الآيات ٢١ ، ٢٣

فيصل فى الموقف :

ذلك هو رأى الأستاذ الدكتور / محمود محمد مزروعة وقد قدم سيادته دراسة واسعة حول هذه النقطة ، رجحت نقلها بنوع من التصرف ، لما لرأيه من أهمية ، حيث قدرته على تحريك علامات الاستفهام ، ووضع اجابات محددة واضحة قال سيادته :

" تضاربت الأقوال فى مدة حمل مريم بالمسيح عليه السلام :

١- من قائل انها تسعة أشهر ؟

٢- من قائل انها ثمانية أشهر ؟

٣- من قائل انها ستة أشهر ؟

٤- ومن قائل انها ساعة واحدة أوساعات ، مع اعترافنا بأن علم ذلك عند الله وحده ، اذ لم يرد مايدل على ذلك فى كتاب أو سنة " (١)

ومادام الأمر لم يتعرض له القرآن الكريم ، ولم تأت به السنة الصحيحة المطهرة ، فلا مانع من أن يفتح فيه باب الاجتهاد ، بين العلماء الذين يملكون الاجتهاد ، فى هذه النقطة وبناء عليه ، فلا مانع من أن يدلى سيادته بدلو فى خضم الأفكار " مع التنبيه الى أن الآراء كلها لاتعدو ترجيح جانب على جانب ، وليس الى القطع برأى فى ذلك من سبيل "(٢)

وقد قسم من كتبوا فى مدة الحمل الى فريقين :

١- الفريق الأول : رأى المعجزة فى كيفية الحمل ، فأجرى ذلك على مدته فجعلها مدة حمله - من باب المعجزة ، ومن هنا ذهب الى أنها ساعة أو ساعات " وقد ذكرنا ممثليهم وأدلتهم وما يعتمدون عليه من حجج .

---

(١) الدكتور/ محمود محمد مزروعة - دراسات فى الملل والنحل المسيحية صـ ٣٢
(٢) المرجع السابق صـ ٣٢

٢- " **الفريق الثانى** : رأى أن المعجزة فى كيفية الحمل ، لاتستوجب أن يفتح باب المعجزات على مصراعيه ، لنأخذ منه مانشاء ، وهذا الفريق يرى أن مدة الحمل هى المدة المعتادة "(١)

وبهذا يكون قد عرض لموقف الفريقين ، وحجة كل منهما ، شأن الباحث فى مقارنة الأديان ، وهذا يعطى حكمه القبول ، لأنه منطلق من نظرة تعادلية بين الأدلة ، بعيدا عن الإعتقادات المسبقة أو الظنون التى شادها من قام بها ، وهاك رأيه يقول :

" ونحن نرجح أن تكون مدة الحمل بعيسى عليه السلام - هى المدة المعتاد وهى التسعة أشهر الهلالية ، واذ لم يرد لنا ما يفيد القطع فى ذلك من كتاب أو سنة ، فلا سبيل الا باستعمال العقل والمنطق- وهذا غاية ما يبذله أى باحث- والعقل والمنطق يقرران ، أن الأصل فى الأشياء هو المعتاد الذى يسير على نسق الطبيعة ، وأما المعجزة فشئ على خلاف الأصل لانقره ولانذهب اليه ، الا اذا قام عليه دليل ".

" ومدة الحمل فى المسيح ، لم يرد مايدل على الاعجاز فيها ، أو على أنها خالفت المعتاد فالحق هنا أن نحملها على الأصل ، الذى هو مدة الحمل المعتادة ، أما لماذا ؟ فالجواب لما يلى :

أولا : لأن حملها على خلاف الأصل ، دون دليل ، هو تكلف لامبرر له ، والاحتجاج على الاعجاز فى مدة الحمل بالاعجاز فى كيفية الحمل أمر غير مقبول ، فكيفية الحمل أمر لاعلاقة له بالمدة التى يتم فيها " .

ثانيا : أن مدة الحمل لو كانت على غير المألوف لذكرت بجانب الكلام عن

---

(١) المرجع السابق صـ ٣٣

المسيح وعن كيفية الحمل به ، فنحن نرى القرآن الكريم ، قد ذكر أحصاء دقيقا لمعجزات كثيرة ، تعلقت بالمسيح سواء فى حمله ، أو وضعه ، أو كلامه فى المهد ، أو ما أجراه الله على يديه ، ولكن القرآن الكريم مع هذا الاحصاء الدقيق لهذه المعجزات ، لم يذكر شيئا عن مدة الحمل فيه ، ولو كانت مدة الحمل غير معتادة ، لذكرها القرآن الكريم بجانب هذه المعجزات فهى لاتقل شأنا عن واحدة من هذه المعجزات وليس هناك سبب مقبول لذكر كل هذه المعجزات ، مع اغفال هذه المعجزة ، على التسليم بحدوثها"(١) وان سلم بحدوثها واقعة فلماذا لم تعرف كغيرها ، باعتبارها معجزة .

ثالثا : " أن المقصود الأول من المعجزة هو العلم بها ، واشتهارها والاقرار بها ، أى أن المدار فى المعجزة – هو عنصر المفاجأة – على أن تفاجئ الناس ، فلا يسعهم الا الاقرار بها و الاذعان لها ، واذا لم تكن المعجزة من هذا القبيل – متوفر فيها عنصر المفاجأة ، وحقيقة الاشتهار والاقرار والتسليم – فهى عبث لاطائل وراءه ، ولاغناء فيه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

رابعا : " المعجزة فى مدة الحمل عند مريم ، أمر لايمكن أن يؤدى المراد منه فى اقرار الناس واذعانهم ، فان مريم عليها السلام ، عندما تضع ابنها بعد ساعة أو ساعات من حملها به " بماذا ستقنع الناس أنها لم تحمل به الا منذ ساعة أو ساعات ؟ وبماذا ستثبت لهم هذه المعجزة ؟ وكيف ستضطرهم الى الاعتراف بها ، وهل ستأتى لهم بالأطباء ليثبتوا ذلك ؟ ان اقناع الناس بتلك المعجزة شئ فوق الامكان ، ومهما قيل عن انتفاخ بطنها

(١) المرجع السابق صـ ٣٣

أو عدم انتفاخه فان ذلك لايقوم دليلا ، لافى اثبات ولا فى نفى "(١)

خامسا : " أننا نرى كثيرات من النساء يحملن ويلدن ، ومع ذلك لاتنتفخ بطن احداهن الا انتفاخا نسبيا ، لايكاد يحس أو يلمس ، وبهذا يعلم تهافت الحجة التى يركن اليها أصحاب الرأى الأول ، من أن مدة الحمل لو كانت طبيعية لانتفخ بطنها ، وظهر ذلك عليها ، وعرف القوم بحملها قبل الولادة ولما فوجئوا بولدها حين أتت به تحمله "(٢) .

أما عن انتفاخ بطنها من عدمه ، فقال " والواقع أن هؤلاء ، الذين احتجوا بأنها لو كانت المدة المعتادة لانتفخ بطنها- لو أضافوا الى ما قدمناه -أن مريم عليها السلام كانت معتكفة عن الناس للعبادة ، وأنها كما أخبر عنها الكتاب العزيز ، قد أنتبذت من قومها مكانا قصيا ، عقب حملها به ، وأنها لم تلق قومها الا بعد الوضع وأن اعتكافها كان أمرا طبيعيا قبل الحمل ، وبعده ازدادت إعتكافا واقتصارا عنهم وان ذلك لم يكن يريهم منها اذا كان ذلك عادة لها ، نقول لو أن هؤلاء لاحظوا ذلك لأدركوا أن انتفاخ البطن هذا لايصلح دليل نفى أو اثبات " وبهذا يبطل ادعاء من يرى أن مريم ظهرت عليها " مخايل الحمل ، وكبر بطنها وسألها يوسف - الذى اخترعوه-واحست مريم بالريبة فتورات"(٣) ويواصل تفنيده للرأى الأول **فيقول :**

" وأما أحتاج أصحاب الفريق الأول بالنسق القرآنى ، حيث عبر بالفاء فى الآية - فحملته فانتبذت وهى للتعقب والترتيب ، فانه لايفيد شيئا فى اثبات المعجزة ، والتجوز فى اللغة باب واسع يحتمل تاويل هذا وأكثر منه"(٤) ذلك محصول ما قام به فضيلته فى الترجيح بين الآراء والتدليل على ما مال اليه.

---

(١) المرجع السابق صـ ٣٣ (٢) المرجع السابق صـ ٣٣،٣٤
(٣) الامام ابن كثير (تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ ١١٦ (٤) د. مزروعة المسيحية صـ٣٤

وقد اسرف ابن كثير ، حين جعل من ملامح حمل مريم ، كبر بطنها وانتفاخه ، واستمساك الدم واصابتها بالوصب والتوحم " وتغير اللون وشيوع خبرها فى الحمل "(١) ولعل الذى قال به ابن كثير نسبه اليه ناسب هذا خياله ، وذلك أقرب من وقوعه فى حكاية الانجيل حيث ذكر – ابن كثير –العلاقة التى تدعى الكنيسة وقوعها بين مريم ويوسف وهى أساطير وضعها الفكر الاسرائيلى ، أريد بها وقيعة مريم ، واثبات اتهامهم لها وابنها،**ومؤداها** :–

أنه بينما كانت مريم فى الهيكل ، كان يوجد معها شاب له صلة قرابة بها ذلك الشاب يدعى يوسف ، وكان قريبا منها لدرجة تمكنه من مراقبتها عن قرب شديد ، فلما بدت عليها ملامح الحمل ، سألها يوسف عن سبب انتفاخ ذلك البطن ، ورأى التوجس فى عينها ، وأحابت العذراء جواب من يحيط بها الحياء ، ويستولى على وجدانها الاحساس بنظرة السوء اليها فأحالته على المشيئة الالهية لعله يدرك سبب مارأى .

غير أننا ننكر هذه العلاقة وقد تاكد للباحثين منصفى الحق ، أن العذراء كانت معتكفة بعيدة عن كل الناس ، فمن أين لها بهذا اليوسف ، حتى يقال عليها ما يقال ؟ ومن أين لابن كثير أن يستشف خاطرها ، ويؤكد على أنه " ظهرت عليها مخايل الحمل وكبر بطنها ، وسألها يوسف ، وأحست مريم بالريبة فتورات " والصواب عندنا أنها لم تعرف رجلا على الاطلاق ، وانها كانت معتكفة ، وأن نبى الله زكريا عليه السلام ، قد كفلها وعنى بها أيما عناية .

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ١١٦ .

قول أراه :

بعد معـاودة النظـر فـى الآراء ، ومطالعـة مـا دون فيهـا أجـد أن فـترة الحمل هى المعتادة ، وأنها المعروفة الغالبة عند النساء ، وأنها كانت كفيلـة لتعد مريم نفسها للتخلص مـن المكـان الـذى قضـت فيـه مـن عمرهـا زمنـا طويلا للأسباب الآتية :

أولا : قوله تعالى " فحملته فانتبذت بـه مكانـا قصيـا " فالانتبـاذ هنـا يحمـل معنى آخر غير المعنى الذى قصد فى الانتبـاذ الأول ، فـى قولـه تعـالى : " واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا " ثم عـود الضمـير مرتين على الحمل يؤكد على أنها المدة المعتادة .

ثانيـا : أن مـدة الحمـل العاديـة ، تتيـح لمثـل مريـم أن تفكـر طويــلا ، وأن تحافظ على ما فى أحشائها لأنها قد بشرت به ذكـرا ، وبشـرت بـه ذكيـا - لأهب لك غلاما ذكيا - ولو كانت غير معتادة لما تمكنت من تهيئة نفســها ، واختيار موئل آخر تضع فيه وليدها .

ثالثا : قوله تعالى " مكانا قصيا " يدعم ماذكرناه ، حيث يفيد البعد المكــانى ، واختيار ذلك المكان على الخصوص ، ليقيها شر العوادى ، ويزيح عنهـا كابوس الخوف ، وعوامل الانهيار .

رابعا : ان حديث القرآن الكريم ، عن نفسية مريم ، وقد جاءهـا المخـاض وتمنيها الوفاة قبل الوضع ، يدعم ما قلنا ، فقد سـاورتها شـكوك كثـيرة فـى أمر نفسها-قوية وعنيفة فى مواجهة قومها ، حين داعب خيالها طيف حبـل المشنقة ، الذى سوف تتعلق به ، أو يـعلق بها حسب شريعة بنـى اسـرائيل فى أمر الزنا ، أو أن تبرأ منـه ، لأن اللـه هـو الـذى يعـرف طهرهـا وهـو الـذى أراد ذلـك لهـا ، فالسـياق القرآنـى ، يعبر عـن تلـك الحالـة النفسـية

واستردادها قواها بعد أن نطق الغلام مدافعا عنها ، معلنا براءتها ، برغم أنه كان رضيعا تحمله بين ذراعيها وتلقمه ثديها المبارك ، وتقر عينا به حين تحمله على كتفها ، يرجع ذلك قوله تعالى : " والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا " (١)

خامسا : أن منزلة فاء العطف بين الايات لاتكفى " لأن الحمل بعيسى عليه السلام مرتبط بالمشيئة الالهية أكثر من ارتباطه باللقاء بين الزوج وزوجته(٢) ثم ان التمسك بكون المدة غير المعتادة يفتح باب المعجزة فهو أمر غير وارد .

لأن المعجزة عند من اشترطوا التحدى ، تكون غير واقعة هنا وقد تكفل بالحديث عن المعجزة علم العقيدة فى كتبه "(٣) من شاء فليرجع اليها ففيها الكثير .

سادسا : اننا رفضنا اخبار يوسف بحمل مريم ، انطلاقا من عدة أمور :

١- عدم وجود دليل واحد بصحة ما ذكروه عن هذا اليوسف .

٢- حتى نسد الباب أمام المتربصين فلا يتمكنون من قولة الزور التى نسبوها الى مريم وابنها ، ونفاها القرآن الكريم .

٣- جاءت أيات القرآن الكريم ، تؤكد على نفى وجود أى شخص مع مريم لحظة وضعها وليدها ، بل وكلفها بأن لاتخاطب أحدا من البشر فاذا ما أقبلت عليهم وسألوها كان الجواب من ابنها لأمتها ، وذلك أبلغ فى الدفاع

---

(١) سورة مريم الأية ٣٣

(٢) الدكتور أحمد شلبى المسيحية صـ ٣٥ الهامش .

(٣) راجع المواقف والمقاصد والمحصل والاربعين وأبكار الأفكاروالمطالب العالية ، وغيرها فى الجزء الخاص بالنبوات .

عن الاتهام " فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا " [١]

وغنى عن البيان أنه لو كان معها أحد من البشر ، يمكنها أن تخاطبه لاستثنى من عموم النهى ، ولوكان كذلك لذكره القرآن الكريم ، موضحا حاله ومبينا مكانته .

٤- كيف يخرج يوسف بمريم وينفردان وقد عرفنا الرسول ﷺ أنه " ما اجتمع رجل وامراة الا وكان الشيطان ثالثهما " وتلك آداب بثها الله فى الأديان عموما ، فكيف يتصور أحد أن مريم خرجت ومعها يوسف النجار.

٥- هل خرج يوسف الذى يدعونه ، عن طبيعته البشرية ؟ " لقد كان يوسف النجار هذا شابا صالحا من شبان اليهود ، من قوم مريم "[٢] وكم سمعنا عن شبان صالحين ، ولم يسمح الإسلام لهم أن يختلوا بأخريات من بنى جنسهم ثم أليست الأناجيل الكنسية هى التى خلعت عليه لقب صالح ؟

أم هل تنزه يوسف عن صفاته البشرية ، ونزلت مريم عن كونها من عباد الله الصالحين حتى ترضى لنفسها تلك المنزله ، مع أن يوسف النجار أو التاجر الذى طورته الاناجيل الكنسية او الأمين ، كما تخيله بعض كتاب المسلمين ، لم يخرج عن طباعه ولم تنزل مريم عن طهارتها ولذا فاننى أستمر فى التاكيد على عدم وجود أية علاقة بين مريم البتول وأى يوسف سواء الذى ادعوه وجعلوه يسافر معها أو يرحل بها أو تقيم معها ويطعن وذلك لأمرين .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٦

(٢) الدكتور / محمد الطيب النجار - تاريخ الأنبياء صـ ٢٧٤

الاول : أن مدة الحمل هى المعتادة ، المألوفة لدى غالبية النسوة وهى التسعة شهور الهلالية .

الثانى : أن يوسف لاعلاقة له بمريم ، وأن مريم لم تشاهد غير نبى الله زكريا الذى كان كافلا لها وظلت على ذلك الحال حتى وضعت وليدها ولم تعرف رجلا على الإطلاق ، وقدمت أدلتى ومن يعثر على غير ذلك فليقدمه ، رغم أننى فى فصل لاحق سأتناول علاقة يوسف بمريم ومكانتها.



الفصل الثانى

مولده عليه السلام وموقف الأناجيل المعتمدة منه

تمهيد

لست بالعارف لخفايا الامور ، ولا المطلع على دقائق ما فى الصدور ، انما هى محاولة لاستنطاق السطور ، واستجلاب المعانى من بطون الألفاظ وقطع البحر بألواح من الأمل ، ومغالبة الأمواج العالية ونثر عبير الأفكار بين الأمل والرجاء لتكون المحاولة بمثابة واحة ، يلجأ اليها القلقون ويستكين فى رحابها الخائفون ، أمنية يتجه اليها الآملون ، ويعيش فى رحابها الحالمون ، تضمهم بأجنحة المحبة وتضفى عليهم حنان الألفة .

لست بالامل أن أغرق القارئ فى حنايا الأمور ، كل ما أريده أن يقرأ بحذر ما بين السطور ، لن ألقيه فى أحضان الدروب المضطربة ، ولا أحب أن أسلمه الى خلاف متولد عن غموض فلسفى ، أو تعقيد كلامى ، أو شطح صوفى ، أو قانون شبه منطقى ، أحب له أن يقرأ تلك السطور وهو قنع بان شباب الباحثين مازالوا يفقدون عمرهم تحت مجهر البحث وسيظل حالهم هكذا ، لتشريح البشرية المتعبة ويسقط عن كاهلها حجاب التعصب الأعمى ، لعل المسيرة العرجاء تقف بالبشرية عند نقطة تسترجع فيها أنفاسها ، وتسترد لذيذ حلمها لتنطلق الى الغد الجديد ، بهتاف الآملين برجاء الحالمين ، بأنشودة المحبة والرحمة بين صفوف من قست عليهم الحياة أو مدت ذراعيها لهم ، وبسطت عليهم جناح الرحمة . .

ومولد المسيح عليه السلام ، بين الأناجيل ، تطول حكايته وخبر تمتد قنواته ، لتروى صدر الزمان العطش ، وتستغرق فى جلال همم الباحثين ، ولذا سأعمل قدر جهدى أن أبرز جمال ذلك المولد ، جلاله وهيبته ، ليعرف أتباع الأديان . من الذى أنصف ، ومن الذى سوف ؟ من الذى عدل ، ومن ذلك الذى جار ؟ .

وليعرف اتباع الدين أن هناك من قبعوا فى خدورهم ، يطالعون عزيز أفكار حبسوا عقولهم عليها ، وحرموا أنفسهم من ملذات الحياة ليكشفوا بعضا من وجه الحق وصفاء الحقيقة وبهاء اليقين .

أولا : مولده عليه السلام بين الأناجيل

تابعت قضية الحمل بعيسي من خلال الأناجيل ، وكنت حذرا لأبعد الحدود ، فلا أحب التعصب ولا أميل الى أستقبال الأفكار من غير مصدر موثق وكم حاولت أن أفتح عينا لاتغفو ، وأن أحرك قلبا لا يسكن ، وعقلا لايهدأ وعزيمه لاتفتر، كل ذلك فى عصامية لاتلين ، وكان بفضل الله ماكان ، ثم اصدرت حكمى بعد ذلك على رواية الأناجيل لقصة الحمل والتى قد قررت حمل مريم ، وأنها أتمت ايام حملها ، وبعد أن وصل الجنين الى غايته راحت أمه تهيئ مكانا لاستقبال ذلك الوليد المبارك ، ولتضع فيه فلذة كبدها ، ومن هنا فلا بد من وضع نقاط محددة لفهم رواية الأناجيل وتلك النقاط هى :

(١) حالة أمه قبيل لحظات الوضع.

(٢) وقت الوضع ، أو تاريخ شهادة الميلاد.

(٣) الحالة التى ولد عليها ، وصورة أمه آنها

(٤) المكان الذى تم ميلاده فيه ، مسقط راسه أو محل ميلاده.

وسنحاول بقدر الامكان بيانها حتى يعرف القارئ المثقف نصف العادى ، كيف تقف الافكار البشرية فى مواجهة القوانين الالهية ، ولمن الغلبة واسبابها.

(١) الجانب الاول : حالة أمه قبيل الوضع :

تغفل الأناجيل الكنسية عن مراقبة أم المسيح قبيل الوضع ، ولا تمنحها القدر الكافى من الحديث ، لترسم ملامح تلك العذراء ، الا ما كان من لوقا فانه يشير إلى أنها كانت فى رحلة مع زوجها - الذى نرفضه نحن - يوسف ليتم دخولها فى الاحصاء العام- الاكتتاب ، وان مشاغل السفر " من الجليل من مدينة الناصرة ، الى اليهودية الى مدينة داود " [١] قد سيطرت عليها .

ويبدو أن الحالة النفسية كانت تهز مريم هزا عنيفا ، اذ أن المكان الذى ستضع فيه وليدها ، وتهئ فيه نفسها لم يكن لها عهد به ، ولا أهل هناك تعرفهم ، وان كان لوقا قد يستشف من عباراته شئ إلا انه أوقع فى حيرة طويله ، فهو يؤكد على أنه أثناء الاكتتاب ، صعديوسف من الجليل ..... ليكتتب مع امرأته مريم المخطوبه وهى حبلى ، ولسنا ندرى ، هل كانت مريم مع يوسف فى الجليل وصعدا معا الى كل تلك المدن التى مر بها يوسف ؟ أم كانت هى فى مكان ما من بيت لحم ، وأنه وحده الذى كان فى الجليل ثم قام بالسفر وحده وهناك التقيا ؟ يوسف وامرأته التى كانت من احدى مدن الجليل " الناصرة " [٢] كل ذلك لم يعره لوقا انتباها ، ولو فعل ذلك لاعاد بعض الهدوء الى تلكم التساؤلات النواشز .

---

(١) انجيل لوقا ٢/ ٤

(٢) لوقا ١/ ٢٦

(٢) الجانب الثانى : وقت الوضع " تاريخ شهادة الميلاد " :

تقف الأناجيل الكنسية من هذه النقطة ، موقفا قلقا لا يؤكدها بدقة ، ولا يحدد ملامحها بوضوح ، نلمح ذلك متى وضعنا النصوص أمامنا ، وحتى تكون الأحكام سليمه سنحمل مجهرا قويا نحاول أن نكشف به ما خلف تعبيرات النصوص ، وهذا شأن البحث والمعالجة ، لقضايا - علم مقارنة الأديان التى نعايش بعضها الآن .

(١) انجيل متى :

يؤكد " متى " أن عيسى عليه السلام ، قد ولد من غير تحديد لموعد الولادة او مكانها ، ويربط بين مكان المولد مسقط الرأس وبين وقته فيقول " ولد يسوع - عيسى - فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك [١] ولكن فى أى سنه من السنوات تم مولده ؟ لانجد متى يرشد ولانجده يحاول ذلك كل ما عنده أنه فى أيام هيرودوس الملك ولد لكن هل فى أول عهده بالملك أم فى آخره ؟ لانجد اجابة ، ومازلنا ننتظر منه الجواب .

(٢) انجيل مرقس :

لم يذكر مرقس شيئا عن ميلاد المسيح - يسوع - ولايتحدث عن نشأته على الاطلاق ، وكأن يسوع لا وجود له الا فى وقت متأخر جدا حين بدأ يوحنا فى طريق النهايه لعمله فى تبليغ ما يقوم به من مهمه الرسل ، " وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا فى الأردن " [٢] وهكذا تناسى مرقس كل هذا عن المولد والمكان على وجه التحديد .

---

(١) متى٢/ ١

(٢) مرقس ٩/١

(٣) انجيل لوقا :

يربط لوقا تاريخ ميلاد عيسى بالفترة ، التى تم فيها الاكتتاب الأول فى عهد كيرنيوس الذى كان واليا على سورية ، وقد راح يوسف ومريم أثناءها ليسجلا فى مدينة داود ، وحينها كانت مريم فى أيام حملها الأخيرة " وبينما هما - يوسف ومريم - هناك - فى بيت لحم - تمت أيامها لتلد ، فولدت ابنها البكر ، وقمطته وأضجعته فى المذود " اذلم يكن لهما موضع فى المنزل " [١] .

وأيضا فان لوقا لم يحدد لنا بدقة الوقت الذى تم الميلاد فيه ، ولم يعرفنا ما هى السنة التى تم فيها ذلك الاكتتاب الأول ؟ ولم يرشدنا الى متى كانت ولاية ذلك الكيرنيوس على سورية ، وكل هذه أسئلة لابد منها ، حتى لايقف القارئ دهشا تستولى على وجدانه الحيرة ويخطو على أرض فؤاده قدر من الشك ، وتمتد ألوان الريبة آخذة بفنون الجحود والنكران ، ولو فعل لأراح وأزاح ؟ .

(٤) انجيل يوحنـــــا :

ما أشبه الليله بالبارحة وما أشبه يوحنا بمرقس ، أثناء الحديث عن تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام ، انه يتجاهل ذلك التاريخ وذاك المولد ويتناسى تلك الفترة التى نشأ فيها يسوع ، وكأنها ليست ذا بال فيوحنا لهذا لم يعرها أهتماما ، ولم يرصد لها أثرا ، كل ما هنالك انه تحدث عن الكلمه وحلولها وتجسدها ، ويوحنا بن زكريا ، والمهمة التى كان مكلفا بها ثم

---

(١) لوقا ٢/١-٧

يلقى ما حواه باطنه فيقول " وفى الغد نظر يوحنا يسوعا مقبلا اليه ، فقال : هوذا حمل الله ، الذى يرفع خطية العالم " [١] ، وبعدها مهد يوحنا بن زكريا لنبوة يسوع ، وكشف للناس عن رسالته ، ولكن تقف الأسئله ، ونحن بدورنا نتسائل على يوحنا صاحب الانجيل - أين ولد يسوع ومتى ؟ وكيف ولد يسوع ؟ وهل تجسدت الكلمة وصارت انسانا دون ما واسطة ؟ أو أن هذه الكلمة حلت فتحولت الى جسد بشرى بمجرد حلولها ؟ واذا كانت ففى أى وقت صار لها وجود ظاهرى بدنى ملموس ؟ ولماذا خفيت تلك الحقائق عن الخلائق حتى الآن ؟ لعل يوحنا يجيب فهل يجيب ؟!

وهكذا فان الأناجيل الأربعة لم تتمكن من كتابة شهادة ميلاد للمسيح يمكن أن يفاخر بها أتباعه ومن لهم ولع بالحديث عن الاديان ومقارنتها ، وأيضا كانت أحاديث الأناجيل الأربعة غاية فى الغموض والالتواء ، ومحاولة التخفى من وجه الحقيقة ، وليس اظهر على ذلك من هذا الاختلاف الذى لمحنا صورة منه ، أثناء الحديث عن حالة مريم قبيل الوضع ، وتاريخ ميلاد عيسى عليه السلام ، وعلى حين لا نجد فى الأناجيل الأربعة ، ما يرشدنا الى ما نهدف ، نلمح منها قاعدة الربط التلازمية فى الزمان فمرة تربط بين ميلاده عليه السلام ، وبين حكم هيرودس [٢] ومرة بين الحمل به وحمل اليصابات وتلازم الحملين فى فترة الوضع ، ولم تشر الى متى وضعت اليصابات - زوج النبى زكريا - حتى يقال انهما واحد " [٣] ، ومرة ثالثة تربط بين ميلاده عليه السلام ، والاكتتاب العام كقاعدة عامة ،

---

(١) يوحنا ١/ ١٤ - ٣٠

(٢) هيرودس متى ١/٢ ولوقا ٥/١

(٣) لوقا ٢٤/١ -٢٧

وحكم متفق عليه (١) وحين نفتقد تاريخ الميلاد من رواية الأناجيل ، فليس لدينا بعد ذلك الا أن نتوجه بالسؤال الى رجال التأريخ وهم ربما أزاحوا عن كاهلنا عبئ سؤال التاريخ ، أو لا يكون لنا من مناص الا الاجتهاد فى استنطاق الأحداث ، واستنزاف داخلها ، واللج فى خصومة معها ، ربما تحكم بدافع التشفى ، أو الاسترسال مع أحداث التاريخ ، والولوج معها فى حديقة الأمل ، فربما دفعها التحفظ وأغلاق الكتمان ، وهذا ما سنفعله فى هذا المقام بعد قليل.

ثانيا : أقوال بعض الباحثين :

الرأى الأول : احتفال الكنيسة به :

يختلف الباحثون حول (تحديد) تاريخ ميلاد السيد المسيح اختلافا كبيرا ... " وأن الكنيسة الغربية تحتفل به السادس والعشرين من ديسمبر ، بينما تحتفل به الكنيسة الشرقية ، يوم السادس من يناير (٢) وقد ذكر أنه " الخامس والعشرون من شهر ديسمبر للغربية ، والسادس من يناير للشرقية"(٣) ونحن من جانبنا لانقبل هذا التاريخ ، وكيف يصح أن يكون احتفال أى جماعة لعيد ما هو نفسه ذلك اليوم ولا يصح من جانبنا أن يكون هذا الاحتفال دليلا على تاريخ ميلاد المسيح ، أو تحديده ولو كان مولده محددا لما اختلف فيه ، فما بالنا نجد الغربية تختلف عن الشرقية فى ذلك اليوم ، ومثل هذا التاريخ لايصح ثبتا لشهادة ميلاد نبى كريم ، وكذا

---

(١) لوقا ٢/ ٥-٧
(٢) الدكتور / رفقى زاهر - قصة الأديان صـ ١٤٠
(٣) الاستاذ/ عباس محمود العقاد ، الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية صـ١٤٧ .

الاستشهاد بالأحداث التى مرت حين ولادته أو قبلها أو بعدها فكل هذا لا يصلح دليلا يشهد بتاريخ ميلاد عيسى عليه السلام . يمكن الاعتماد عليه عند المقارنة ، أو المقابله ، لعدم تواتر النقل ، فضلا عن عدم دقته .

الرأى الثانى : مقارنة مولده بدافع حوادث محددة :

يؤرخ بعض الباحثين له ، على أساس مقارنة بوقوع بعض الأحداث ، حيث أن السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جامحة ، اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم ، لأنهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام " [١]

ونحن من جانبنا نقول : ان قيام أى ثورة فى مكان ما ، لايصح الاعتماد عليه وحده ، ليكون شهادة ميلاد لعظيم من العظماء كنبى الله عيسى عليه السلام ، ولا تصلح الحروب ولا الثورات ، خاصة وأن الأمل فى انتظار المنقذ والمخلص على أشده ، فكان على التاريخ أن يسجل هذا الحدث غير العادى وهو ميلاد المسيح عليه السلام من غير أب ينسب اليه فلماذا سكت التاريخ عن ملاحقة هذا الحادث ؟ وبالتالى فان القضايا التى تعرض بهذا الخصوص (مولده عليه السلام) لاتعطى نتاءج أكيدة ولا تعطى أحكاما محددة على درجة من اليقين ، بل كل ما فيها هو مجرد مقارنات ومقابلات بين حوادث الغالب فيها الفرض ، والفرض وحده هنا الآن لا يكفى وخاصة المفروض فيها أن يكون التاريخ قد قال قولا متواترا .

---

(١) الاستاذ / عباس محمود العقاد – عبقرية المسيح صـ ٤٤

وربط مولده بزمن هيرودس ليس مقنعا ، والقول بأنه " قد ولد يسوع في زمن هيرودس ملك اليهودية " [١] لانسلم به أيضا ، بجانب غير مقنع ، لأننا لا نعلم ما اذا كان لقب هيرودس علما على ذلك الشخص أو أنه اسم ، وهل هو لقب يجمل به من يتربع على العرش ، كالملك والرئيس والامبراطور ، وفرعون ، وصاحب الجلالة ، والأمير ،أم أنه صفة يغلب اطلاقها على ولى العرش وعلى كل سنأخذ الآن في اقتباس بعض وجوه هذا الرأى ونعقب عليها متوخين المصلحة العلمية وقد انبنت بعض هذه الوجوه على عدة شواهد واستخلص منها:

١- " أنه ولد فى العام الأول للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الأمم الأروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد .

٢- " أنه ولد فى سنة ٤٠٠٤ منذ بدء الخليقة ، أى قبل الميلاد ، المعروف بأربع سنوات وذلك على التقويم الذى يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة .

٣- " أنه على أصح التقديرات ، لم يولد فى السنه الأولى للميلاد ، وأن ميلاده متقدم عليها ببضع سنوات " .

٤- " أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى ٧٧٩ سنة رومانية ، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الاولى للميلاد بأربع سنوات ، ثم إنه جمع عدة روايات ورجح منها ما رآه أقوى من غيره ، وهذا الذى رجحه من بينها " أنه ولد فى العام السابع قبل الميلاد ، على ما أشار اليه المؤرخ " يوسفوس " وأظهر الأستاذ العقاد ، وجوه ضعف هذا الرأى ، وذلك التاريخ.[٢]

---

(١) انجيل برنابا ٦/١
(٢) الاستاذ / عباس محمود العقاد – حياة المسيح صـ٨٢ وما بعدها ، وعبقرية المسيح صـ ٧٦ وما بعدها .

الرأى الثالث : أنه تاريخ غير معروف .

٥- مال الأستاذ العقاد الى أن تاريخ ميلاد السيد المسيح غير معروف بالتأكيد ، ولكن الأقرب الى الصواب (عند الأستاذ العقاد - أنه لم يولد فى السنه الأولى للميلاد ، وأن ميلاده ، سابق عليها ببضع سنوات ، وهذه السنوات البضع قد اكدها العقاد وحددها وأنه قد " ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات " (١)

وترجيح الاستاذ العقاد ، فيه قلق واضطراب ، حيث أنه لم يقدم أسباب ترجيحه لهذا التاريخ ، وما دام لم يقم لدينا دليل عليه فمن حقنا أن نقبله ، أو أن نشك فيه مادام النص الصحيح غير متوفر وأسباب الترجيح غير موجودة .

٦- اعتبار احتفال النصارى بيوم ما هو شهادة الميلاد للسيد النبى عيسى عليه السلام غير مقبول ، يقول : " يحتفل الاقباط بميلاد عيسى عليه السلام فى ٢٩ كيهك الموافق ٧ يناير (٢) .

ونحن نقول أن احتفال القوم به ، لا يصلح الاعتماد عليه كدليل يوثق به وعن طريقه تثبت شهادة الميلاد ، والقوم إلى الآن ، لم يوحدوا احتفالهم بعيدهم ، فكريسماس الغرب غير عيد الشرق ، والاحتفال به عند الغرب بعاداته وملابساته غير تلك التى يعرف بها الشرقيون بيننا ، ولهذا لا يصح الاعتماد على الاحتفال به ، ليكون يوم ميلاد له .

---

(١) الاستاذ / عباس محمود العقاد . الله صـ١٤١

(٢) الشيخ / محمود خطاب السبكى - الدين الخالص جـ٥ صـ ١٧١ ، تحقيق الاستاذ / أمين محمود خطاب - مطبعة الاستقامة . ط١ ١٩٥٨

الرأى الرابع :

وجهة نظر كاثوليكية :

يفرق أتباع المسيحية بين أمرين ، الولادة والتجسد ، فالمسيح عندهم تجسد " فى مدينه صغيرة من الجليل يسمى الناصرة ، يوم عيد البشارة الذى نحتفل به كل سنه فى اليوم الخامس والعشرين من آزار" ، وأما الولادة فهى عندهم غير التجسد وقد تمت الولادة ، فى مكان آخر من الجليل وقد " ولد ابن الله المتجسد فى مدينه صغيرة من اليهودية اسمها بيت لحم " وهم يرون أن " عيد ميلاد ابن الله المتجسد فى اليوم الخامس والعشرين من كانون الاول . (١)

وغنى عن البيان القول بوجود خلل واضح فى النظرة الكاثوليكية هذه وتفرقتهم بين التجسد والولادة ، وكل منهما فى مكان بين الناصرة وبيت لحم وتسميتهم لنبى الله عيسى " ابن الله " وبأدنى تأمل يجد الناظر اليها أنها غير مقبوله فى ذاتها ، لا عقلا ولا نقلا ، ولا تخضع لقاعدة منطقية يمكن أن يعتمد عليها ، ولذا لم نخذ بها ، واهمالها اولى .

الرأى الخامس :

صاحب بدائع الدهور :

نقل ابن اياس رأيا غريبا ، يشرح شئ عن تاريخ ميلاد السيد المسيح وهذا النقل عن غيره جاء منسوبا الى صاحبه " قال السدى (٢)، وكان

---

(١)الرابطة الكهنوتية- مختصر التعليم المسيحى صـ ١٣

(٢) السدى : هو محمد بن مروان بن عبدالله بن اسماعيل السدى وهو الاصفر كوفى متهم بالكذب من الثامنة (الحافظ بن حجر العسقلانى - تقريب التهذيب ٢٠٦/٢) ط دار المعرفة بيروت لبنان .

وضعه عليه السلام ببيت لحم بالقرب مـن بيـت المقدس . وولدتـه (أمـه) ليلـه الاثنين التاسع والعشرين من شهر كيهك مـن شـهور القبـط المعروفـة بليلـه الميلاد عند النصارى ، وفيها يشتد البرد (١)

ونحن لانسلم لابن اياس لابالنقل ، ولا بصحة النقل ذلك أن نقلـه ليـس محل ثقة من الباحثين فقد نسب ابن اياس أقوالا لغير أصحابها ، ومن يطالع كتابه الذى أشرنا اليه يجد كفايته ، ولانسلم بصحة النقل فغالبا ما ينقل عـن فهمـه أو العكس ، وقد ينقـل عـن الاسـرائيليات دون أن يرشـد اليهـا ، بـل يتركها وكأنها من أمر هذا الدين ، وقد ينقل ماحكاه لـه غيره عـن ثـالث ، ويحكيه هو وكأنه سمعه من صاحبـه وأيـة ذلك انـه لـم يفـرق بيـن السدى الصادق والكاذب بل انه نقل عن الكاذب وأبهم ثم ان البرد خاضع لموجات وكتل هوائية باردة أو دافئة يعرفها علماء الارصاد الجـوى ، فاعتمـاد تلـك الوجهة غير صـواب ، ولانسلم به لما سبق ، تبقى نقطة مهمـة وهـى عـلام نعتمد اذن حين نريد أن نعطى شهادة ميلاد محددة لنبى من أنبياء الله بعثـه الله لبنى اسرائيل ، هو عيسى عليه السلام ؟

والجواب :

اننا (بعد دراسة واعية) لانستطيع أن نجزم بحقيقة ذلـك التـاريخ كـل ما نملكه الآن ويعطى جوابا كافيا لهذه المسألة هو أن حياة المسيح لم تنسى ولم تهمل ، وتاريخه كذلك ، ولكن وجود ذلك التـاريخ والتعريـف بـه ، قـد يضر كثيرا بمن ينتظرون مسيحا يأتى بعد نبى الجليل ، ولذا حاولوا النيـل منه ، وتجاهله والعمل على أن يتلاشى كلية ، وذلك ما فازوا به فعلا .

---

(١) ابن اياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص١٨٣

ويأتى لنا سؤال مؤداه لماذا تجاهل التاريخ مؤسس النصرانية ؟ عيسى عليه السلام ، لماذا لم يكن التاريخ يقظان يسجل ميلاد نبى غريب فى وجوده الى عالمنا ، خارق لنواميس جرت على طبائع الأشياء وثبتت فى عقول الناس ؟ لماذا لم يهتم التاريخ بتسجيل ميلاد المنقذ والمخلص لشعب اسرائيل من غضب الرب ؟ هل كان ميلاده ظاهرة طبيعية ، وكان هو فتى غمرا لايشعر بمن حوله ، ولايستكن فى صدره ويحتمل داخل وجدانه ؟

ان المعروف لدى أصحاب العقول ، أن أية ظاهرة غير طبيعية تعرف ولها يؤرخ القوم وبها يؤرخ آخرون ، وكان على التاريخ أن يحاول جاهدا معرفة ميلاد نبى جليل ، والتمسك به والحفاظ عليه لتهنأ صفحاته بالحديث عنه وتصبح حياته مادة عظيمة القدر والكمية فلماذا أصر التاريخ على أهمال ميلاد ذلك النبى وهل من حرج ان حاول أى باحث بمفرده ذلك ؟

حاول باحث غربى أن يوضح شيئا عن مؤسس النصرانية ، عيسى عليه السلام ، ولكنه وجد فى ذلك العمل شيئا فوق طاقته ، واعتبر البحث عنه تكليفا بما لايطاق ، وأن اعتبار الأناجيل مصدر لتلك الحياة خطأ ، لأنها غير كافية ، والسير فيها نوع من التخبط فى الظلام ، على عكس غيره من الأنبياء ، أو مؤسسى الديانات فيقول وعلى ماتراه من معرفتنا بما فيه الكفاية لحياة كثير من مؤسسى الاديان ، كحياة محمد مثلا ، ترى حياة مؤسس النصرانية مجهولة تقريبا ، ولاتبحث عن حياة مؤسس النصرانية فى الأناجيل كما صنع ذلك زمنا طويلا ، فهذه الأناجيل وأقدمها انجيل مرقس ..... مجموعة من الأوهام والذكريات غير المحققة التى بسطها خيال مؤلفيها التقى (١).

---

(١) الدكتور / جوستاف لوبون – حياة الحقائق صـ ٦٣ ترجمة الاستاذ / عادل زعيتر

وعلى كل فاننا سنترك أسباب تجاهل التاريخ لنبى الجليل عيسى الأن على أن نعود الى التاريخ يوما ، نطلبه بأن يفصح عن كل داخله ، ولن نقذفه بالحجارة ، أو نواجهه بأكوام الشوك ولكن سنردد مع الشاعر هاتفين:

رب رام لى بأحجار الأذى — لم أجد بدا من العطف عليه

فعسى أن يطلع الله على — قدح القوم فيدنينى اليه [١]

الجانب الثالث : الحالة التى ولد عليها وصورة أمه أنها :

ليس لدينا هنا من شاهد نستدعيه فنعرف منه ، أو غائب ننتظره علـه يفصح لنا عن مايعرف كما أنه يقوم شكنا فى كل الشهود لأنهم شهود بالادعاء ، فلم يكن أحدهم حاضرا وقت الوضع ولوكان لصور لنا ولغيرنا ممن سبقونا ، ولما اختلف هو وغيره ممن أدعوا الشهادة ، فالحقائق لا اختلاف فيها ، ولاقتال حولها ، فتبقى لنا شهادة الخالق جل وعلا ، فيما يحدثنا به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنه سبحانه وتعالى المصدر الوحيد لهم ، الموحى به اليهم .

وسنحاول قبيل توضح ماجاء من الخالق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم أن ندلى بحديث الأناجيل الكنسية لنتعرف على وضعها لهذا الجانب الهام من جوانب مولده عليه السلام .

انجيل متى :

يشير الى أن يوسف الرائى للحلم ، والذى كان رجلا لمريم " عندهم " صحا من نومه ثم فعل ما أمره به الملاك فى رؤياه فأخذ مريم ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ، وظلت هكذا عذراء دون أن يلامس منها شيئا ،

(١) الامام القشيرى . لطائف الاشارات جـ٤ صـ٢٧٤ تحقيق د/ابراهيم بسيونى

الا أن حالة يسوع لحظة الوضع كانت مجهولة بالنسبة لمتى فلم يتحدث عنها قط ، كل ما هنالك هو أن يوسف عرف الوليد ، أنه أطلق عليه اسم " يسوع ولايعطينا متى أكثر من هذا اللهم الا موقف مجوس المشرق ومحاولة خداعهم من جانب هيرودس الملك (١) .

انجيلا مرقس ويوحنا :

كالعادة لم يحدثا عن شي من طفوله عيسى البيضاء ، ولا عن ايام صباه الغض ، بل تجاهلا كل ذلك ، ولم يعرفا به الا حينما جاء دوره ليتسلم قياده شعب اسرائيل نحو خالقهم العظيم ، وكذا يوحنا لم يتحدث عن طفولة عيسى ولا عن مولده ، ولا عن الصوره التى وضع عليها ولا عن نشأته حتى صار يافعا ، ولهذا نجده مع مرقس فى طريق واحد يسيران بالنسبه لطفوله السيد المسيح وصباه ، ونسيانهما لهذه الامور يقلل من الاحتفاء بهما والاهتمام بشأنيهما فى مثل هذه الامور التى يدعى انهما مصدرها الموحى به .

انجيل لوقا :

يقف لوقا ملوحا بأنه الوحيد الذى يكشف غوامض الامور ، ويزيل اضخم العوائق عن حياة المسيح وطفولته البيضاء فهو يصف الحالة التى وضع عليها المسيح عليه السلام على النحو التالى :

١- ولدته أمه وكانت بكرا .

٢- لم تكن أمه مستعدة لاستقبال حملها فلم تجد قطعة من القماش تلف ابنها فيها ، بل انها ربطته بما تيسر لها ، وما تمكن منه زوجها عندهم - وتيسر.

---

(١) انجيل متى ٢ / ١-١٢

٣- لم تجد مكانا هادئا تضع وليدها فيه ، ولم يكن لها مكان خاص بها أو زوجها ، فلم تجد سوى المزود (١) لتضع فيه وليدها ولذا أودعته اياه ٠

٤- كان مع مريم لحظة وضعها - يسوعا رجل أخر هو يوسف ، وقد شاهد بعض الرعاة نورا اخذ بألبابهم الى حيث يقبع الطفل الصغير المضطجع فى المزود وحوله أمه مريم والرجل الأخر - يوسف - أما حالة أمه - والتى تجاهلتها الاناجيل الثلاثة - فانها كانت عالمة بشأن طفلها تعانى تعانى بعض الآلام النفسية ، وكانت تحفظ كلام الرب لها أيام بشارتها بأنها ستكون أما ليسوع وكانت تفكر فى أمر الرب فى قلبها (٢) ، وكانت تهتز غير واثقة من تصرفات أهلها خاصة وان " ولادة المسيح - كانت - من عذراء لم تعرف رجلا على الاطلاق " (٣) وهكذا صور لوقا حالها وابنها والمتابع لهذا الموقف المضطرب يستطيع الحكم على هذه الاناجيل بأن مافيها محض خيال وانها قصص تنقصها الحبكة الفنية بل ان بعضها يضرب البعض الأخر ويوليه ظهره متدبرا ومثل هذا الامر لايعطى شهادة يمكن قبولها على أدنى درجات القبول فما بالك اذا تعلقت بأمر نبى ؟

الجانب الرابع : مسقط رأسه " المكان الذى تم ميلاده فيه :

سنطرق باب الأناجيل الكنسية لعل راهبا يفتح لنا مغاليقها ويأخذ بيد أحدنا لفهم غوامضها وها نحن نطرق ولعل زونجلى أو لوثر أو كلفن قد أتوا يطالعون معنا وهاهم يفتحون لنا أصحاحات العهد الجديد لتصور لنا ريشتهم المكان الذى تم ميلاد المسيح عليه السلام فيه على النحو التالى :

---

(١) المزود : وعاء الزاد وجمعه مزواد المعجم الوجيز مادة زود صـ ٢٩٦ .
(٢) لوقا ٢ /١ - ٢٠
(٣) الاستاذ / عوض سمعان فلسفة الغفران فى المسيحية صـ ١٣٦

(١) انجيلا متى ، ولوقا :

يؤكد متى على ان مسقط رأس عيسى عليه السلام هو مدينة داود (بيت لحم) اليهودية فيقول " ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية [١] ومثل متى لوقا ، فانه يرى أن مولد عيسى تم فى بيت لحم ، وما كانت بيت لحم الا لأن يوسف زوج مريم – عندهم – من بيت داود فلابد من اكتتابه معهم فى مدينته ولذا كانت بيت لحم اليهودية [٢] وأول مكان استقبل بدن المسيح من الارض انما هو المزود الذى يوضع فيه الأكل للمواشى وبقية الحيوانات •

(٢) مرقس ، ويوحنا :

كالعهد بهما ، اسقاط لمسقط رأسه عليه السلام ، حتى لكأن السماء هى التى القت به اليهم رجلا يافعا ، فتى قويا ، ولهذا لم نجد كلفة فى البحث عنه لديهما ، فما وضعاه فى الحسبان ولا أهتما بالحديث عن مولده ولا مسقط رأسه أو نشأته •

ولكن اذا كانت هذه هى حكايات الأناجيل الأربعة ، فى الجوانب الأربعة وقد وضح فيها النقص الكثير ، وبات من العسير الجمع بينهما جميعا ، أو وضعها كلها فى اتجاه واحد ، بل تأكد لكل ذى رؤية أن الأناجيل الأربعة غير كافية لاعطاء أول صورة عن شخصية المسيح عليه السلام .

وشأنهم يوحى بالاختلاف ويدفع الى التطاحن ، ويوقع فى التناقض فكيف يكون حال تلك ، اذا أراد باحث أن يعتبرها المصدر الأصلى لبحثه عن موضوع حياة المسيح من البشارة به والحمل والمولد والنشأة والأناجيل لم تساعد على اعطاء صورة شبه كاملة فى حياة المسيح وطفولته الاولى •

---

(٢) متى ٢ / ١ (٣) لوقا ٢ / ١ - ٧

أذن فهل على الباحث من سبيل اذا طرق غيرها ؟ ولابد أن يطرق ذلك الغير ٠



الفصل الثالث

مولده عليه السلام كما يوضحه القرآن الكريم

تمهيد

غير خاف ذلك الموقف الذى مضى ذكره ، وغير بعيد موقف الأناجيل من ميلاد عيسى عليه السلام ، وها نحن نستأنف تلكم الصفحات ، نعرض فيها ماهو مسك الختام وفصل المقال ولانريد بها أن نعقد نوعا من المقابلة بين الأناجيل والقرآن الكريم ، انما الغرض هو بيان وجهة نظر يدعى أصحابها أن لهم حقا دينيا ، وسلطانا . كنسيا ، ثم لانعرض وجهة نظرهم - الأناجيل على أنها وحى منزل ، بل نقول ، ثبت من مقابلتها ببعضها ، أنها تحمل ما يفقدها تلك الدعوى .

ومن المرجح عندنا أنها من خيال مؤلفيها الذين دفعهم الأمل الى تصور عالم مثالى متناقض فى مثاليته ، كمثل افلاطون ، لاتعرف الفكرة فيه واقعا ، ولا المعانى أرضا تحبو عليها ، ولانعتقد أنها كلمات الله تخاطب الفكر ، وتعلو بالعقل الى قمة التأمل ، وتأخذ بالوجدان الى الملكوت الأعلى فى صفاء وصدق ، مع جلال ومهابة بين عمق ويقين .

ولانشك أن الأناجيل قد خلت من ذلك ، ولحقتها الاسفار والاعمال والرسائل ، بل انها أحيانا تخاطب العقل بما لايعرف ، وتطلب اليه أن يؤمن بما لا يصدق به ، وتحكم زمام قيدها عليه ، وكأنها تغله بقيودها وتلقيه فى احضان المحيط ثم تطلب اليه ألا يصيبه البلل ، وذلك تكليف بما لايطاق ، وتصرف فى غير مأمن ، وهذا ما تتنزه عنه كلمات الله تعالى .

وحين نعرض موقف القرآن الكريم ، فاننا نرمى الى تنبيه الأذهان ، وتهيئة العقول ، لندخل معا الى ساحة الوجدان ، بكلمات الله الحقة التى امرنا بها ، وطالب الله كل العالمين أن يتأملوها بعمق ، ويطالعوها فى

جلال ومهابة ، وأن يبحثوا قدر جهدهم عن وجوه العظمة ، ومناحى الالهام فيها ٠

ثم هو يعيب على من يهملونها " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " (١) " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها " (٢) ولذا فنحن نتدبر ما وسعنا من جهد وما تمكنا من طاقة ، عارضين موقف القرآن الكريم من هذه القضية التى طال فيها الجدل ، واتسع حولها الخلاف .

وسنجرى على ما رسمناه من قبل - حيث أن الحديث فى مقارنات الأديان - وهو وضع الجوانب الاربعة أمامنا ، ومواجهتها بآيات التنزيل لنصل الى الحقيقة المنشودة بحثا وتمحيصا ٠

الجانب الاول : حالة أمه قبيل الوضع :

يصور القرآن الكريم ، حال مريم قبيل وضعها وليدها - عيسى عليه السلام ، بصورة تأخذ بالألباب وتستولى على مجامع القلوب ، ذلك لأنها بعد أن حملت بوليدها ، وشعرت أنه لابد من مغادرتها الهيكل الذى نذرت لخدمته من قبل أهلها ، يوم ولدت ، بدأت تستعد لذلك ، لأن الهيكل مكان للعبادة عندهم ولذا فهو دائما يوجد به زوار العبادة ، ونساك الدين ، وهى تعيش فوق المحراب لكن لا يجوز أن يحدث فى الهيكل ما يخرج به عن جلاله ومهابته ، أو ينقص من كماله كبيت يعبد فيه الخالق جل وعلا .

وهنا نلمح القرآن الكريم ، مصورا تلك الروعة المشوبة بالقلق "فانتبذت به مكانا قصيا " ويفيدنا التعبير بلفظ " قصيا " أنه بعيد عن الهيكل

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢
(٢) سورة محمد عليه السلام الآية ٢٤

بدرجة يقال عليها فيه انها بعيدة عنه ، وما كان خروجها من الهيكل ، الا لاحساس منها أن ضيفا عزيزا قادم عليها ، بعد قليل أنظر الى الذكر الحكيم يقول " فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا " (١)

والتعبير القرآنى يأخذنا الى داخل العذراء البتول ، فتجدها طاهرة ، تهز خواطرها أمور الغيب المنتظرة ، هاهى بعيدة عن كل الناس ، وحيدة تعانى من الآلام النفسية التى توشك أن تقضى عليها ، وراحت فى تساؤلات طويلة وعميقة ، اضطرب كل شئ فيها وهنا دفعها الألم الملح ، فانحنت بآلامها نحو جذع شجرة - نخلة - تودعه أسرارها وتقص عليه خبرها وكأنها انتزعت منه جماديته ، وألقت فيه عبيرها فراح يسمع لها ، " ومع آلام الوضع كانت هناك آلام نفسية ، تهزها وخواطر تملأ رأسها ، كيف تأتى الى هذا المكان فارغة ، وتؤب حاملة ماذا يقول قومها عنها أتئذ وهى العفيفة الطاهرة ؟ " (٢) .

ولما ازداد هاجس الخوف عندها ، هرعت الى طلب المكروه ، فى لحظة من الألم المزودج ، ألم الوضع ومتابعته ، وألم العرف والتقاليد والخوف منها ، ولما لم يستمع الجذع الى شكواها ولم يحاول أن ينتزع عنها فورانها النفسى ، وثورتها العارمة ، ولم يعمل على تخفيض جوانحها المضطربة ، تمنت الموت وقالت ما حكاه القرآن الكريم عنها " ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا " (٣) .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٣
(٢) الدكتور / محمود بن الشريف - الأديان فى القرآن صـ ١٥٧
(٣) سورة مريم الآية ٢٣

الا أن هذا التمنى قد سبقته ياء النداء ، حيث وقفت الأمور بالعذراء عند نقطة قاسية ، وهى كأنثى لا تقوى وحدها على مواجهة الشدائد ، فانتزعت من خيالها أخر تعتمد عليه وتخاطبه ، ولو فى حوار داخلى فنادت " ياليتنى مت قبل هذا " وهى حين تتمنى الموت ، انما تبعث بمشاعر الحزن الدفينة ، خوفا على طفل لم يعرف شيئا عن المستقبل المجهول ، اللهم الا ما بشرت به أمه من قبل بأنه يولد " وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين " (١)

وكم كانت العذراء البتول ، تأمل أن ترى ابنها وحيدها ، زهرة شبابها أمل وجدانها ، كلمة ربها ، قد أعاد قومه ، الى جمال الفطرة الالهية ، التى بثها الخالق جل وعلا فى الخليقة الانسانية " فطرة الله التى فطر الناس عليها " .

والقرآن الكريم ، يطلعنا على مدى تطور الحدث النفسى داخل مريم وهو قوله تعالى عنها " وكنت نسيا منسيا " فاستخدم القرآن الكريم لفظ كنت الدال على انقطاع الفعل عن فاعله وانتهاء زمنه دون غيره وكأن القرآن الكريم ، يجعل أياته تترى لتواجهنا بجمالها الفياض ، وبلاغتها المعجزة فتستخدم الفعل ، نسى وأنسى ، ومشتقاتهما حتى نفيد منها أن العذراء البتول قبيل وضعها وليدها ، كانت على أمل فياض أن تموت وتمنت ذلك كله ، وكان داخلها يأمل فى أن تنتهى حياتها قبل لحظات الوضع ، لاخوفا من آلام الوضع ، وإنما للألام النفسية التى كانت تهزها ، والخوف على نفسها وطفلها من الغد غير المأمونة عواقبه .

---

(١) سورة آل عمران الايات ٤٥ – ٤٦

تصوير لحال أم ، اهتزت قيم الأشياء أمام ناظرها ، وتأملت ما حولها فاذا هى بين شبح قيم تهدم ، وملامح معايير تلوح ، بين الأمل والرجاء ، أم راح كيانها يتهاوى أمامها ، وحبل المشنقة يتباهى فى الظهور حولها ، وطقوس قوم تقام ، ولكنها اطمأنت قليلا وقد سمعت النداء العلى " فناداها من تحتها ألا تحزنى " [١] وهنا وضعت وليدها ، وقد توارت عنها الهواجس ، واختفت من ميدانها الظنون .

الجانب الثانى : شهادة ميلاد عيسى عليه السلام :

لم يحدد القرآن الكريم ، ذلك التاريخ الذى تم فيه استشراق الأرض ، برسول من رسل الله ، كما لم يقل القرآن شيئا عنه فى أى قرن أو حقبة ، فى أى عام أو شهر وغير ذلك مما يتحدد به تاريخ الميلاد فلنرفع أكفنا ضارعين لله ، راجين اياه ، أن يهبنا القدرة على الخوض فى ذلك المحيط المتلاطم ، علنا نصل فيه الى نقطة يفيد منها من يطالع أو يكتب .

والقرآن حين لا يحدد تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام ، ليس باهمال له ، انما عن القرآن بشخصه لذاته ، وبما تم على يديه من معجزات باذن الله ، شأنه فى ذلك شأن غيره من زملائه واخوانه رسل الله وأنبيائه ، والقرآن الكريم دستور سماوى لمن يحتكمون اليه وقد عنى بقصص الأنبياء والمرسلين ، " منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك"[٢].

وفى حالة قص القرآن الكريم لأخبار أولئك ، كان له من غرض أكيد هو التركيز على ذات النبى وشخصه بكيانه ووجوده ، وقد يكون معه فى القصص بعض من يقصد ، كأزواج بعضهم للعبرة والاعتبار

(١) سورة مريم الآية ٢٤ (٢) سورة غافر الآية ٦٨

" وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ماثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين " (١) " ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما " (٢).

اذن فعناية القرآن الكريم بالنسبة لعيسى عليه السلام هى كعنايته باخوانه من الأنبياء الذين قص القرآن علينا بعض أخبارهم ، وفيها ما تعرضوا له أو عرض لهم ، وأحوالهم مع أممهم ، وركز على بعض شرائعهم ومنهاج حياتهم وسلوكهم فى كل طرائق مضوا اليها .

وحين نعرض موقف القرآن الكريم لميلاد عيسى نجده يشير الى غاية نبيلة هى أنه تعالى تفضل على بنى اسرائيل ، بعدد من الأنبياء والمرسلين فالقوم واحد ، والزمان متواصل متغير وربط الناس - الأنبياء - بالزمان ليس مطلوبا ، لأن عمر النبى مقيد بلحظات وجوده على الأرض بين الناس يدعو الى الله تعالى ، فهى حياة بدايتها معروفة ، حين يعلن على الملأ أنه نبى أو رسول ويؤيده الله تعالى بالمعجزة ، وبمقدار ما تثمر دعوة النبى ، يكون حصاده فى قومه ، وكان الشأن كذلك مع عيسى عليه السلام

الجانب الثالث : الحالة التى ولد عليها عيسى عليه السلام :

يقص القرآن الكريم لحظة وضعه ، ويهئ أمه لاستقباله ، فلم تقع أمه تحت ألام الوضع كالتى يقع تحتها غيرها من الحوامل ، ولم يكن مجهدا لأمه أثناء حمله ، ولم يكن متعبا لها لحظات وضعه ولم يقض مضجعها لحظة خروجه الى عالم الوجود الخارجى ، بالنسبة للطفل " فتراه يرفع النداء من حولها ، أن كونى هادئة سعيدة ، دعى القلق والحزن

(١) سورة هود الآية ١٢٠ — (٢) سورة النساء الآية ١٦٤

والاضطراب ، أنفضى عن نفسك كل ألوان الخوف ، ودعى الهواجس المضطربة " فناداها من تحتها ألا تحزنى " .(١)

وليد تسمع أمه صوته فلا تكاد تصدق ، وتنظر اليه فتحاول أن تنطق ولكنها تصمت ولايكاد صمتها يستبين ، ثم يناديها الملك ، فراحت فى دهشة من ذا الذى ينادينى ؟ أهنا واحد معى ؟ من الذى أسمع صوته ولا اتوقع وجوده ههنا بيد انه حاجز الصمت انقطع والخاطر استقر ، فراحت تسمع صدى الصوت ، وما كانت نسمات الهواء ، قد أزاحته بعيدا عن فم قائله .

ويرجع الصدى اليها " ألاتحزنى " وهنا تخاطب ذلك الصدى لماذا لاأحزن ؟ وانا هنا وحدى ، معى طفلى ، لاطعام لى ، ولاغذاء له ، وكيف أزحف به الى قومى ؟ وهنا تقف فى مواجهة تامة مع ماتمنت " قد جعل ربك تحتك سريا وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطب جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا " (٢)

وهنا يبتدر سؤال ، لماذا الرطب ؟ والجواب " أن أحدث بحث علمى عن الرطب يقول : أن فيه مادة قابضة للرحم ، تساعد على الولادة ، وتساعد على منع النزيف بعد الولادة ، وأن فيه مادة ملينة ، ومعلوم طبيا أن الملينات النباتية تفيد فى تسهيل وتامين عملية الولادة ، بتنظيفها للقولون ، أن الحكمة الطبية العلمية لوصف الرطب ... وتناوله مع مخاض الولادة فيه دقة علمية واضحة " (٣) .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٤
(٢) سورة مريم الآيات ٢٤ - ٢٦
(٣) الدكتور/مصطفى محمود - مقال له بمجلة الاخاء الايرانية العدد ٥٠٢ سنة ١٩٧٧ صـ ١٥

شعرت مريم أن طفلها يقوم منها مقام الابن البار ، والأخ الوفى والصدر الحانى ، والأب الذى لايحب لفتاته أن تبتعد عنه ، سرى الدفئ فى بدنها وتفرغت الهموم من رأسها ، فاستردت بعض قواها ، ولاذت الى وليدها ، تمطره بقبلاتها ، وتضمه الى صدرها ، وتشيح بيديها عن وجهه لأنه مبارك ، فالجذع الذى كان جافا حولها ، صيره الله تعالى نخلة ذات رطب طيب ، تمد يدها اليه فيدنو منها " تساقط عليك رطبا جنيا " ولابد أنها ستدفع الأذى عنه بالماء الجارى من النهر الماثل بين يديها وتحت قدميها الذى تروى منه عطشها وترد به للماء ظمأها . " فنادها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك من تحتك سريا "

صورة أمه عليه السلام لحظة الوضع

هرعت مريم الى داخلها ، وانتابها شعور غريب ، هاهى ترى طفلها وقد صار مؤكدا وجوده " ياللهول ويالفضيحة والعار ، مريم العذراء البتول تحمل طفلها على كتفها ، وتدخل على أهلها ، ماذا أصابها ؟ أهى تتحداهم بفعلها ؟ أم تبتغى أن يتستروا عليها ؟ أم هى جاءت لتضع نفسها ووليدها بين أيديهم ليثاروا لشرفهم منها " [١] .

وكادت تتسرب عوامل القنوط الى صدرها ؟ أنها آلام النفس والجسد آلام الوجدان والعواطف " فمع آلام الوضع ، كانت آلام نفسية تهزها وخواطر تملأ رأسها ، كيف تأتى الى هذا المكان فارغة وتؤب حاملة " [٢] ، وهذا وذاك كان يرسم بعض ملامح أم راحت فى تفكير طويل ، وقد مزج القرآن فى تصوير هذه الناحية ، حتى جعلها شكلا جميلا تستقبله القلوب بدفوف الأمل ، على قارعة الانتظار .

(١) الاستاذ / محمود زهران - قصص من القرآن صـ ٢٣١
(٢) الدكتور / محمود بن الشريف - الأديان فى القرآن صـ ١٥٧

يجعل القرآن حال الطفل وأمه ، كأنهما حال واحدة ليؤلف بينهما ولتكون شهادتها شهادة العقل الراجح على براءة الأم الطاهرة ، وكون طفلها من أمر الله ، وآية من علاماته فى خلقه ، وقد ينقل بعض المفسرين تصويرا لهذه الحال ، يزيدها وضوحا لدى السامع والمشاهد ، وقد ينعكس الأمر ، فيجلب للداخل شكا ، ويلقى فى الروع عدم ثقة ، خاصة اذا داخلته الاسرائيليات التى تنقل عن أمثال كعب الأحبار " وكان يهوديا فأسلم ، ثم خرج الى الشام وسكن حمص وملأ الشام وغيرها من البلدان الإسلامية برواياته وقصصه المستمدة من الأخبار اليهودية " (١) .

وربما نقلها بعض المفسرين ، دون أن يوضحوا مكانها ، وهل هى من التفكير الإسلامى أم من الفكر السابق لهم قبل اسلامهم ؟ وكذا اذا نقلت عن أمثال ، وهب بن منبه وهو " يمانى من مصادر الاسرائيليات " ونسب الى وهب أنه كان يقول " أنزل الله تعالى على رسله كتبا كثيرة ، أكثر من نيف وتسعين كتابا فقرأت منا ثمانين كتابا " (٢) وهكذا نقل المسلمون عنه وأمثاله دون أن يتأكدوا من صحة انتساب ما نقلوه الى الإسلام ، أو الى التاليم السابقة عليه من أصحاب الأديان السابقة وقد دخلها التحريف .

ولنضع بين يدى القارئ دليلا على ما قلنا ، يقول الامام ابن كثير ، وهو من المفسرين بالمأثور (٣) يقول " فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، أى فأضطرها ، وألجأها الطلق ، الى جذع النخلة فى المكان الذى تنحت اليه وهذا الكلام من الامام ابن كثير مقبول الى هذا الحد ، وهو يصور

(١) الدكتور / احمد أمين ضحى الاسلام جـ٢ الطبعة الثامنة صـ ٥٧

(٢) الامام الاسفراينى - التبصير فى الدين صـ ٥٦ والهامش .

(٣) راجع التفسير والمفسرون للدكتور/الشهيد محمد حسين الذهبى جـ٢ ، ومناهل العرفان فى علوم القرآن للزرقانى فى الحديث عن المفسرين ، واتجاهاتهم .



حالة مريم ، حين آوت بتضـع وليدها ، ألا أنـه مـا يحدد المكـان الذى تم وضعه فيه -مسقط رأسه- فيقول :" وقد أختلفوا فيه - المكان - فقال السدى : كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس وهذا نوع من الابهام والتعمية .

ثم ينقل روايتين عن وهب كلتيهمـا أبعد عن التسليم بصدقهما ، بعد المسافة بين السماء وبيت المقدس ، ثم يحاول أن يحدد مكان الميلاد ، ولسنا بصدده الآن ، " قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا " فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة ، فانها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود ، الذى لايحمل الناس أمرها فيه على السواء ، ولايصدقونها فى خبرها .... ياليتنى مت قبل هذا - أى قبل هذا الحال - وكنت نسيا منسيا ، أى لم أخلق ، ولم أك شيئا قاله ابن عباس " .

وهناك قول ثالث حكاه ابن كثير أيضا ، دون أن يعقب عليه " قال السدى ، قالت وهى تطلق من الحبل استحياء من الناس ، ياليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه ، والحزن بولادتى المولود من غير بعل " (١)

ويأتى سؤال لابد منه على ما حكاه ابن كثير ، هل كان هنالك مع مريم لحظة وضعها وليدها أناس تستحى منهم ، وتؤثر أن تتمكن عباراتها منهم ؟ أم أنها كانت بعباراتها تلهو ؟ أو أنها كانت تعبر عن حالة خاصة بها ، كأى طاهرة لاتريد أن يقترب من ساحتها الجميلة وواحتها الهادئة ما يشوه جمال هذه ، أو يعكر صفو تلك ؟ .

---

(١) الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٣ صـ ١١٦ ، ١١٧

لانجد لدى ابن كثير جوابا مقنعا ، أما القرآن الكريم ، فقد نفى ماذكره ابن كثير وأثبت أن مريم ماكان معها أحد لحظة الوضع من البشر ، بل انه

أتاها الأمر بالا تخاطب أحد من البشر فى هذا الوقت "فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا (١) " وأثبت أن طفلها سيقوم بعبئ الدفاع عنهما ، فمن أولئك الذين تستحى منهم ولم يكن معها أحد؟!

وعلى كل فان تصوير ابن كثير أفاد فى أمرين هامين وأكد عليهما:

الأمر الأول :

أن الحالة التى ولد عليها عيسى عليه السلام ، كانت حالة اضطراب داخلى يهز مريم بكل عنف تلفظه من آن الى لآخر ، كلما ترائى لها شبح الغد المجهول ، الذى تواجه فيه يوما ما قومها وحالة من البؤس سيطرت على وجدانها ، حتى تمنت لو أنها لم تكن هى التى عاشت ، حتى حملت وأنجبت

الأمر الثانى :

أن عيسى عليه السلام ، ولد كامل الخلقة ، واضح المعالم ، فيه كل عناصر الحياة ، فدل ذلك على أن غذاءه كان يصل اليه داخل رحم أمه ، شأنه فى ذلك شأن كل بنى البشر ، وانه فى حالة ولادته عانت أمه بعض الآلام ، مثلها كغيرها ، الا أن ما عانته هى كان بدرجة أخف وقد علمت أن حملها سيأتى بذكر لامحالة ، وكان لذلك أثره فى تخفيف المعاناة عنها .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٦

مسقط رأسه :

أغنانا القرآن الكريم عن سؤال التاريخ وغيره ، وحدد بوضوح مسقط رأسه (عيسى) وصور جذع النخلة ، وجعله كالشاهد بأن عيسى ولد بجواره ، وهى اذ تميل ناحية جذع النخلة (حيث تضع وليدها) انما تريد أن تبث فى جوانحه منحة الخير ، وتطعم وليدها الوفاء لله والاخلاص له ، وكان ذلك مع لبنها المبارك ، وتريد أن تنبه الوليد الى الحنو على الضعفاء وخفض الجناح للمحتاجين ، توحى له بأنه الأمل المرتقب فى اصلاح مافسد ، اذن ما قيمة الجذع ؟

الجواب :

ان مكانة الجذع ليست من ناحية الآثار ولكن لأنه أول شاهد لميلاد المسيح وفى جواره ولد ، وسمع أول كلمات البشر حيث طار الى فؤاد عيسى ، وحى كلم أمه به ، وحكاه القرآن الكريم عنه ، فهو أول مكان من الأرض لمس جسد نبى " الجليل " ، وأول قطعة من الأرض شرفت باستقباله فلابد أنها ستترك فى معارفه ذكريات عذبة ، وأمنيات حلوة وسيرة لاتبليها الأيام ، ولاتنهيها الأعوام وبخاصة بعد أن قصت أمه على سمعه قصة الجذع الذى أوت اليه .

ولكن أين ذلك المكان الذى يوجد به الجذع ؟ أهو مصر ، أم الشام ؟ أو فى الهند أم باكستان ، هلى أمريكا أو أفغانستان ؟ لعله سدوم أو عمورة أو فى أورشليم ، كل ذلك لم يهتم به القرآن الكريم ولكن تحدثت به السنة الصحيحة وأكد الفرض الغالب أنه مكان قريب من بيت المقدس يوجد به أشجار نخيل ومقارن سريان نهر يبعد عن بيت المقدس قليلا ، بعدا مكانيا ويتعلق به تعلقا كاملا قربا روحيا .

وأنه فى هذا المكان ، لم يكن ليوجد فيه لحظه الوضع غير مريم ، وانها خارجه من محرابها متخفيه، بعد ان شعرت بما تشعر به الام- الحامل التى استعدت نفسيا ، وتهيأ جنينها للخروج وقد كانت متوجهة صوب مكان ما ، حددته العنايه الالهيه ، واشتمل على ما تحتاج اليه الولاده والواضعه ، من ماكل ومشرب وانس، وقادت العنايه مريم اليه ليكون مباركا بهذا الوليد ، وليس المكان هو المسجد الاقصى ، لأنه هو الهيكل الذى يتناوب فيه الكهنه اعمالهم وقد تخصص للعباده والطهر والتبتل ، وبه نفر من الناس، وقد ذكر فى السنه النبويه المطهره ، أن النبى ﷺ ، صلى ركعتين ببيت لحم ثم قال له جبريل عليه السلام ، أتدرى أين صليت؟ قال النبى ﷺ ، لا قال جبريل : صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى كما جاء ذلك فى حديث شداد بن أوس ، الذى رواه البزار وأبو يعلى والطبرانى قال : الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد ورجاله رجال الصحيح جـ ١ صـ٤٧ وقد نقل هذه الروايه الحافظ ابن حجر فى الفتح جـ ٧ صـ ١٩٩ وسكت عنها (١)

مفترق طرق :

ها نحن على قارعه الطريق ، نشاهد الافكار القادمه ، ونحاول التعامل معها ، وقد قلنا ان بعض المفكرين المسلمين نقلوا عن فكر غيرهم وهاك نموذجا آخر، عن المكان الذى وضعت فيه مريم وليدها.

---

(١) السيد محمد بن علوى المالكى الحسنى - حول الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف صـ ١٤، ١٥

قال الامام ابن كثير وقد اختلفوا فيه-المكان-فقال:

١-السدى: كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس

٢-وقال وهب بن منبه: ذهبت هاربه ، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ، ضربها الطلق .

٣- وفى رواية عن وهب، كان ذلك على ثمانيه اميال من بيت المقدس فى قرية هناك يقال لها بيت لحم .

٤- والبيهيقى عن شهداد بن اوس رضى الله عنه ،أنذلك بيت لحم فالله اعلم

٥- ابن كثير، وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض ولا يشك فيه النصارى انه بيت لحم- وقد تلقاه الناس، وقد ورد به الحديث ان صح (١)

والشك الذى ساقه ابن كثير فى صحه الحديث ، يوجب فتح باب المناقشه والسئوال الملح هو هل المكان ، بيت لحم المدينه ذاتها؟ ويأتى بعده ، هل كان فيه أشجار ، وهل كان بجوار الاشجار جذع نخله آوت العذراء البتول اليه؟ وكان جبريل الامين ، وملائكه الرحمن يشهدون هذا الوليد النجيب ، كما حكاه القرآن الكريم ، وفهم من مدلول آياته ، والرطب الجنى ، والنهر الجارى (٢) وهل المدينه بيت لحم ، وكما تقول الأناجيل الكنيسيه ، فى مزود للرعاه ، وكان مع مريم زوجها، اوخاطبها، اورجلها يوسف النجار ولا كان هناك رطب ، ولا نهر، ولانخل ، لاشك أن الرأى الثانى مخالف للقرأن الكريم ، بل هو روايه الأناجيل ، وقد تأثر بها بعض المسلمين ، ونقلوه دون تنبيه عليه ، او تحذير منه، اودون مناقشه له (٣)

---

(١) الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ١١٦ (٢) سورة مريم الايات ٢٣-٢٦

(٣) راجع الامام ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ٣ صـ١١٦ وما بعدها والبداية والنهاية له أيضا ، ومختصر التذكرة للشيخ الشعرانى

والجواب على هذه الاسئله ، واضحه معامله، وقد ذكر فيما مر من صفحات .

وضعت مريم وليدها ، وقد أمرها الله تعالى ، أن تأكل وتشرب وأن تدخل السرور على نفسها وقرى عينا ثم كلفها بعدم مناقشة أمرها مع أحد من البشر او فى أمر هذا الوليد، وعليها ان توكل مهمة اجراء اى حوار، عن طريق هذا المولود، الذى تحمله على صدرها " فاما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم انسيا "

والاستثناء فى الأيه عام شامل ، ولم يحصل أن ذكر القرأن الكريم أو السنه ما يبعد يوسف عن هذا الحصر، ولو كان هناك ما يدل على أن يوسف غير داخل فى الاستثناء ، لتغير الرأى وقد أوجزت فى العبارة خشيه الاطالة .

وقد قيل :

توكل على الرحمن فى الامر كله   ولاترغبن فى العجز يوما عن الطلب
الم تـر ان الله قال لمريـــم   وهـزى اليك الجذع يساقط الـرطب
فلو شاء ان تجنيه من غير هزه   جنته ولكن كل شـــئ لـــه سبب [١].

ولما كانت مريم غير عليمه كيف تصمت ، وكيف ستدافع عن نفسها وولدها وجدنا القرأن الكريم ، يدافع عنها ويخاطب وجدانها " فأشارت اليه وهو فى المهد فقر ناطقا ، وقدكان " نطق السيد المسيح فى المهد ليكون كلامه اعلاما صريحا ببراءة أمه وانه لم يكن الا عبدالله ولد من غير أب.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣

ويروى ابن كثير عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم ، أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا ، حتى بلغ مبلغ الغلمان ، ثم انطقه الله بعد ذلك بالحكمه والبيان ، فأكثر اليهود فيه ، وفى أمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغيه (١).

واذا كان من الصواب أن يقال ، أن خلف تلال الضباب يوجد بريق الامل ، وخلف الغمام يوجد شعاع الشمس ، فاننا نقول أن الواحه التى نرى السير فيها ، ونحب أن نمزج بين الامل والرجاء فى رحابها ، لانفترق عندها ، بل سنعمل على مواصله الكفاح فى هذا الطريق .

نواجه الاقوال بواقعيه الحقيقه ، وشفافية الهدف ، ونبل المقصد ، ونؤكد أن عيسى نطق فى المهد ، وعاش بعدذلك حبيس الكلام حتى جرى عليه ما جرى على غيره من قرنائه فى السن ، واترابه فى العهد ، وشركائه فى الرساله. ذلك كله ما سنلوى اليه ، محيطين اياه بقدرما نتمكن من فنون العنايه ، مفردين له حديثا خاصا ، فى الفصل القادم .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣

(٢) الشيخ محمد أبوزهرة - محاضرات فى النصرانية صـ ١٥ والبهودية الدكتور / احمد شلبى صـ ٢٧٩





الفصل الرابع

قضية المجابهة بين مريم وقومها

تمهيد

انتهينا من عرضنا لمرحلة الوضـع التى تم فيها وجود نبى الجليل، عيسى عليه السلام ، وانتهينا من تصويرنـا لموقف مريم ، وتأكيدنا على أنها هرعت الى داخلها ، وانتابتها الـوان الحيرة ، وصنوف الاضطراب وزاد من خوفها أن ملامـح الوليد تنم عن كياسة ، وأن مظاهر غير عادية ، تغطى كل تصرفاته ، وأن ملامح الخير تترى نحوها وعليه .

وقد كان من ملامح ذلك الخير ، أن الجذع كان جافا " وعندما هزته حمل الرطب ثم أسقطه جنيا "(١) ، وكذلك وضح لنا مدى تمكن العنصر النفسى من فؤاد مريم وحنوها على وليدها ، وقد صور القرآن الكريم ذلك المشهد " قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا " ، فانظر الارتداد الفكرى داخل مريم يتعاور الوجدان ، فؤادا واحدا ، أنه فؤاد مريم. قالت : ياليتنى مت ، ولم تقل ياليتنى لم أحمل بهذا ، فتمنت ما هو بعيد ، لعلمها أنه لن يتحقق طالما أنها حية ، تمنت ألا تكون هى وتمنت أن يوجد وليدها وكأنها تخاطبنا بشعور كل فتاة ، كل أنثى إنه شعور النقص ان لم تر فى أحشائها جنينا تعانى من آلامه فى تكبر وعناد ، وتتحسس أجزاءها فىعناية واصطبار ، ومعروف ان التمني يكون فى أمر متوقع ولكنه غير واقع ، فاذا خرج عن ذلك كان لمعنى آخر ، وفهم أبعد وهى حين تقول ياليتنى بعودة الضمير عليها وحدها ، انما تبعث الامل فى صدر ولدها فكأنها تطلب اليه طول العمر وهدوء البال ، وما كان يعجزها أن تتخلى عنه ، وتعود الى محرابها ، وكأن شيئا لم يكن كما يفعل تجار الرقيق الآن ،

---

(١) المركز الدولى الاسلامى بجامعة الأزهر – الأمومة فى الاسلام صـ٩٩ بحث د. عبد العزيز كامل

وأدعياء الحرية ورواد الانحلال ، ولكنها مريم التى سمعت وحى السماء فحين تغلبها مخاوفها تتمنى الموت لنفسها فقط فكأنها تريد أن لو أضيف عمرها الى ما قدر لولدها الذى تمنته وقد بشرت به من الله تعالى وهنا تشاركها السماء مسألتها، فناداها من تحتها ، وكان المنادى هو عيسى او جبريل وهو يتلقى- المولود- ألا تحزنى- يا مريم . قد جعل ربك تحتك سيدا رفيع القدر(١) فهنأت وراحت تقنع بمواجهة قومها ولتلك المواجهة جوانب نبدأ

١- مريم رضى الله عنها بذاتها. ٢- عيسى عليه السلام ودورة فى المجابهة.
٣- قوم مريم ، وموقفهم منها .

ومادمنا قد أجملنا هذه الجوانب ، فانه يحسن بنا أن نتوقف طويلا لنوضحها حسب ما يدور فى تصورنا، قاصدين بلوغ الحقيقة ، مقتصدين فى العبارة ، قانعين بفضل الله

الجانب الاول:

مريم رضى الله عنها ، أو ماريا

أما مريم اوماريا Mary العذراء أم المسيح وأسمى الكائنات (٢) -عندهم- فقد مضى الحديث عنها ، ونالت بعض العناية فى صفحات ، خلون من هذا البحث تناولنا فيها، نذر أمها لها واقتراع الرهبان عليها ، ونشأتها داخل المحراب ، ورعاية زكريا لها ، والرزق الذى كان يأتيها ، واصطفاء الله لها ، واختياره اياها لتكون أما لنبى الجليل ، أما لشخص لا أب له ، أنه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأفضت فى شرح تلك النقاط ، حتى

---

(١) الاستاذ محمد فريد وجدى المصحف المفسر صـ ٣٩٨
(٢) دانتى الشاعر الايطالى - الكوميديا الالهية - الفردوس صـ ١٢٢

ارتسم فى اذهان الناس كل الناس طهر مريم ، عفافها ونقاؤها ، حتى خرجت من الهيكل لتضع وليدها ، وها هى قد وضعته ، وها هى بجواره تنظر اليه ، تقر عينها به ، وتمطره بقبلاتها ثم تدخل فى معركة قوية مع أفكارها .

ويكفى هنا أن نودعها بجوار طفلها ، تلمه الى صدرها الحانى وتلقمه ثديها المبارك بجوار جذع نخلة ميمون ، على أمل أن نعود اليها لنرجع معا الى مهجع مريم ومخدعها ، ولنرى طفلا ، تعلمه الحب والحنان وتدفعه الى الخير ومغالبه العنفوان ولتكون رسالته نذير شر على المادية وبشير خير لصلاح البشرية الذين يوجد عيسى عليه السلام بينهم .

الجانب الثانى :

عيسى عليه السلام :

نعنى بهذا الجانب الثانى ذلك الجزءالقليل من الزمن فى حياة عيسى عليه السلام من لحظة ميلاده وعوده أمه به الى قومها لتواجه قدرها بنفسها ، وهى ترنو الى ذلك الطفل الجميل الهادئ ، وسوف تواجه قومها به يحمل ملامح النبوغ ، ويفيض بالحكمة والعرفان ، كان فى أحشائها حملا ثقيلا ، وأملا بعيدا ثم أفرغته طفلا جميلا ، تتأمله بوضوح ، وتتلفت اليه بيقين، انه لاأب له يرعاه حتى يكون له شبه وقد قيل من شابه أباه فما ظلم على كل دخلت مريم وعيسى الامتحان ، أنتابتها الحيره ، وطغىعليها ظلام كثيف ، وانقطع املها فى البقاء بمكان الوضع فقررت العودة الى بيتها ، بيت ، أهلها ، الىقومها من قضت بينهم أحلى سنوات العمر ، وذاقت فى رحابهم أعذب أكسير للحياة .

وها هى مريم تخطو عائده الى بيتها، وقد غادرت المكان الذى وضعت فيه وليدها ، وها هى تحمله على أكفها ، وها هى قادمة على القوم تطالعها مشارف ديارهم ، وتلف أبنها فى ملابس خاصة بها وعباء واسعه تخفى وليد ها من عيون الناس ، وانتابتها اسئلة ، ماذا تقول عن نفسها الآن ؟ وماذا يقول قومها عنها ؟ ياللهول وياللفضيحة والعار ، مريم العذراء البتول ، تدخل به على أهلها ، ماذا أصابها ؟ أهى تتحداهم بفعلها ؟ أم تبتغى أن يتستروا عليها ؟ أم هى جاءت تفضح نفسها ووليدها بين أيديهم ليثأروا لشرفهم منها (١) وبينما أسئلتها تخامر رأسها ، تلوح خطواتها تقرع الطريق إيذانا بانتهائه ووصولها الى أسرتها ، وهنا يبرز دور عيسى الذى تحمله على كتفها معلنا تحدى القوم فحاولت أن تخفى صوته خلف طيات ثوبها طيلة الطريق ، وقد راح صوته يمزق حجب الصمت فيهرع القوم الى مريم يسألون ما الخبر ؟ وهنا يجدون طفلا جميلا ومريم أمه ، وتقع المفاجأة ، ولها أثرها على مرضى القلب وارتفاع الدم أو انخفاضه ، كما هو مبسوط فى كتب العلم – الفسيولوجية– والسيكولوجية فوجئ قومها به حين أتت اليهم تحمله ، أنها الطاهرة العذراء فمن أين الولد؟ واختلف الكل فى شأنها وتساوى " فى ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ومن لايعرف ، لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهى المعروفة بينهم بانها عذراء ليس لها بعل ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام لأنه عند المفاجأة تذهب الروية ، ولايستطيع المرء أن يقابل بين الماضى والحاضر ، وخصوصا أن دليل الاتهام قائم (٢) .

---

(١) الاستاذ / محمود زهران – قصص من القرآن صـ ٢٣١
(٢) الشيخ / محمد أبوزهرة – محاضرات فى النصرانية صـ ١٤

ومادام الاتهام قائما فلابد من دليل مادى يؤكده ، وهذا ما كان فى شأن عيسى ، فقد كان عيسى هو القرينة المادية لاتهام العذراء البتول " ولامجال للريبة فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها ، فى هذه المفاجأة ، فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام ، لينقض الاتهام من أصله ، ويأتى على قواعده ويفجأهم بالبراءة وبرهانها الذى لايأتيه الريب ، ليعيد الى ذاكرتهم ما عرفوه فى نسكها وعبادتها " (١) .

وهنا نجد عيسى عليه السلام ، ينطقه الله حين تتحداهم مريم به ، فأهلها لها سائلين عليها منكرين ، يامريم ما الذى حدث ؟ لقد جئت شيئا فريا ، ويذكرونها بأخيها الصالح ، " ياأخت هارون " ، ثم يعيدون الى اسماعها طهارة قومها ، من أم وأب " ماكان أبوك امرأ سوء " يعرف بيوت الهوى والانحلال ، حتى يقال الجزاء من جنس العمل ، ولا عرف أبوك مثل هذا اللهو فقد كان كبير الأحبار وامامهم .

ثم يذكرونها بطهارة أمها بخاصة " وما كانت أمك بغيا " ولو كانت أمها كذلك ما وقع استغراب على فعلة مريم ، انهم وضعوها فى مكانها اللائق بها ، واستحقروا أن تأتى بفعلة شائنة ليس فى أهلها من هم عشاق ذلك ، وهنا نجد شهادتهم واضحة ، فى طهارة مريم ، وعفافها من أب وأم وأخ ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم ، حين قال " فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا ياأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا " (٢) .

---

(١) الشيخ / محمد أبوزهرة – محاضرات فى النصرانية صـ ١٤

(١) سورة مريم الأيات ٢٧ – ٢٨

وكأنها تنظر الى أفواه القوم ، وقد توجهوا بها اليها ، وكأنى بها تنظر الى ألسنة حداد تخرج من هنا حاملة أقسى الألفاظ وأخطر العبارات الى ساحة مريم العذراء ، ولما تأكدت أن القوم ضلوا فى حديثهم ، وانقطعت سبل حجاجهم وألوان عتابهم ، أشارت بطريق الواثق من نفسه المتأكد من قوة دفاعه ، وسلامة حصونه ، فأشارت اليه " أن كلموه واطلبوا منه الجواب لأى سؤال يتوراد على خواطركم ، اننى أذنت له بالدفاع عنى وقد تكفل بالدفاع عن نفسه ، وهنا جن جنون القوم ، أترتكب الفاحشة وتتحدى وبعقولهم تهزأ ، وعلى أكابر القوم تلقى نظرات عدم الاحترام ، فهتف كبيرهم فى غضب وعنفوان وقاله القرآن " قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا " قوم أمنوا بالمادة سلطانا ، وللروح نكرانا ، فهل يوجهون سؤالهم لطفل ليس له من حظ فى الحياة الا أنه أتى اليها ، ولم يمض على وجوده الا القليل ، هل يتكلم طفل له من العمر سويعات ؟ بل ان تجاهله وامثاله فى الامور العادية شى عادى جدا ، فهل يوجه كبراء القوم سؤالهم لمن لايعقل ولايتكلم . وأمثاله خير شاهد .

أتسخر من القوم ؟ أتهزأ بهم ، وراحت مريم ترمق بعينيها شفاه أكابر القوم وقد داخلتهم غريزة الانتقام ، من عذراء لم ترتكب فى حقهم ما يدفع للاتهام ، وراح الوليد ينظر فى وجوه القوم ويتأمل ما هم قادمون عليه بعد تعنت واستكبار ، وهنا يبدأ فى اعداد دفاعه ويأتى بدفوعه منظمة بفضل الله تحمل الحكمة وقمة البيان ، يعلن عن ذاته ، ووظيفته فى الحياة والشهادة التى تتعلق به وحكاه القرآن الكريم " قال إنى عبدالله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى

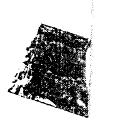
بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا " (١) .

دهش القوم ولبستهم الحيرة ، وبان عليهم القلق ، ماذا هم سامعون ومن ذا الذى يحدثهم ؟ انه طفل قالوا عنه " فى المهد صبيا " ولكن كان هذا النطق فى المهد من عيسى عليه السلام اعلاما ببراءة أمه مريم " وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلا حتى بلغ ما يبلغ الغلمان ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان (٢) ومعنى ذلك أن عيسى انطقه الله فى المهد دفاعا عن أمه ، وتعريفا للناس بنفسه وأنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والنبوة ، وقد بلغ الثلاثين من عمره ليعرف بنى أسرائيل طبيعة الرساله التى أوحى الله بها اليه ، لهدايتهم وارشادهم .

ولنعود الى عيسى عليه السلام ، الذىأنطق فأعلن عن منهجه من أول وهله ، انها أول لحظات حياته ، واجه فيها كبراء القوم وعليائه ، ودافع عن أمه الطاهر البتول ، وكاشف القوم بما كان يجول فى أرض فكرهم الجدباء ، وأبان عن مخطط عقيدتهم الهشه وأزاح من فوق عقول ضعفائهم العبودية لغير الله ، والارتماء فى أحضان المادة ، فأخذهم جميعا الى ممارسة قدراتهم العقلية ، حين قال " انى عبدالله ، وما هجعت الخواطر المفعمة ، وصمتت الاصوات العالية ، وخشعت القلوب الواجفة ولمح بيان عيسى الى ما يطفى على هؤلاء المرضى غير المطالبين بالعلاج ، فأخذ عقولهم الى حيث موطن الداء ، وحدد معالم الطريق الذى سوف يخطو منه مسرعا ،

(١) سورة مريم الآيات ٢٩ - ٣٣

(٢) الشيخ/محمد أبوزهرة - محاضرات فى النصرانية صـ ١٥، والدكتور/احمد شلبى - المسيحية صـ ٢٧٩



وكأنه يرسم لأمته المنهج الذى جاءهم به ، وجاء هو من أجل أن يقر فى بنى اسرائيل ولخراف بيت اسرائيل الضاله[١] .

منهج وضعه البيان الاول من نبى الجليل فى مهده ، ينقل قومه من عالم الماديات الصرفة الى عالم الروحانيات المشفة ، وأن يعيد الىَ أذهان الكهنه ، الصوره المضيئه فى توراه ربهم التى تركها موسى عليه السلام أمانه فى أعناقهم ، فطمسوا وجه الحقيقه فيها ، وحاولوا أن يقتلعوها من قلوبهم ، وزينوا الباطل فى نفوسهم واحتضنوا الاسفاف فى صدورهم ، فحرك عيسى بكلماته الاولى ، نورالله الذى كم حاولوا اطفاء وميضه . وجاء بيان عيسى يحمل الامورالتاليه :

١- أنه عبد الله ، وليس ابنا ولا شريكا كما يدعى المدعون

٢-أنه رسول تأتيه الرسالة من الله لهداية خلقه وله منهج معين، " أتانى الكتاب " .

٣- أنه رسول نبئ الى بنى اسرائيل " وجعلنى نبيا " .

٤- منحه الله الخير بأمره تعالى وجعل البركة تحيط به كما هو الشأن ، مع اخوانه من النبيين ، " وجعلنى مباركا أينما كنت " .

٥- أوصانى بالصلاة فهى العلاقة القوية ، بين الانسان وخالقه ، وهى نور الجبين وطريق السلامة لرب العالمين . وكذا الزكاة بكل معانيها فهى دلالة على محاولة المرء التقرب من خالقه .

٦- أن هذه الأمور مقرونة بدوام حياته عليه السلام ، مادمت حيا " .

٧- حعلنى بارا ، بأهلى وبخاصة تلك التى حملت فى سبيلى ماحملت " وبرا بوالدتى " .

---

(١) متى ١٥ / ٢٥

٨- لم يجعلني جبارا شقيا ، بل كنت كأخوتي من الأنبياء رحيما هاديا ومرشدا وذا شأن المرسلين .

ولعل في نقاط البيان ، كل الردود على أدعياء التثليث والتثنية والأبوة والنبوة ، والقيامة والدينونة ، ولعل البيان أغنى عند كل ذي عقل عن أي بيان ، فليتأمله من له عقل ولابد أنه واصل الى مايريد " وماتغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (١) .

هدأت صيحة القوم ، وخبتت جلبتهم وانتصرت مريم وابنها في أول لقاء بينهم أول لقاء يمثل انعطاف الفكر لا نحو المادة بل نحو خالق المادة وكأن ابن مريم باقراره الحق قد ذبح الكهنة في نحورهم ، وأزال الفضيلة وحطم محراب العدالة ، فراحوا يتلمسون له وقعات وقد حاولوا أن يدلفوا به الى مجاهل التاريخ ولما لم يتمكنوا راحوا يعلنون عليه وأمه حرب الشائعات وكذبوا بالحق الذي سمعوه وشاهدوه .

وحين نتلمس مواضع وقوعهم في مريم وابنها ، نجدها أكثر من أن تحصى ، وقد لخص القرآن بعض ذلك ، وخاصة ذلك السباب والافتراء الذي وقع على مريم أثناء حياتها وبعد وفاتها وأبنها . فقال تعالى حاكيا عن اليهود بعض جرائمهم " وقولهم على مريم بهتانا عظيما "والبهتان هنا " يعني فريتهم عليها ، ورميهم اياها بالزنا ، وهو البهتان العظيم لانهم رموها ، وهي مما رموها به بغير ثبت ولا برهان بريئة ، فبهتوها بالباطل من القول " (٢) .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١

(٢) الامام القرطبي - تفسير القرطبي جـ٩ صـ ٣٦٦

واليهود مع مريم وابنها لهم شأن يطول فقد أكثروا " فيه وفى أمه من القول وكانوا يسمونه ابن البغية " (١) ، وقدنقل أن التلمود يقول " عن المسيح ان يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم بين الغار والنار وأن أمه مريم أتت به من العسكرى - باندارا - عن طريق الخطيئة (٢) ، وقد لعن الله اليهود فى مرات عدة ، لا مجال لذكرها ههنا .

ثم يصور القرآن حالة عيسى حين أنطقه الله فى المهد وصدر عنه خطاب جيد هادئ يرسل السلامة ويؤثرها ، ويشيع المحبة وينشرها علها تكون باقات حب ، وشعلات أمل وأنشودة محبة ، وذكريات ود لصدور مليئة بالوئام ، وقلوب عاكفة على أطيب الأمال فيقول القرآن حاكيا عنه " والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا " (٣) ويكرم المولى نبيه ويؤكد صدقه فيقول : " ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون " .

ثم ينفى عن ذاته تعالى احتياجه للولد ، أو اتخاذه ذلك ، وانما هى ارادته فى الأشياء " ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وأن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم " (٤).

---

(١) احمد شلبى المسيحية - صـ ٢٧٩

(٢) المرجع السابق صـ ٢٧٩ - المسيحية

(٣) سورة مريم الأيات ٣٣ - ٣٤

(٤) سورة مريم الأيات ٣٥ - ٣٦

تلكم هى الكلمات الأخيرة فى البيان الأول والخطاب الموجه على لسان عيسى عليه السلام وهو فى المهد ، فهل يعرف خراف بيت اسرائيل الضالة ؟ واين هم الآن من تعاليمه بل أين تعاليمه التى أودعها بين أيديهم أمانة فى أعناقهم فهربوا منها ، وتركوها ثم ولوا هاربين ولعل العالم الحر يتساءل الآن .

اذا كانت رسالة عيسى هى المحبة ، والوفاء والسلام ، فأين هذا مما يحدث فى العالم الآن ؟ من الذى حمل الصليب وطاف به فقطف رؤس الأبرياء ليحقق به حلم الدمار والخراب ؟ من الذى يعلن المحبة ويؤثر البغضاء ، أعيسى ورسالته أم المنتسبون اليهما ؟ هل ما نشاهده الآن - ويلمح أثره معنا العالم كله - يلتقى مع دعوة عيسى عليه السلام فى طريق ، أو يجتمع مع رسالته وتعاليمه فى اتجاه ، أم أن دعوة عيسى عليه السلام لبنى اسرائيل ذهبت أدراج الرياح ، وعمد المستفيدون من وجود المسيحيه الى طمس كل أثر للنصرانية واخفاء كل معلم لها وقد **بذلوا** فى سبيل غرضهم ما تمكنوا منه .

وهل يمكن أن يلم شتات شملها ضوء نهار ، أو ظلام ليل ؟ !! أم أن الحق قد ابلج ، والظلام قد ادلج ، وبات من المؤكد أن المسيحية غير النصرانية . وأن المسيحية دين بولس ، والنصرانية دين بعث به عيسى عليه السلام ؟ .

كان موقف عيسى من لحظة ولادته حتى افحامه لقوم أمه ، واجابته على كل سؤال وجهه القوم الى أمه ، وهنا تنتهى رحله الجانب الثانى من قصة المجابهة وها نحن نتجه الى **الجانب الأخير** .

الجانب الثالث :

موقف قومها منهـــــا :

أدعياء المسيحية اليـوم ينظـرون الـى مريـم علـى أنهـا أم الالـه ، وهـم مازالوا مختلفين حولها حتى الأن فى أى الدرجـات تحـوز المنزلـة بالنسبة للثـالوث المقـدس ، ومـن يطـالع كتابـات البروتسـتانت يجـد مــا يكفيــه وأن النظرة منهم لم تكن محل اتفاق فـى يـوم مـا ، وحيـن نلمحهـا قد أتـت الـى قومها بولدها تحمله على ذراعيها تجلى موقفهم فـى أمـور ، تنـم عـن شـئ داخلى يجوب أجواء الفكرالكهنوتى والكنسى معا ، من هذه الأمور .

(١) أنهم سألوها متعسفين، وكـأنهم يريـدون أن يقدموهـا قربانـا ومـا كـان بودهم أن يعطوها فرصة للدفاع عن نفسها إن هى طلبت ذلك مع أنهم مـن أتباع موسى ، وهى فتاة طاهرة من بيت كريم .

(٢) أنهم رموها بالزنا لأول وهلة ، حين وقعت رؤيتهم عليها ومعها طفـل ، ولم يتريثوا وسألوها ابن من هذا وأين أمـه ؟ ولكنهـم أتهموهـا مباشـرة ، "قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا " فدل ذلـك علـى سـوء قصـد ، وخبـث طوية ، وانطفاء نور اليقين من قلوبهم وسرعة اتخاذهم القرار السـئ الـذى يدل على الاندفاع والتسرع والرعونة ، وهو ما كان يجب أن ينأوا بأنفسهم عنه



(٣) أنهم ذكروها بأخيها الصالح كـأنهم يزيـدون فـى القـاء التبعـة والصـاق التهمة بها ، فأخوها صالح وهى تنسب اليه هارون ، وقـد قيـل أن هـارون كان رجل سوء فأرادوا تشبيهها به ، حيـث " كـانت مريـم مـن أعقـاب مـن كان فى طبقة هارون ، وقيـل المذكـور كـان رجـلا صالحـا فـى زمـانهم ،

فشبهوها به ، وقيل كان – هارون – رجلا فاسد الاخلاق فشبهوها بـه مـن باب السب " (١) .

(٤) انهم اتهموها بالجنون حين أشارت الى ولدها ، ليكون هو الـذى توجـه عليه الأسئلة وهو الذى عليها يجيب ، وهذا يعنى فقدان ثقتهم فيها ، وانعدام تلك الثقة أصلا ذلك من قولهم وحكاه القرآن الكريم " قـالوا كيـف نكلـم من كان فى المهد صبيا " .

(٥) سمع القوم ما قصه القرآن الكريم على لسان عيسى أول لحظـة وضـع له ودفاعه عن أمه من قولـه تعـالى " قـال إنـى عبـد اللـه .... الـى . ويـوم أبعث حيا " ومع هذا لم تسلم هى وابنها من السنتهم ، وكأنهم يعيدون سالف مثل انطبق عليهم " كفروا بالله قبل أن تجف اقدامهم من البلـل " ولـو عقـل القوم ما فعل سلفهم ، ومسخ الله لهم لفقهوا معنى ماندعوا اليه ، ونلـح فـى الطلب عليه ، فهل يفقه أولئك ويستجيب هؤلاء ؟ .

ولنا سؤال :

دافع الاسلام عن مريم وابنها ، وانطـق الله ولدها شاهدا لها وقـد علـم أنه " بهذا النطق الالهى الذى جـرى علـى لسـان عيسـى – وهـو فـى المهـد قر الحق فى نصابه ، وظهر فضـل اللـه عليـه وعلـى أمـه ، ومـا كـان لولـد يفترى ولا لسيدة تفترى أن يحصلا على هذا الفضل وذلك التكريـم ، وكمـا تبدد بهذا المنطق بهتان المفترين تسجلت به على لسان عيسى عبوديته للـه وأنه محل رحمته وبركته ، وأنه قد صاغه على النحو الذى يريد(٢) " فمـاذا فعل أتباع المسيحيه الى الآن فى هذا المقام ؟

---

(١) الاستاذ/ محمد فريد وجدى – المصحف المفسر صـ ٣٩٩

(٢) الشيخ/محمود شلتوت-الفتاوى الطبعة الثامنة دار الشروق بالقاهرة صـ٤٤٢



إن كان قد تأكد للجميع أن مريم " حملت وهى غير متزوجة ، فقد برأها الله من السفاح على لسان وليدها ، الذى انطقه الله عقب الوضع فبرأ والدته ، وأخبرهم أنه عبدالله وأنه أتاه الكتاب وجعله نبيا " (١) ، فماذا قال أتباع المسيحية حتى الآن ؟ واذا كان مسيحيو اليوم – وهم أبناء واحفاد مسيحى الأمس – يتعلقون بمريم ، وبحبها يتشدقون ، ولا بنها يسبحون ويحاولون أن يظهروا أمام الناس أنهم دعاة مودة ، وهداة رحمة ، ورسل محبة ورواد سلام فلماذا غفل عنهم صوت الحق أو غفلوا عنه سنوات طوال ؟ !

واذا كان موقف قوم مريم منها يوم أن عادت اليهم بوليدها موقف سوء ونذير عداء مع أنهم أتباع نبى الله موسى ، من بنى اسرائيل فهل تغير موقفهم من اليهود ، أم هل تغير موقف اليهود من مريم ، وهل أعلنوا براءتها ؟ هل فكر اليهود فى مراجعة مواقفهم من مريم وابنها هل يرجعون الى صدورهم يستفتونها قولة الحق ، ويعلنون دليل الصدق الذى حدد القرآن الكريم معالمه ؟

هل عرف أحبار النصارى ورهبان المسيحية موقف الحاخامات – علماء الدين اليهودى – من مريم ؟ وهل رضى القساوسة ومن فى السلك الكهنوتى عن ما قاله اليهود ، ومازالوا يرددونه ، من انتظارهم مسيحا أخر يأتى اليهم ، يعيد لهم سلطان ملكهم الزائل ، ويرجع اليهم سالف العهد القديم الذى سلب عنهم ؟ هل سيظل أتباع المسيحية صامتين أمام تعاليم العهد القديم التى تلمز لمريم وتغمز ؟

(١) لجنة العلماء بمجمع البحوث – تفسير الوسيط

لاشك أنهم ان رضوا بذلك سقط ادعاء حبهم لمريم ، وانتسابهم لابنها عيسى عليه السلام ، وان لم يرضوا ، فما هو مجهودهم فى مواجهة دعوى خصومهم بالنسبة لمريم وعيسى أبنها نبيهم ؟



الباب الثالث

عيسى عليه السلام من النشأة
إلى إعلان النبوة



الفصل الأول

نشأة بين القرآن الكريم والأناجيل

تمهيد

كما هو الشأن الذى قررنا السير فيه ، ونحن نواصل الزحف مع هذا الوميض سنقابل بين الأقوال ، ونذكر بعض وجوه الاتفاق أو الاختلاف متى كان ذلك مجديا ، وسنحاول أن نوضح – على أقل تقدير – مايرسم ملامح المسيح فى حياته ، وقد نعرج على بعض المواقع التاريخية نستفتيها فيما قد يعن لنا ، ولانجد له تفسيرا واضحا يفيدنا فيما نهدف .

ولا نود أن يدور بخلد أحد ، أننا نجتزى بعض الأدلة ، عندما يتلاقى فريقان أو أكثر ، عند نقطة يكون المطلوب فيها استيضاح أيهم على صواب ، ذلك أن منهج مقارنه الأديان يقوم على أن يوضع لكل قوم منهجهم كاملا ، ثم يقوم بالمقارنة وتحليل الظواهر ، واستنتاج النتائج ولا يتدخل فى شئ منها مباشرة أثناء عرضها ، كل ماله بعد ذلك ، أن يسجل فى تعقيبه ، ما يجد أنه الأرجح لديه ، وتقوم الأدلة عنده معاونة إياه .

ونحن هنا – فى نشأة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام سنقسم حياته قبل البعثة الى غير ما جرى عليه السابقون ، فقد قسموا حياته الى مراحل زمنية ، وجعلوا لكل مرحلة خصائصها ونحن ما دمنا نرى أن عيسى كان أمرا غير عادى فى وجوده ، فسيكون حديثنا عنه كذلك ، على غير النسق الذى جرى عليه الأولون ، وسنتحدث حولها فى الجوانب الآتية :

١- تكوينه البدنى ، ومن الذى قام عليه ؟
٢- ملكاته العقلية ومن الذى أسهم فيها
٣- ملامح حياته الوجدانية
٤- ماذا عمل قبل البعثة ؟

٥- رحلاته ومن كان يصاحبه فيها.

٦- هل قنع بما حصل ؟

٧- بلوغه سن الثلاثين .

وسنأخذ فى تفصيل هذه الجوانب ، التى ذكرناها ، ليكون الهدف محددا ، وسنذكر أقوال الأناجيل وشروحها ، ثم نعرج عليها ونعقب ، ذاكرين موقف القرآن الكريم من تلك النشأة .

أولا : تكوينه البدنى ، ومن الذى قام عليه ؟

سلف أن تركنا عيسى عليه السلام وأمه ، وقد دافع الابن عنهما ، ووقف القوم حائرين ، ثم تراجعوا فى خزى من كان يود الفوز ثم جاءته الهزيمة من حيث يرجو الظفر ، وكان يود لو أن الناس شاهدوه منتصرا فأراد أن يتوارى عنهم منهزما ، بل راحت به الامانى ، أن لو لم يره أحد لكان أجمل وأستر .

وتركنا مريم وابنها وقومها ، ورأيناهم تركوها وأبنها عائدين الى أماكنهم ، وراحت مريم وابنها يواجهان الحياة بكل ألوانها دون معونة من أحد ، الا الله تعالى ، وحاولت أمه أن تربى ولدها بجهدها من الكسب الشريف ، فحصلت على ميراث أهلها ، وباشرت مهمة العمل بكلتا يديها ، وكانت تغزل الصوف فى بيتها ثم تبيعه ، وهكذا نشأت طفلها من كسبها الحلال ، وراحت تمد له فى الحياة ، وتكافح بكل ما تملك .

أرضعته أمه ألبانها ، وزادت من عنايتها به ، وقفت بين جدران الشرف ، وأحاطت نفسها بسياج الكرامة . ونمى وليدها حتى شب عن الفطام ، وراح يتناول لقيماته بيديه ، ويلقمها فمه بأمل واسع فى مستقبل كريم ، وكأى ابن وحيد تتلهف أمه عليه ، كان الشأن مع عيسى عليه السلام حتى تمكن من كسب يده ، وراح يدر على نفسه ما يكفيه وأمه من كسبه وحده ، وما يمكنهما من مواجهة أعباء الحياة كاملة .

وكان كلما أمتدت به الايام ، واتسعت له سنوات العمر يزداد بسطة فى الجسم ، وتمتعا بالصحة ، حتى بدت عليه ملامح الرجولة . وعنفوان الشباب ، وسنعود الى العمل الذى كان يمارسه ، والذى كان يتعيش به ، ويدر عليه الرزق .

اذ أنه من المتعارف عليه أخلاقيا ، أن كل فرد يبحث عن التكمل الخلقى ، يقوم على شئون نفسه بنفسه ، فما بالك بنبى يرسله الله تعالى لقوم بعيدين عن الله ليأخذ بأيديهم اليه ، فهل يعقل أن يكون ذلك النبى المبعوث الى مثل هؤلاء عالة على غيره ، يتكفل غيره أسباب الحياة له ، بيد أن كل واحة يستظل تحتها يكون الاولى بها ، وكل قويم الاخلاق يقوم بما يتناسب معه من الاعباء ، ويكفل له شريف العمل . وبالتالى فان عيسى عليه السلام قد أحاطه الله بفضله ،فكان جسده على أكمل ما يكون من سلامة وقوة وصلابة ، كالشأن مع قرنائه من الانبياء والمرسلين ، وهداه الله تعالى الى الحق فى امر نفسه فتجمل بالاخلاق وتكمل بالعمل الشريف حتى قضى عمره قبيل البعثة مرفوع الهام ، عزيز النفس . كريم الاخلاق كما شاء الله له ، وقد عصمه الله من الزلل ، وجعل ذلك ارهاصا به ، يحمل الى القوم معالم نبوة جديدة ، فى بنى اسرائيل ، تصحح لهم علاقتهم بالله رب العالمين ، وهو ماكان قد أخذهم موسى عليه السلام نحوه .

ثانيا : ملكاته العقلية ، ومن الذىأسهم فيها ؟

حبست أمه نفسها عليه ، وطوت آمالها عنده ، فأحاطته بكل عنايتها وكانت تسليه بتلك الكلمات التى كانت تسمعها من الكهان ، وهى فى المحراب أيام طفولتها الاولى. وذلك شأن أهل الطاعة وعشاق التقوى وكان الوليد يلقم ثدى أمه ، ويتأمل وجهها الباش ، ثم يتفرس فيها فيسمع من فيها عبارات تنفرج لها أساريره ، وتظهر لها نواجذه ، ومن تكرارها أرتسمت فى ذهن الصبى حتى راح يرددها وجدانه ، ثم انطلق بها لسانه، عبارات العفة والتقوى والحب لله والوفاء للدين .

ولما شب عن الفطـام ، راح يشبع فراغـا داخيـا عنده ، ويسمع من الكهنة تعاليمهم ثم يعود فيتلو على أسماع أمه ما حفظه فؤاده ، فتصوب لـه ما صح وتوضح له مالم يصح ، فكانت مرجعا دائما لـه ، " وكـان الصبى ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة وكانت نعمة الله عليه " (١)

وراح الطفل الوحيد – عيسى – يتسرب الى تجمعات الصبيان وينسـل من بيته يتابعهم الى أماكن تلقى التعاليم ، فتعلم مثل ما تعلموا ، وقد عرفت بكل هذا أمه ، فلم تثنـه عن فعلـه ، ومضت أيـام أدرك الصبـى فيهـا أن قدراته العقلية تتسع لاكبر من ذلك ، وأن فى صدره بعض المعلومات التـى دفعت به الى مجالس الكبار ، وصار من المؤكد أن عيسى كـان يتسلل " وهو غلام الى مجالس الاحبار والرهبـان مـن علمـاء اليهـود ، ومـن حملـة التوراة وشارحى التعاليم ومعلمى الدين ، فيتتلمـذ عليهم ويحـاورهم ويـأخذ عنهم ويجادلهم ويضيق صدره بمـا يفتـون ويضيقـون بـه حين يعترض على ما يقولون" (٢)

ونحن أشد أميلا الى أن عيسى عليه السلام ، حاول بنـاء عقلـه ، والارتقـاء بمعلوماته ، وساعد على ذلك ، مراعـاة امـه لـه ، وكـانت محاولاتـه منـذ طفولته الاولى، كما أننا أكثر ميلا الى انه عالج مشكلة الدراسة ، وانه راح يتنـاول لقيمـات الخبز ، ويجـاهد فـى سبيل قراءة كتب انبيـاء اليهوديـة ويتلوها ، حتى رسمت مزامير داود اوتارها على فؤاده ، وكانت الامثلة

---

(١) لوقا ٢/ ٤٠

(٢) الاستاذ محمود زهران قصص من القرآن صـ٤٣٣

القوية مرددة بصداها فى أنحائـه " ومـن كـان كالسيد المسيح ، تربـى منـذ طفولته على التلاوة فى كتب الانبياء وتتابعت على سـمعه ولسـانه أصداء المزامير المرتله والامثال المردده ، واستقامت فطرته على الوحى والايحاء فليس أقرب اليه أن ينطق بكلام يحيك فى الاسماع بهاتف الصحف الاولـى وهو من نبع فؤاده ، واملاء بديهته .[١]

ومن كان هذا شأنه فلا شك أنه نشأ متشبعا بالقضايا التى تشغل أهلـه والتى تطبع حياته الفكرية والدينية والخلقية بطابعها الخـاص" [٢] ومـا دام الامر كذلك ، فلا بـد مـن أن يجمـع شـتات فكـره وأشـتات فكـر عصـره ، ويلمهـا مـرة ومـرات ، ينظمهـا ويرتبهـا ويؤلـف بينهـا ، ولا شـك أن ذلـك مجهود خالص له وخاص به ، نمى معـه منـذ كـان صبيـا " ولا يبعد أن الصبى المبارك قد وعى الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى ، واستمع الى شىء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره فتاقت نفسه الى استيعابه ونسى أهله وهو ينتقل بين دروس الفقهاء والاحبار " [٣]




وكان واضحا فىمنهجـه العقلـى ، ألا يسلم بقضايـا تعـرض عليـه ، أو يعرض لها ، ولكنه كان يتابعها ، يجمع بينهـا ويـوازن ويقـارب ويحتكـم ، وما النقد والموازنة الا من أضخم العمليات التى عرفتها الانسانيه ، كما أن النقد والموازنة ما هما الا عملية الفكر الثاقب ، والعقـل النـاضج والوجـدان المرهف المهذب . ولا شك أن عيسى عليه السلام ، قد تحلـى بكـل هـذا ، ولكـن خصومـه عملوا على أغفال هذه وتلك ، بغية النيل منه ، وكأنـى أهتـف بمـا جال فى خاطر " قعنب بن ضمره .

---

(١) الاستاذ/ عباس محمود العقاد . حياة المسيح صـ ١٥٩
(٢) الاستاذ / شارلى جنيبر . المسيحية نشاتها وتطورها صـ ٣٧
(٣) الاستاذ / عباس محمود القاد . حياة المسيح صـ ١٨١ ، ١٨٢ .

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا   عَلَيّ وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذُكِرتُ بــه   وان ذُكِـرتُ بشر عندهم أذنــوا
جهلا علينا وجبنا عن عدوهـــم   لبئست الخلتان الجهــل والجبن(١)

ولعلنا نلحظ أن للطفل عيسى عليه السلام - سابق عهد بالتربية الدينية ، اذ قد نشأ فى أحضان أم طاهرة ، فضم الفتى الى طهارة الوعاء نقاء السريرة ، وسلامة الضمير وعفة الوجدان ، خبر ذاته فقدر لها قدرها ، وعكف على طويته ، فراح يستلهم الحوادث مكامنها ، ويستثير أفكاره فى مطامنها ، يقرأ الغيب على صفحات التأمل ، فاذا ما عَنّ له خاطرهَمّ الى جوانحه ، وقد كانت سبلا ميسرة لريادة العقلى وسياحته الوجدانية ، وكأن الله تعالى خاطب الوليد من يوم البراءة ، ووجهه الى الكون ، وهداه الى التأمل فيه ، فقرأ سطور الغيب ، وطالع عن كثب ما قد يخفيه الغد المأمول .

كل هذا وذاك مكن لعيسى فى قدرته العقلية وقد " كانت تبدو على المسيح منذ طفولته وصباه مخايل الصفاء العقلىوالشفافية " (٢) وأنه قد امتاز بذكاء وعمق ، فلم يكن يهتم بمظاهر الأشياء ، بل كان يغوص فى أعماقها ، وكان يسمع المدرسين والحكماء ، فلايسلم بما يقولون به ، بل يناقشهم كلما رأى فى كلامهم غموضا أو إلغازا مما تعود سواه أن يتقبلها دون تفسير أو نقاش ، وقد ألم بالتوراة ، ونال من العلم قسطا كبيرا " (٣) .

شب الفتى ، وصار يافعا ، أعد نفسه لغده ، فاتسعت مداركه ، وخبر القوم فازدادت معرفته بهم وبكل ما يحيطهم ، تلمس أحاسيس القوم

---

(١) الدكتور / زكى مبارك- الأخلاق عند الغزالى صـ ٧٢ مطبعة الشعب بمصر سنة ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١م.
(٢) الدكتور / رفقى زاهر -قصة الأديان صـ ١٤١ (٣) الدكتور / أحمد شلبى - المسيحية

وانطوى على مواطن الضعف عندهم ، فرسم كل شئ عنها فى ملامح قريبة منه ، ومن هنا كانت رحلته العلمية مشيعة منهم بالنظرات المعادية وقد كانت تلك الواحة العقلية له ، هى مرفأ الأمان ، يأوى اليها كلما عرض له عارض ، وظلت تزداد تلك المعارف ، حتى كانت سن الثلاثين فصار له فيها الوحى ، وأمره المولى عز وجل بالتبليغ .

ثالثا : ملامح حياته الوجدانية :

" كانت حياة يسوع – عيسى عليه السلام – حياة طاعة وصلاة وشغل ، وكان كلما تقدم فى السن تظهر فيه أكثر فأكثر الحكمة والقداسة " [١] فانفتح وجدانه على أمه [٢] وصارت له الملاذ ، ويخال الى أن الصبى يوم البراءة وعى كل ماحدث ، وأنه أحس بشعور فياض يغمره بالحب لأمه والولاء لما جاء من أجله ، وكانت عيناه تخاطبان ألبابا أمتلأت صدور أصحابها بالحنق على مريم وعلى وليدها ، وكادوا يفتكون بهما معا فى لحظة من الهياج العاطفى والعقل الجمعى الذى يسانده الحكم العشوائى ، ولكن الله تعالى سلم وانطق الوليد فى المهد مبرءا نفسه وأمه مما نسب اليهما .

ومن هنا فانه ما من شك فى أن قوى النفس ، تصارعت داخل عيسى وأنها دفعت به الى الخير مرة ، ومغالبة الشر مرات ومادام القرآن الكريم لم يذكر لنا شيئا من ذلك ولا السنة المطهرة ، فما بقى الا أن نجرى الأمور على طبائعها فى كل الأحوال ، وأنه أحب أمه فملأت الفراغ عنده وأرشدته الى بيت محبوبته فعرف طريقه اليها ، وكانت تلك المحبوبة هى

---

(١) مختصر كتاب التعليم المسيحى للطلبة صـ ١٣ طبعة بيروت سنة ١٩٦٠

(٢) الوجدانيات : ما يكون مدركه بالحواس الباطنة باب الواو التعريفات للجرجانى



الدراسة التأملية ، ومطالعة كتب الأنبياء " (١) فأفرغ كل مـا لديـه عنـد أمـه وراحت هـى أيضـا تمـلأ ذلـك الفـؤاد بـالحب للخـالق ، والوفـاء للنـاس والاستمرار فى قصة التأمل مع قدوم الليل ومطلع النهار .

شاهد عيسى قومه غارفين فى المادية ، فراح يتأملها فوجدها لاتغنـى رغائبه ، فقتال الناس حوله أقلقه ، واختلافهم عندها أفزعه ، فرمقها دون أن يتلفت اليها ، وهجرها وزادت بينهما الشقة فامتلأ وجدانه بالغضب عليها ، وراحت تداعبه من بعيد فلم يعبأ بها ، وتقدمت منه فلم يلتفت اليها وركعت تحت أقدامه فلم يعرها انتباهه ، ويبدو أن وجدانه قد بلغ به الرفض لها كل مبلغ ، وصمم على التخلص من تلك المادية التى ابتلعت قومه ولم تكتف بهم ، وها هى ذا تريد منهم وعقبهم المزيد .

وهكذا كانت حياته الوجدانية ، موزعة بين الأمل فى اصلاح قومه والرجاء فى أن يبر بأمه والخوف من أن يقصر فى شئ من ذلك ، أو يتوقف عن المسير فيه ، فوجدانه انشغل بالتأمل فى صنع المليك ، وكانت أجمل لحظاته حين يفقه من أمر الكون شيئا ، أو يقف له على سر ، هكذا كانت حياته الوجدانية ، حبا لله ، واحتفاء بأمه وامنيات الخير لكل الناس .

وظل الحال على ذلك ، حتى منحه الله النبوة ، وجعله رسولا لبنى اسرائيل وقد شغف بالعمل والاجتهاد بصالحه ، حتى يزداد قربا من الكبير المتعال الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم تكن له زوجة ولاولد .

---

(١) انجيل برنابا ٩ / ١٠ - ١٤

رابعا : ماذا كان يعمل قبل البعثة ؟

لايجد الباحث نصا من قرآن كريم ، أو سند من صحيح السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما يجهده البحث فى الأناجيل الكنسية وغيرها لعله يجد سندا منها- يمكن أن يرسم الملامح الكاملة عن حياة المسيح ، خاصة فى ميدان الاكتساب والعمل ، وطلب الرزق والاستزادة منه ، ومادام الأمر بعيدا عن دائرة النص ، فما بقى الا الفرض والاعتماد على ما يمكن الاطمئنان اليه من جانب الباحث والمطالع لتلك الومضات التى نحن بصدد مواصلتها .

ولذا نجد عدة اتجاهات قائمة على الفرض والتخمين ، بعضها أدلته ضعيفة ، وآخر ليس له من حجم كيفى أو ثقل ، ولذا سنذكر بعضها ونعقب عليها بأدلتنا .

الرأى الاول :

يؤكد أن عيسى عليه السلام " أمضى الثلاثين سنة الأولى من حياته فى حانوت التجارة " (١) ومعنى هذا ، أن عيسى عليه السلام ، منذ أنفصل عن أمه – وليدا – ألحق بحانوت كصبى يؤدى فيه مهنة يتكسب بها ويعيش عليها ولكن هذا غير واضح الدلالة للأسباب التالية :

أ- لم يقل لنا الرأى الأول متى ألحق عيسى بالحانوت ، وقد اعترف برحلاته وتنقلاته ، التى استمرت بعض الوقت فهل كان يحصل عيسى أثناء تلك الرحلات والتنقلات على اجازة عمل من صاحب الحانوت الذى

---

(١) الدكتور / احمد شلبى – المسيحية صـ ٨٢

كان يعمل به ؟ أم أنه كان يستطيع الفرار والافلات فيفصل من عمله بالحانوت ، ثم يرجع اليه عن طريق أهل الخير والفضل ؟ أو بالقضاء الادارى ؟ !!

ب- فى أى مكان يقع هذا الحانوت الذى يرى صاحب الرأى الأول أن عيسى عليه السلام كان يعمل به ؟

ج- ان العمل فى الحانوت يتطلب جهدا لا يمكن صاحبه من أن يخلو لنفسه بعض الوقت ولا يخلد لبعض الراحة ، ومن كان هذا شأنه ، هل يتمكن من مطالعة كتب الأولين ، ومناقشة الأحبار والكهان ، خاصة وشأنه الاستمرار فى حانوت التجارة .

د- ما نوع التجارة التى كان يعمل بها عيسى فى ذلك الحانوت ؟ ولنترك صاحب الرأى الأول مع موقفه من عمل عيسى فى حانوت التجارة مادام رأيه كذلك .

الرأى الثانى :

وقف أمير الشعراء يفاخر ببيانه ، وبديع فنه ، فهتف داخله معبرا عن حبه لرسول الاسلام ، سيدنا محمدا ﷺ فقال :

مدحت المالكين فزدت قدرا   وحين مدحتك اجتزت السحابا

ويبدو أن أمير الشعراء ، شعر بمكانه بعد السحاب ، وأنه استرق سمع الزمان فهتف من أعماق فؤاده :

موسى الكليم استؤجر استئجارا   وكان عيسى فى الصبى نجارا

من أحسن الأمثال فيما أحسب   الخبز لايعطى ولكن يكسب [١]

---

(١) الاستاذ / سعيد العريان ، حسن علوان-التربية الدينية جـ٤ صـ١٠٩ سنة ١٩٦١م/١٣٨١هـ من " صفات الأنبياء " .

ومعنى هذا عند أمير الشعراء ، أن عيسى عليه السلام ، عمل فى مهنة النجارة لاالتجارة ، كما ذكر الدكتور / شلبى آنفا ، وركز أمير الشعراء على أن هذا العمل الذى مارسه عيسى كان فى فترة الصبى ، ولكن ماذا كان منه فى شرخ الشباب ، وهل استمر عيسى يواصل العمل فى تلك المهنة حتى جاءه جبريل بالبلاغ ؟ أم أنه أنقطع عنها فى فترة الشباب وقبل بلوغه سن الثلاثين ؟!

ونحن لانجد جوابا لدى أمير الشعراء ، ولانجد الا أن نتساءل عليه ، فى أى مكان كان يعمل عيسى عليه السلام ؟ وعند من ؟ وهل فى محل خاص به ؟ أم كان له فيه شركاء ؟ وأى نوع من النجارة كان يمارس؟ ومتى بدأ عمله فى فترة الصبا ؟ .

الرأى الثالث :

يؤكد أن عيسى عليه السلام " عاش فى فقر ، ونشئ فى إبهام ولم يسافر بعيدا ، ولم يعبر حدود البلاد التى ولد فيها ، الا كطفل طريد " (١) ومعنى هذا أن عيسى عاش فاقد الحيلة ، بلا عمل يسند اليه وكأنه فقد كل ملكاته التى تعينه على أن يبذل مجهودا فى عمل شريف يدر عليه دخلا يتكسبه ويعيش به ، وأن عيسى لم يكن الا نكرة لايشعر به أحد وهذا ما لانقبله على الاطلاق ، بالنسبة لواحد من أنبياء الله تعالى وكون عيسى عاش فى فقر ، لم يقم عليه دليل ، واذا افترض جدلا ، فربما فقره كان بالنسبة لمن هم أكثر منه ، والفقر والثراء أمران نسبيان يتراوح فيهما أمر الناس ، بين اليسر والعسر ، واذا قيل بفقره فليس الفقر عيبا يدعو الناس الى تناسى شخص كالمسيح عليه السلام .

(١) جوشى مكدويل - برهان يتطلب قرار صـ ١٥٨ ترجمة القس منيس عبدالنور دار الثقافة المسيحية بالقاهرة ١٩٧٧م

الرأى الرابع :

الرابطة الكاثوليكية :

يميل أصحاب تلك الرابطة الى مايشبه تعطيل عيسى عليه السلام من كل أعماله التى خلقه الله تعالى مزودا بها ، اللهم الا الطاعة والصلاة والشغل الذى لامدلول له فى اصطلاح الكنيسة الا زيادة موعظة (خدمة زيادة) فقد " كانت حياة يسوع – المسيح – فى الناصرة ، الى أن بلغ الثلاثين تقريبا من عمره ، حياة طاعة ، وصلاة وشغل ، وكان كلما تقدم فى السن تظهر أكثر فأكثر الحكمة والقداسة ، ولما بلغ يسوع الثلاثين انفرد الى البرية . (١)

ونحن نميل الى أن عيسى لم يكن ليرضى لنفسه أن يعيش هكذا عالة على غيره ، يقطع العمر فى لهفة ، الى أن يأتيه بعيشه غيره ، وما كانت تتوق نفسه لمثل هذا التعطيل ، ولاكانت جوانحه تستسلم لذلك أصلا فضلا عن أن فيه امتهانا لايرضاه الذى يقبع خلف أسوار الانتظار .

الرأى الخامس :

نقل ابن اياس عن وهب بن منبه قوله : " لما كبر عيسى عليه السلام ، كان سياحا فى الارض لايتخذ دارا ، ولا مسكنا ، ولا زوجة ، ولادابة ، وكان يلبس جبة صوف على لحمه ، ويلبس على رأسه قلنسوة من لباد ، وكان لايأكل الا من غزل أمه ، وكانت تغزل الصوف " (٢) والغريب حقا أن الأفكار الاسرائيلية ، تسللت الى مخادع الفكر الإسلامى ، وراحت تعيش

---

(١) الرابطة الكاثولكية – مختصر كتاب التعليم المسيحى للطلبة صـ١٣ ، طبعة بيروت ١٩٦٠م
(٢) ابن اياس / بدائع الزهور فى وقائع الدهور صـ ١٨٤

فى رحاب بعض أهل ذلك الدين ، ثم نمت فى عقول البعض منهم ، وأخرجوها للناس الذين يثقون فيهم ، كأنها تعاليم دينهم الحنيف ، وهو فى الواقع منها براء .

فالذى حكاه ابن اياس ، يؤكد على أمور منها أنه :

أ- تجاهل شخصية عيسى عليه السلام ، وتناسى ما قام به من عمل حتى صار كبيرا دون تحديد لمفهوم الكبر عنده ، فى أى سن ، وهذا يدل على أن الناقل كان واسع الثوب فضفاضه .

ب- أن عيسى عليه السلام ، عاش كالبله الذين لايهتمون بحال ما ، أو شأن للدنيا ، التى أناط الله العمل فيها ، بالجزاء فى الأخرة .

ج- تصور أن عيسى فقد خواصه التى منحه الله إياها ، وتلف منه ميزان تحكمه ، فصار لايدرى ماذا يفعل ، ولايدرك ما الذى يريد ، ونحن نرفض ذلك كله بشدة ، لأنه يتنافى مع المروؤة والعفة فضلا عن العصمة التى جعلها للأنبياء .

د- خيل - ابن اياس - للقارئ أن عيسى عاش متقمصا شخصية غيره فتزى بالصوف على لحمه ، وكان غطاء رأسه قلنسوة من لباد ، ولعل هذا ماشده ابن اياس على بعض رجال الدين المسيحى ، مع تغير طفيف ، فتخيل عيسى على ذلك النحو ، وعندى أنه فاته الكثير ولو تأمل وروجع لكان له رأى آخر .

هـ- أفرط ابن اياس فى نقله عن وهب بن منبه ، ولم ينبه اليه كقول وهب عن عيسى عليه السلام "وكان لاياكل الا من غزل أمه ، وكانت أمه تغزل الصوف" ولست ادرى بأى حال يرضى عيسى لنفسه أن يكون عالة على غيره ، مع أنه نفس أبية ، وصاحب همة عالية ، ويكفيه أنه نبى

فهل يرضى لنفسه أن يأكل من كد أمه ، وقد صار يمكنه الاعتماد على نفسه ، بل ويقوى على أن يكفيها مؤنتها ، ويكفل لها خالص مطلبها ؟ ويحفظ عليها ماء وجهها ، ويرد عنها عوادى الزمان ، وهو واجبه لامحالة ، ولن نجد الى غيره سبيلا .

أميل الى رفض ما ذكره ابن اياس – بهذا الخصوص – لأنه مطعن فى النبوة ، ولا يتناسب مع مكانة من تعدهم العناية الالهية للقيام بدور الرسالة بين الله تعالى ، وخلقه ، فهو دور أعز وأغلى .

رأى أميل اليه :

أستعرضنا أقوالا ، واستفينا ألبابا ، ثم جاء الوقت لندلى بما نراه حول هذه النقطة ، وندفع للقارئ قضيتنا مدعومة بأدلتها ، متكئة على أسانيدها ، غير مدفوعة من قبل خصومها ، اذ كل دفوعهم وضعت فى الحسبان ، ولذا فاننا نقرر ما يلى :

أولا : أن عيسى عليه السلام ، نشأ فى بيت كريم ، عرف أهله الفضيلة وأندفعوا اليها ، كما سمعوا عن الرزيلة وهربوا منها ، لانه نفحة من الله ، ونفخة من روحه ، وأمر اراده الله . وجعل أمه من أهل التقوى والصلاح ، وربيبة بيت النبوة ولا شك أن القاء المرء أحلامه فى الحياة بين يدى غيره لهو أقل شئون عدم احترامه لذاته ، فما بالك اذا كان الفاعل ذلك النبى عيسى عليه السلام ؟ فهل يرضى لنفسه أن يمارس دورا غير الفضيلة ؟ !! ولاشك أن من الفضيلة قيام الانسان على شئون نفسه خاصة اذا كان قادرا على أن يعول نفسه وأسرة يرجو اقامتها ، فما ظنك بالنبى عيسى عليه السلام ؟ !! أعتقد انك ستلوح معى بانه النبى الكريم ولايرضى لنفسه بغير العمل بديلا ، وعيسى عليه السلام كذلك .

ثانيا : أن عيسى عليه السلام عمل ، وكان عمله يعود عليه بالخير والبركات حتى شمل بالفضل كل من يحبهم عيسى عليه السلام ، واختلاف الرواة فى نوع الحرفة التى قام عليها ، يؤكد قاعدة مشتركة هى وجوده فى نوع من العمل مهما قيل فى الاختلاف حول نوعه .

ثالثا : أن عيسى عليه السلام كلف نفسه بعمل ما ، حتى يساهم فى نفقات الأم تلك التى تقطن فيه من داخله ، ولكن محاولته هذه ، (وان لم يكن مقدرا لها أن تنجح ، ليكون صاحب مال كثير) فانها كفته مذلة السؤال ، ومن يعول واذا كان المعارض يجد ما يدفع به لَفَعل ، ولأظهره من زمن طويل .

رابعا : أنه تعلم كيف يكسب قوته ، وما يحفظ **حياته** ، ويصون ماء وجهه عن مذلة السؤال كالشأن مع اخوانه من الأنبياء والمرسلين .

خامسا : أن تحديد نوع العمل الذى مارسه عيسى عليه السلام (قبل النبوة) لم يقم دليل عليه من كتاب أو سنة ، أوصادق أناجيل ، اذن فما بقى الا الفرض ، والفرض وحده ، ومادمنا قد ارجعنا الأمور الى جعبة الفرض فانه لابد من القول بأن عيسى تقلب فى بعض الأعمال والحرف التى تتناسب معه ، ولا مانع من أن يكون قد حظى ببعض الوظائف التى كانت سائدة فى عصره ، حتى تهيأت ذاته لاشراقات النبوة ، وجلب منها بعض ما يؤدى اليه مهمة حفظه والقيام عليه وكذا الشأن من أنبياء الله ومرسليه .

سادسا : أن عيسى من أول أمره ، حمل راية الكفاح فى سبيل وجوده ، وظل مناضلا فى سبيل البقاء على أمه ، كارها كل محاولة اذلال من شأنها أن تنال منه ، مراقبا كل مناحى التأمل فى الكون حتى صارت

أيديهم على وشك الاشارة اليه ، بأنه المسيح المنتظر لبنى اسرائيل وخرافهم الضالة .

وان كانوا بعد اعلان النبوة قد أنكروه وحاربوه ، بل وحاولوا الاعتداء عليه ، والدفع به الى ساحات الظالمين ، ليقاد منه بذنب لم يرتكبه ، واثم لم يفعله ، لولا أن الله نجاه من أيديهم ، وما يزالون حتى الأن - يحلمون به فى موقف لايتفق مع دعوته اليهم وقد رسمت اناجيلهم هذا الموقف المؤلم وانتظرت النهاية التعسة ، التى صنعها لهم خيالهم مع أن الله نجاه منهم .

خامسا : رحلاته ومن كان يصاحبه فيها ؟

يتوقف الباحث طويلا ، الا أن عقارب الزمان لاتتوقف ، وسجلات الحياة للحقائق لاتؤمن بالتوقف ، ويبدو سؤال مؤداه ، أين هو الشاب الذى لم يرحل ؟ ولم يعرف ميدان الرحلات ؟ ان كل شاب لاتخلو خواطره من فكرة الترحال ، أَوْ مسّه مرض الترحال ، طالت مدته أم قصرت بعدت أو قربت ، وليس الشباب وحدهم ، ولا بنى البشر فقط .

وميدان الرحلات استهوى كل الكائنات الحية على ظهر البسيطة ، وتحت أى نوع من أنواع السفر ، وأى صورة من صور الحل والترحال ، وكذا الشأن مع عيسى عليه السلام ، لابد أنه كما حل ارتحل ، وكما استقر تنقل ، وكما تردد الشهيق والزفير فى صدره ، كلاهما توقف ولو لحين .

الا أن البعض أدخلوا عنصر " الدراما " فى بعض أطوار حياته ، آملين أن يشبعوا الناس بغزوات مفاجئة ، قانعين بأن السعادة لاتتم الا فى ظل رجل تحتمى فى أحضانه أم وطفلها ، وذلك الرجل عندهم ، هو يوسف الذى يدعون أنه خطب مريم أم عيسى عليه السلام ، قبل أن تحمل به، وأنه

تزوجها بعد ذلك . أولم يتزوجها حتى جعلت الاناجيل لعيسى أخوة منه ولسنا ندرى كيف تخيلوا ذلك ، بل كيف قبلوا هذا التصور العجول ، مع أنها العذراء البتول ؟

وكما هو الشأن نقارن بين الأديان ونقابل ، ونرجح بينها ، متى كان الترجيح بادلة ، ونميل معه عندما يدعونا الميزان وسنقسم الأقوال باعتبار واحد .

أ- القائلون بزواج يوسف من مريم :

أصحاب هذا الاتجاه ، يرون أن المسيح قام بعدة رحلات ، وكان يصحبه فى بعضها زوج أمه يوسف وأنه هجر مرتع أمه بعد ولادته ، حيث ولد فى مزود للرعاة كما هو حديث الأناجيل ، ومهجر بعيد ، كما يقول متابعو الأناجيل فى رحلاتها ، ويمكن اعتبارها الرحلة الأولى ، وقد صحبه وأمه يوسف وتنقل بهما (١) ، غير أن هناك رحلة ثانية كما يقررها أصحاب هذا الاتجاه ، حين هرب عيسى وأمه ويوسف ، الى أرض مصر فرارا من بطش الملك الظالم ، وطغيان الحاكم المستبد ، وكان عمر عيسى عليه السلام آنئذ أربع سنوات وقد عادوا منها بعد موت هيرودس وبلوغ عيسى سبع سنوات من عمره " (٢) . وأصحاب هذا الاتجاه ربطوا بين رحلات عيسى وأمه ، وزواج يوسف بها ، وهذا ما سنعنى به بعد قليل .

---

(١) راجع هذا الكتاب أثناء الحديث عن الحمل به فى الأناجيل .

(٢) برنابا ٩/٣-٦ " وقد وصل عيسى الى اليهودية ثم تركهاالى الجليل ، ومنها الى الناصرة "

ب- الرافضون زواج مريم بيوسف :

وقد دفعهم الى هذا الرفض ، شدة حساسيتهم الدينية ، وتمسكهم بنصوص وقعت فى أيديهم - ربما لم تقع عيون غيرهم عليها - يرون أنها لصالح ينشدونه ، والقاعدة تقرر " أن من عنده دليل حجة على من ليس عنده " بجانب أن الغيرة الدينية جذبتهم اليها ، والطهر والعفاف سيطرا عليهم ، فرفضوا علاقة يوسف بمريم بدءا ، ثم أنكروها رحلات أو زواجا وبالتالى لم يرتضوا لأنفسهم أن يرددوا قول غيرهم ، بأن رحلات عيسى قرنت بزوج أمه يوسف ، وقاطعوا بحدة هذا الاتجاه .

ولم ينكروا رحلات عيسى ، ولكن أنكروا شرط الرحلة بزواج مريم من يوسف ، وانتهوا الى أنه لامانع من ممارسة عيسى عليه السلام ، هواية الرحلات وحده ، أو مع أصدقاء له ، يسايرونه الغرض ويشاركونه الاتجاه ويمضون معا بعض الوقت ، وأمه صديقة له ، يمكنها أن تساهم معه فى تنمية هذا المسلك وأن تشاركه فقط ، وهذا ما يتناسب مع كونها صديقة ومن بيت صالح ، وأم لنبى من أنبياء الله ، وذا ما سنلفت النظر اليه أيضا

لكن تبقى نقطة ، هى أننا لانحمل مصباحا سحريا يكشف لنا عن غيب الماضى ، انما سنعمل على الاهتداء بصحيح نقل ، وصريح عقل أوهما معا ، أما غير ذلك فلا ، وهاك تفصيل ما أجملنا .

أ- القائلون بزواج يوسف من مريم ابنت عمران أم المسيح عيسى عليه السلام .

هم كثرة فى العدد ، متباينة الاتجاه ، متباعدة المقصد ، جمعهم فقط أول الطريق ، ثم اختلفوا دون التقدم فيه خطوة ، ونحن سنأخذ بهم من أول الطريق ، الذى تجمعوا عنده ، ونقسمهم الى مجموعات :

المجموعة الأولى : الأناجيل الكنسية الأربعة المعتمدة (١)

١- انجيل متى :

تحدث أنجيل " متى " عن مولد المسيح وخطبة أمه ليوسف ، وأن يوسف رجلها ، كان بارا بها ، ثم تحدث عن رؤيا يوسف زوج مريم – عندهم – ثم ظهور ملاك الرب ليوسف مرة آخرى فى الحلم ، حيث قال له " قم وخذ الصبى –يسوع– وأمه واهرب الى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ... فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف الى مصر .(٢)

ومكث يوسف وزوجه وابنها فى مصر حتى مات " هيرودس " وبعد موته ظهر ملاك الرب ليوسف مرة ثالثة وقال له " قم وخذ الصبى وامه وأذهب الى أرض اسرائيل ... فقام وأخذ الصبى وأمه وجاء الى أرض اسرائيل " (٣) ويبدو أن الحلم أخطأه التوفيق هذه المرة ، اذ أن يوسف سمع بخبر وجود أرخيلاوس على عرش اليهودية ، بدل أبيه ، وعندها خاف – يوسف– أن يكون أرخيلاوس مثل أبيه –هيرودس – يطلب المسيح فيقتله . وتردد يوسف فى الأمر ، وخاف أن يذهب الى هناك ، فيأتيه الوحى فى الحلم مرة رابعة ، يطلب اليه –يوسف– أن يغير المكان الذى انتواه فى الحلم السابق ، وأن ينصرف " الى نواحى الجليل " وفعلا استجاب يوسف للحلم الأخير ، فأتى " وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة " (٤) .

---

(١) لفظ المتمدة ، ويقصد به ما اعتمدته أشهر المجامع والموتمرات المسكونية ويكون اعتمادها عند من ارتضاها منهم واعتمدها ، أما من لم يعتمدها ولم يرتضيها فلا تكون معتمدة عنده ، وعندى أنها ليست معتمدة فى شرعنا ، أما كونها معتمدة عند القائلين بها فذلك أمر راجع اليهم مما لامجال له الآن .

(٢) متى ١/ ١٨ -٢٤ ، ١٨/٢

(٣) متى - راجع الاصحاح الثانى من ١٩-٢٣

(٤) متى راجع الاصحاح الثانى من ١٩-٢٣

وعلى هذا عاش يسوع -عيسى- فى الجليل فترة شبابه ، حتى جاء يوحنا ليعمد الناس ، ويكرز فيهم ويخوفهم من اقتراب ملكوت الله وسمع يسوع بذلك ، فقرر الترحال مرة آخرى " وجاء يسوع من الجليل الى الأردن الى يوحنا ليعتمد منه " (١) وكان ذلك الترحال نهاية فترة ماضية من حياة يسوع ، وبداية لحياة جديدة هى التكليف بالرسالة .

وراح يسوع ينفصل عن أبويه - عندهم ليجرب من الشيطان وليصوم أربعين يوما وليلة ، وليقول " ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله " (٢) ، هكذا حكى أنجيل متى ، وقد روينا لتكون شهادته له أو عليه ، وهويؤكد على أن زواج يوسف بمريم قد تم فعلا ، بل وكانت له ثماره ، تلك الثمار هم اخوة عيسى " (٣) .

٢ - انجيل مرقس :

يبدو أنه لم يهتم برحلات المسيح على الاطلاق ، ولاتكلم عن زوج أمه ، كل ما يملكه هنا أنه ذكر رحلة واحدة ليسوع -عيسى- وقد " جاء يسوع من ناصرة الجليل ، واعتمد من يوحنا فى الأردن " (٤) وبعدها بدأت رحلته مع النبوة ، غير أنه لم يبعد نفسه عن قول متى ، بل يؤكد فى جملة قصيرة ما تردد عند متى قوله وكان لعيسى اخوة من الأم ، وكان أبوهم يوسف هذا " (٥) . ولست أدرى لماذا يجعلون لها زوجا ، ولعيسى أخوة منها بالرغم من أنها عندهم العذراء البتول التى لم تعرف رجلا على الاطلاق ، ولم يشأ لها الله تعالى أن تتجب غير -عيسى عليه السلام ومن غير أب أصلا .

---

(١) متى ٣/١-١٤
(٢) متى ٤/١-٤
(٣) متى ١٢/٤٦-٤٩
(٤) مرقس ١/٩-١٠
(٥) مرقس ٣/٣١-٣٤

٣- انجيل لوقا :

حكى عن طفولة يسوع ، كما تحدث عن خطبة أمه ليوسف وأفاض ، وتناول الرحلة الأولى ليسوع وأمه وزوجها حين كان جنينا فى رحمها ثم وضعته فى المزود غريبا عن قومه " اذ لم يكن لهما موضع فى المنزل"(١) ثم ذكر أن عيسى بدأ رحلاته وهو ما يزال طفلا على كتف أمه ، وبصحبة زوجها ، وكانت رحلته تلك الى أورشليم بعد أن طهرت أمه ليقدم للرب .

ثم تكررت رحلاته كل سنة مع والديه الى أورشليم ، وكان ذلك يتم عادة فى عيد الفصح من كل عام ، بمعنى أنها رحلة سنوية ، حتى اذا بلغ عيسى أثنتا عشر سنة ، حدث أن رجعت الأسرة -يوسف وزوجه- وحدهما حيث أن الصبى -عيسى - قرر المغامرة وتخلف عنهما ، ولما افتقداه بحثا عنه فوجداه فى الهيكل فاصطحباه الى الناصرة "(٢).

وشأن لوقا أنه تابع رحلات المسيح ، حتى كان يوحنا ورحل عيسى اليه ، ليعتمد منه ، ومن هنا وقف يسوع يصلى ثم استعد لتحمل أعباء الرسالة ، وكان سنه آنذاك نحوا من ثلاثين سنة وعندها ابتدأ عودته من الأردن ليكون على مقربة من قومه ، وليجرب من ابليس (٣) .

وهكذا تمسك لوقا بأن رحلات عيسى كانت داخلية ، ولم يهاجر الى مصر قط ، بل انه تابع سنى حياته ، وجعل لعيسى رحلة سنوية الى أورشليم ، لم يتخلف عنها قط ، وكانت أمه وزوجها يمضيانها معه ولسنا بالمعلقين عليه هنا ، حتى نكمل المسيرة ويكون القول عاما ، متى كان ذلك ممكنا .

---

(١) لوقا ٢/١-٧

(٢) لوقا ٢/٢٣-٥٢

(٣) لوقا ٢٣/٢١-٢٢ ، ٤/١

٤- انجيل يوحنا :

جاء دور يوحنا ، وقد عرف شدة لهفتنا فأراد أن يراوغ ، وأن يطاول فى استهلاك الوقت حتى ابتلع طفولة عيسى كاملة ، كأنها لم تكن ، ثم أخرج من فيه عصارة ما ابتلع فجاءت رحلة عيسى الأخيرة عندما ذهب ليعتمد على يد يوحنا بن زكريا ، ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من حياته .

بيد أن يوحنا يقدم لنا شهادة ميلاد يسوع محددا فيها اسم الأب ، فيذكره وعنوانه ومحل اقامته لتكون موثقة ، فيؤكد على معرفته بيسوع " وأنه ابن يوسف الذى من الناصرة " (١) ويذكر كذلك أن مريم أم المسيح أنجبت من يوسف هذا وصار ليسوع - عيسى -اخوة يرحلون معه وينصرونه خاصة عندما أراد يسوع أن يترك الجليل " وبعد هذا انحدر الى كفر ناحوم هو - عيسى- وامه واخوته " (٢) .

ذلك الذى مضى ذكره ، هو موقف الاناجيل الكنسية ، من قضية هامة وخطيرة وقد عرضناها كما رويت فى نصوصهم ، ونود أن نورد بعض النقاط التى لامناص من عرضها هنا على النحو التالى :

أولا : اختلف الانجيلان - متى ولوقا- القائلان برحلات عيسى مع يوسف ومريم ، فعلى حين أكد متى أن يوسف ومريم وعيسى هربوا الى مصر خوفا من هيرودس ، ثم عادوا اليها ، نجد لوقا يؤكد أنهم لم يتركوا اليهودية على الاطلاق ، بل انهم **كانوا** فى زيارة سنوية دائمة لأورشليم ولم يتخلفوا عنها قط ، فأيهما على صواب ، متى أم لوقا ؟ وايهما نصدق ؟ والحادثة عرضت ولامفر من تناولها .

---

(١) يوحنا ١/٤٥ ، ٧/٣-٢٠
(٢) يوحنا ٢/١٠-١٢

ثانيا : سكت مرقس عن يوسف ولم يذكره أبدا ، فدل على أن شيئا ما في الصدر تردد عنده ، ولم يستقر الرأى عليه ، فصمت ولم يتكلم وهو يضعف بذلك رأى قرنائه فى المسيحية المعتمدة الذين أكدوا على زواج يوسف لمريم و ترحاله بها وولدها .

ثالثا : تعرض يوحنا وحده لذكر تحركات خاصة لعيسى وأمه واخواته دون يوسف ، بل ان الأناجيل الثلاثة -لوقا ومرقس ويوحنا- لم تذكر واقعة الهرب الى مصر ، ولا العودة منها ، وكذلك مرقس ويوحنا لم يذكرا يوسف - الذى يدعى أنه تزوج مريم- أبدا ، اذن فالشك قائم فى وجوده وغير مستقر القول به ، وعلاقته بمريم لاينهض عليها دليل واحد يمكن قبوله .

المجموعة الثانية : اتجاهات آخرى :

١- غلام أحمد القاديانى : [١]

شغفه الهوى ، وراودته الأثرة ، فكتب كتابه - التعليم ، ثم - سير الأبدال ، وطعن فيهما على الأفاضل ، ومما جاء فى كتابه - التعليم " أن مريم تزوجت بيوسف النجار بعد حملها بالمسيح " [٢] ورغم أنه عميل للفكر - غير الاسلامى - وهو قاديانى- فان التاريخ قال فيه قولا ، ولا أحسب أننى فى حاجة الى الحديث عنه الآن .[٣]

فما أشبهه بسارق تفلت على قوم طابعهم اليقظة ، يحرسون ابلا فى الصحراء ، البدر ينير لهم وأبصارهم حادة ، وصحراء عاشوا عليها تحن لهم فقام السارق - بعد ضيافتهم له - وانسل من بينهم ، أكرموه وزودوه ،

---

(١) راجع القاديانية فى المؤلفات التى كتبها القاديون ، وأيضا الامام الاكبر الشيخ/محمد الخضر حسين -القاديانية ود.حسن عيسى عبدالظاهر-القاديانية .

(٢) الدكتور/عبدالمتعال الصعيدى- المجددون فى الاسلام صـ٥٥٣

(٣) راجع رسالتنا للماجستير- عقيدتنا رفع عيسى ونزوله بين الاسلام والنصرانية

الا أن الجشع غلب عليه ، ولعبت نفسه اللئيمة به ، فوقف بعيدا عن حماهم وسولت له نفسه سرقتهم فتسلل اليهم ، وهم ينظرونه ثم بدا لخياله أنه أخذتهم سنة من النوم فمد يده وأمسك بزمام ناقة - كان يطعم لبنها - وراح فى محاولة دؤبة للنيل منها والفرار بها .

بيد أن الناقة تعرف الوفاء لأصحابها ، علا صوتها وثارت ثائرتها ، فانقضت عليه والقت به تحت ابطها ، وراحت تلقنه الدرس الأخير لجزاء الخيانة وظلت به حتى صار جسده قطعة من الأرض الموات فقال اصحابها قاصدين "على نفسها جنت براقش "

٢- الرأى الثانى

أكد أن رحلات عيسى عليه السلام بدأت منذ طفولته الاولى ، وكانت معه أمه مريم ويوسف النجار ، ذلك الرجل الذى صاحب مريم منذ لحظات حملها بالمسيح - عنده - وكذا اثناء محاولتها الهرب بحملها لتضع وليدها وقد استمرت علاقة مريم بيوسف ، حتى كان عيسى طفلا ، وحين تسرب منهما - عيسى - وهو فى طفولته أثناء أحدى الرحلات ، وحين افتقداه بحثا عنه ، فوجداه فى الهيكل " (١) .

وقد رفضنا هذا الاتجاه الذى تبناه الرأى الثانى ، ودفعنا بأسئلة عليه ، أبانت عن مكانته من الفكر الاسلامى ، وكان ذلك أثناء عرضنا لقضية مولده عليه السلام ، من هذا البحث فليرجع اليه من شاء .

---

(١) الدكتور ، احمد شلبى - المسيحية ص ٣٨ راجعها وما بعدها

٣- الرأى الثالث

جوش ماكدويل :

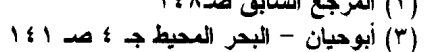
يؤكد أن يسوع كانت له رحلات عدة ، ولكنها فى طفولته ، ولم تكن بالمعنى المعروف ، وأنما كانت بصورة مهينة ، فيسوع " لم يسافر بعيدا ولم يعبر حدود البلاد ، التى ولد فيها الا كطفل طريد " (١) وهذا فى حد ذاته يسقط الرحلة بمفهومها المتعارف عليه ، ولا يقرر ما أذا كان يسوع سافر طريدا ومعه يوسف أم لا ، كل ما هنالك أنه يستشف من فقراته ، أن زوج أمه – الذى تقول الأناجيل به – كان معه ، وأن ذلك كله كان أيام طفولته البيضاء ٠

ولست أدرى كيف يكون سفره كطفل طريد وهو فى نفس الوقت غاية فى العظمة وقمة فى الانتصار " يقول مارتن سكوت Martnscoyt فى كل زاوية كان يسوع انسانا حقيقيا ، واعظم من انسان " (٢) ولعل تلك المحاولة لوضع يسوع موضع الطريد ، انما هى محاولة مقضى عليها ، وماحالها الا كحال صاحب الراح العتيقة ، التى ضرب بها المثل ، حين غضب حكيم على محبى الدنيا ، فهتف :

ألا انما الدنيا كراح عتيقة   أراد مديروها بها جلب الأنس

فلما أداروها أثارت حقودهم   فعاد الذى راموا من الأنس بالعكس (٣)

ولاشك أن قصة زواج يوسف من مريم ، ورحلات عيسى معهما ، قد وضح عدم اتفاق القوم عليها ، ولكن يبدو أن البعض يحب أن يدخلها –



(١) جوش مكدويل –برهان يتطلب قرارا– براهين تاريخية على صحة الايمان المسيحى صـ ١٥٨ ترجمة القس منيس عبدالنور– دار الثقافة المسيحية بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .

(٢) المرجع السابق صـ١٤٨

(٣) أبوحيان – البحر المحيط جـ ٤ صـ ١٤١



دون بحث أو تدليل – فى حياة عيسى ، وما أشبه هؤلاء بفطناء الجامعة (Uininereity.wits) الذين تأثر بهم الأديب الشهير ، وليم شكسبير ، والذين يعرفون بأصحاب المذهب الكلاسيكى فى الأدب ، أولئك الذين ظهرت عندهم فكرة السخرية من هذه الروايات غير المقبولة ، ولم يكونوا قادرين على اعلان تلك السخرية فظهرت فى أثرهم الشهير " مسرحية المعجزات " The miracle.pla" التى عبروا فيها بصدق ، عن رفضهم لتلك الأفكار التى لاسند لها من شرع أو منطق ، ولا تبعد الخطيئة عن ميدان طهارة أصحاب العفاف •

اما الادعاء بأن يوسف رحل مع عيسى منذ طفولته ، وأنه أب لعيسى ، من جهة الشرع Fatherain.Low – كما يقول بعض كتاب المسيحية – فانه مرفوض وغير خاضع الا لقصص الوهم ، ولا يقول به الا من فقدوا القيادة Thelead ويواجهون فى فكرهم الكهنوتى صعوبات أكثر ويحبون العمل تحت الارض – Under Growned والمفروض فيهم أنهم حملة المشاعل Flares ولست أدرى لماذا تخلوا عن واجباتهم نحو أم نبيهم ، وتركوا اليهود يقولون فيها وأبنها ماشاء لهم الهوى • ولو صدق أتباع المسيح فى دعواهم ، لما تركوا اليهود يفعلون بأم نبيهم الذى لم يسلم هو أيضا منهم •

الرأى الرابع :

حكى تاريخ الأقباط ، قصة هرب يوسف ومريم مع عيسى ، وأنها كانت بسبب الخوف على حياة عيسى من هيرودس ، وأن هروبهم كان الى مصر بالوجه القبلى ، بجهة قسقام ، حيث طاب لهم المقام ، وهو المكان الذى يوجد به الآن دير العذراء ، أو دير المحرق ، وعلى هذا يكون



المسيح وأمه ويوسف بدأوا الرحلة من بيت لحم بـأرض فلسطين السليبة ، الى مصر الحبيبة ، وأن الرحلة كانت بعد رؤيـة مناميـه رأى يوسف فيها مارأى ٠

غير أن يوسف والعائلة ، ما ان أوشكوا على الاستقرار بمصر ، حتى جاء الملاك مرة ثانية ليوسف وفى الحلم أيضا ، وأمره أن يعود الـى حيث جاء وكان على يوسف أن يختار الطريق للعودة ، وأن يستريح والأسرة ما دعاه الهدوء الى ذلك ، فاتخذ يوسف المسير شمالا من محافظـة أسيوط - الحاليـة والتـى بهـا ديـر العذراء - حتـى وصـل الـى مصـر القديمـة ، فاستراح بعض الوقت ، وبورك المكان بالعائلة فأقيمت مكانه كنيسة القديس سرجيوس ، والتى تعرف بأسم كنيسة " أبى سرجة " (١) ثم واصلوا الرحلـة الى عين شمس الحالية مرورا بقسم المطرية - الحالى - واضطرت العائلة الى الاستظلال بشـجرة تسمت بأسم الزوجـة فيمـا بعـد ، واشتهرت بأسم شجرة مريم العذراء ، ولاشك أن مكانها معروف الآن ٠

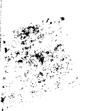
وهنا نسأل تـاريخ الأقبـاط ، كـم هـى المـدة التـى قضاهـا المسيح مـع يوسـف ومريـم فـى تلـك الرحلـة العـامرة بالمفاجـأت ؟ والجـواب ، أن المؤرخيـن يختلفـون حولهـا ، ويمكـن تسميتها رحلـة الغربـة أو الهجـرة ، وجاءت ألوان اختلافهم فى تقدير المدة على النحو التالى :

١- قائل : أنها ستة أشهر ٠

٢- أنها سنة ٠

٣- أنها سنتان ٠

٤- أنها أربع سنوات (٢) ٠



(١) القس : زكى شنودة - تاريخ الأقباط ٤٤،٤٣ راجعهما فما ذكرته كان بتصرف
(٢)القس زكى شنودة - تاريخ الأقباط صـ ٤٣ ، ٤٤ انظرهما وما بعدهما

ولعل القصة أستقاها تاريخ الأقباط من انجيل متى ، ولسنا ندرى لو أن الرحلة وقعت فعلا ، فهل كان من المحتمل أن يكون الوقوع فى الخطأ ممكنا ؟ ذلك عندى غير مقبول الا فى حلم النائمين The dre.meres وأصحاب المسيحية المفروض أن يكونوا من أحرص الناس على مسيحيتهم يقظين لما يضاف عليها وينسب اليها ، وبالتالى فان ماستقى منها قد حيك بعناية فائقة ، وقصد دقيق ، الغرض منه الأساءة لأم عيسى عليه السلام ، ولابنها نبى الله عيسى عليه السلام وبهدف الوقوع فى نبى من أنبياء الله تعالى وهذا مايرفضه المسلمون وأنا منهم وان وجد فى بطون المصادر المسيحية اللهم هل بلغت ، اللهم فاشهد .

تعقيب :

لسنا بحاجة إلى عرض المزيد من تلك الأقوال ، التى تؤكد أن يوسف تزوج مريم ، وأن رحلات عيسى معهما طافت أرجاء اليهودية ، ولم تخرج منها - كما قرر لوقا فى أنجيله - أو أنها وصلت حتى مصر ، وأن تلك الرحلة تركت أثرها على أرض مصر ، بين كنائس وأشجار وطرق تسمت به ، ولكن تبقى لنا كلمة وهى :

١- تضاربت المصادر القائلة بزواج يوسف من مريم ، كما أختلفت فى تصوير رحلاته ، بما لايمكن الجمع بينهما جميعا فى وقت واحد ، مهما بذلت الجهود ، لأن الجمع بين المتناقضين عدوان على العقل بالكلية وتكذيب للنص بالتبعية ، واذا كذب النص ، وأهمل العقل ، فماذا بقى ؟ !! يبقى دين لا أصل له ، ولا عقل يقبله فأين يعيش ؟ .

٢- " وأما أنجيل متى غير المعتمد - عندهم - فقرر أنها لم تكن زوجة ولا مخطوبة ، وأنما كانت من العذارى اللاتى نذرن أنفسهن ونذرهن

أهلهن لخدمة المعبد ، أى كانت من الراهبات اللاتى كن يتوفرن على العبادة وخدمة المعابد ، التى يعتكف فيها ، وهذه الطائفة كان يحرم على أفرادها الزواج والاتصال بالرجال ، كشأن - بعض الراهبات المسيحيات فى الوقت الحاضر ٠ (١) ٠

٣- القول بزواج مريم من يوسف ، بعد حملها بالمسيح ، انما هو قول الأناجيل الكنسية ، وقد بان أن انجيلى - مرقص ، يوحنا - لم يقولا به ، والجميع يدعون أنها مصدر واحد ، فكيف يقبل الجميع ؟ ! ٠

٤- حكاية هذا الزواج انما هى أثر من الآثار التى تركتها الأفكار اليهودية وطبعتها بسمتها المادية ، وقد كانت رسالة عيسى فى أصلها ، مخالفة لكل مادية ، ويكفى أن نقول ان وجود عيسى من طريق غير معتاد ، انما هو الهاب لظهر المادية ، وانماء لملاح الروحية ، والقول بزواج مريم ، يناقض جوهر الدعوة التى من أجلها جاء عيسى عليه السلام ٠

٥- القول بزواجها يدفع للوهم ، ويعطى الفرصة للحاقدين حتى يقولوا ان مريم حملت بعيسى عن طريق غير مشروع ، وأنها وقعت فى الخطيئة وأنهما أرادا - يوسف ومريم - أن يطفئا جمرة حبهما ، فأعلنا الزواج وكان ذلك منهما بمثابة تكفير عن الخطيئة التى وقعا فيها ، سواء ألحقت بهما ، أو لحقا بها ، وهذا مانرفضه أصلا ، وندفعه ومثله عن ساحة العذراء التى طهرها الله رب العالمين ٠

٦- نقلت الأناجيل عن الفكر المادى اليهودى كثيرا من ملامحه ، وقد أباحت وقوع أنبياء الله فى الخطيئة وطورت فى حدثها ، حتى جعلت للزنا أثرا ماديا ، " فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا

(١) الاستاذ الدكتور / على عبدالواحد وافى - الأسفار المقدسة صـ ٩٤

ودعت اسمه موآب ٠٠٠٠ والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه ابن عمى ، وهو أبوبنى عمون الى اليوم "[١] ٠

وماكانت طهرة مريم الا " مما لايستقيم بسفاسف الأخلاق ، وذميم الصفات ، وغير ذلك " [٢] مما يقلل من شأنها ، أويصورها بغير عفة ، وقد ورد فى الأثر ، أن المصطفى ﷺ قال رأيت امرأة تسبقنى الى الجنة ، فقلت لها بماذا سبقتنى ؟ قالت لأن لى أيتاما قعدت عليهم " وتلك امرأة عادية ، رأت أن زواجها من آخر ، ولها أولاد من الأول ، ليس مكرمة لها فقررت أن تظل ذات مكرمة ، فما بالك بأم لطفل المولى خاطبها عن طريق جبريل فيه ؟! انها عاشت طيلة حياتها طاهرة عفيفة عذراء لم تعرف رجلا قط ٠

ونحن نؤكد أن عيسى رحل كغيره من قرنائه ، متى سمحت له الظروف ، أما رحلته الى مصر ، وادعاء وجود مكان يحمل أسم العذراء فهذا لانسلم به ، لأن بجوار مسقط رأسى توجد قرية بها شجرة ينذر الناس لها ، وتسمى شجرة مريم العذراء ، ومن المقطوع به أن العذراء لم تأت الى شمال الدلتا قط ، بل أن هناك أماكن متعددة كلها تحمل هذا الاسم ، فأيها هو الصواب ؟ ولعل هذا جاء على سبيل التبرك ولوبأثر غير اسلامى ، دخل الى عقلية بعض المسلمين على أنه من صلب دينهم وهو ليس كذلك ٠

---

(١) سفر التكوين ١٩/٣٤-٣٦ ، وهكذا وقعت المصادر اليهودية فى أنبياء الله ، وجردتهم من العصمة الواجبة لهم ، وحاشا الله أن يبعث رسولا تحيطه النقائض الأخلاقية ، وحاشا لرسل الله من هذا الوهم الباطل والظلم الكاذب الذى تنسبه الأناجيل اليهم او تدعيه عليهم .

(٢) تفسير المنار جـ٣ صـ٢٤٧

٧- وقع بعض القائلين برحلات مريم وابنها الى مصر ، فى خطأ تاريخى حين خلطوا بين مريم - أم المسيح ، والتى لم تسافر من موطنها أبدا وبين القديسة مريم المصرية التىعرفت فى المسيحية " وقد ظلت القديسة مريم المصرية (St . Mary) تكفر عن ذنوبها ٤٧ سنة هائمة فى الصحراء عارية من كل لباس ، وقد اسود جسمها وكانت تعتبر فى شبابها امرأة جميلة يشتهيها الرجال " (١) ٠

وقد تركت تلك المصرية أثرها ، فاستعارته عادات بعض المسلمين حتى دخل على من لحقهم أنها أم المسيح ، فراحوا يتبركون بآثارها وكم حفلت ذاكرتى أثناء طفولتى بالكثير من ذلك ، ونالنى منه بعضه حيث كانت والدتى - أطال الله فى عمرها وشفاها - تقتطع جزءا من ثيابى الجديدة والبالية ، حين يحول العام ، وترحل بها الى قرية قريبة من بلدتنا ، فتعلقها على شجرة بالية ضخمة ، أطلقوا عليها اسم شجرة - ستنا مريم - وماكان ذلك الفعل منها الا بغرض أن يطيل الله فى عمرى ، فقد كنت وحيدها لسنوات طوال ٠

ولم تكن والدتى تقتنع باعتراضات والدى ، وكانت تغلبه بسيل من دمعها ، حتى اذا ماسمح لها بالرحيل الى الشجرة المقصودة المباركة - ستنا مريم - كنت ألاحظها تعدو حاملة اياى على صدرها وكم كان ينال منها التعب ، وكنت ألاحظ الكثيرين من زوار تلك الشجرة المباركة ، تعلوهم جميعا فرحة غامرة كأمى وأشد ، وكان فعل القاصدين واحدا ٠

- قطع قماش من ملابس من يريدون أن يمد الله لهم فى العمر تعلق على أجزاء من الشجرة ٠

(١)الاستاذ / محمود توفيق حفناوى - مصر والعرب عبر التاريخ صـ٣٢ ، دار الفكر العربى ٠

- اعداد طعام منذور يقدم للفقراء جزء منه ، تحت جناح الشجرة المباركـة ويعود الجزء الثانى ليوزع على فقراء القرية ، ما تمكنت الـى ذلـك مـن سبيل ، ظنا منها - ومن زوار الشجرة - أن كل طعام يقدم فـى رحـاب تلك الشجرة ، تحضره ستنا مريم ، وتباركـه وتـأكل منـه ، وكـذا أختـى الارضية - التى تكون من الجن - حسب ما فى ذاكرة أمى ، وما كانت تعتقده لسنوات طوال ٠

ولم تتخلف والدتى عن هذه العادة ، حتى بلغـت مـن السـن مـا تمكنـت معه من فهم لجمال الدين الاسلامى ، وعرفت ماوقعت فيه أمـى بحسـن نية ، ومعها قريناتها ، وحاولت أقناعها ، فلم أجد منهـا صـدى ، اللهم الا الاستمرار فى المضى قدما لهذا الطريق ولجـأت الـى الهـروب منهـا حين يأتى الموعد ، وظل الحال كذلك حتى وفقنا اللـه جميعـا الـى هجـر تلك العادة التى تسربت الى الفكر الاسلامى ، من خـلال روافد يصعب تحديدها على اليقين.

٨- ظلت أم عيسى عليه السلام عابدة تقية ، فلما " ظهر بها الحمل ، وعلمت أن الناس يستبعدون ذلك ، ولم تثق بأحد تفشى اليه سرها مضت الى مكـان بعيد عن الخلق "[١] فهل كانت بعد ذلك علـى اسـتعداد أن تلتحـق برجـل مـن بنـى البشـر ، يمثـل عبئـا عليهـا ، يشـغلها عـن طهرهـا وعبادتهـا ، لمجرد أن يكون بمثابة والد لابنها وقد عرفت أنه - الابن - نفحة سـاقه الله اليها ٠

---

(١) الامام القشيرى - لطائف الاشارات المجلد الرابع صـ٩٦ ٠

حقا حفلت المسيحية بهدايا (بابا نويل) الأب الروحى الخيالى الذى يسكن القطب الجنوبى ، الا أنه حمل هذه المرة عددا من الهدايا ، التى ساهمت فى تسلل الفكر غير الاسلامى ، الى بعض المسلمين ظنا منهم أنه فكر اسلامى أصيل ، ومن ذلك القاء التهمة على مريم ، وقد طهرها الله ، وعلى عيسى وقد كان فى المهد وأنطقه الله تبرئة لأمه ، وبيانا لطهرها ، وتأكيدا على أنه عبدالله ورسول فقط ٠

٩- أما بعض المسلمين ، فقد فاتهم قطار التأمل ، فى هذه النقطة ، ونقلوا عن غير مصدر اسلامى صحيح ، ومما نقلوه رحلات عيسى وأمه ويوسف الى مصر ، ولعل عدم الاهتمام بتلك النقطة عندهم راجع الى أنها - الرحلات - لاتمثل عبئا فكريا ، أوعيبا دينيا أو عقانديا الأننا لمسنا أنها تمثل عيبا فكريا وعقانديا ، لأن القول بعلاقة مريم ويوسف فى الهيكل منذ الطفولة ، يوقع فى الفهم الخاطىء ويدفع الى القصد الغير سليم ، وبالتالى فانه قول لايسنده منطق ، ولايشفع فيه العقل ، ولايساهم فى اعلانه النص ، ومن هنا تركناه جانبا ، وأكدنا على أن أحدا لم يعرف بحمل مريم على الاطلاق ، ولم يكن هناك واحد من البشر شاهد ملامح الحمل [١] وكذبنا أى ادعاء يقرر وجود يوسف مع مريم أثناء وضعها وليدها ، واستشهدنا بالقرآن الكريم ، وعلى الله توكلنا ٠

---

(١) الامام / ابن كثير - تفسير القرآن العظيم جـ٣ حيث ادعى أن يوسف علم بحملها وسألها ، وقد رددنا هذا الادعاء فى مكانه من هذا البحث ، فليرجع اليه من شاء ٠

ولعل شهادتنا على اخواننا يدعمها النص القرآني ، وعلى غير المسلمين ، ما قام به أحد كتاب المسيحية المشهورين - عندهم - حيث يؤكد ما ذهبنا اليه وأن ولادة المسيح - كانت - من عذراء لم تعرف رجلا على الاطلاق " (١) لاقبل حملها بعيسى ، ولاأثناءه ولابعده ، بل ظلت عذراء الى أن لقيت ربها ، اذ المعروف أن أية أنثى يعاشرها زوج لاتوصف بأنها عذراء طالما أنه تمت معاشرتها من جهته • ويقيني أن هذا أدعاء كاذب وقول مردود •

ولايعنينا أن يوافقنا القوم أويخالفوا ، مادمنا نرى الحق في جانبنا ، وتسانده أدلته ، ولن نقف عند مبكى الزمان ، نسدل الطرف ، ونذرف الدمع ، فيفزع الحق من هدوئنا ، ويفلت منا وكأنه يناشدنا الوفاء فيقتلنا أحساسه ولايكاد يبين ، خاصة وقد وقع فى تلك الزلة الكثيرون ، فمثلا يهم احد الافاضل وتحمله العواطف وينقل نصوص الأناجيل ، ويحكيها على أنها أفكار اسلامية ، فيحكى عن علاقة يوسف بمريم ويقول " كأن يوسف النجار هذا ، شابا صالحا من شبان اليهود من قوم مريم ، وكانت مريم مخطوبة له قبل أن تحمل المسيح ، ولما وجدها حاملا أسر فى نفسه أن يتركها ، دون أن يشهر بها ، وذلك لأنه أمر فى منامه أن يمسكها لأنها بريئة من الاثم والدنس " (٢)•

وبصرف النظر عن مؤلف الكتاب ، ومكانته الاجتماعية أو الادبية ، فاننا نعلن عن نقله ، ونواجه ما كتبه بالنص الذى نقل منه وتجاهله ، يقول

---

(١) القس / عوض سمعان - فلسفة الغفران فى المسيحية صـ ١٣١ •
(٢) الدكتور / محمد الطيب النجار - تاريخ الانبياء فى ضوء القرآن الكريم واسنة النبوية صـ ٢٧٤ طبعة دار الاعتصام •

انجيل متى " لما كانت مريم أمه ، عيسى - مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس ، فيوسف رجلها اذ كان بارا ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سرا ، ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور ٠٠(١)

فقد ينقل غيره عنه ، على أساس أنه قول اسلامى ، ويقع الناقل فى اقتباس المؤلف غير المعلن عنه ، وتكون النهاية ، تسلل أفكار غير اسلامية الى رحاب الفكر الاسلامى ، وتحسب عنه ، كأنها منه والواقع يعاند ذلك تماما ٠

سادسا : هل قنع عيسى عليه السلام بما حصل ؟

سؤال يتردد كثيرا ، وتحوطه عدة مقاييس ٠

والجواب :

أن هناك نواح عدة ، كلها تتدافع نحو الاجابة ، منها ماهو نفسى وجدانى ، ومنها ماهو اجتماعى مادى ، ومنها ماهو عقلى وفكرى ٠

وسنحاول ترتيب اجابتنا بما يدفع الى الاعتناق ويكون أدعى للقبول ونهتف مع شاعر النيل :

ما رمانى رام وراح سليما	من قديم عناية الله جندى
كم بغت دولة على وجارت	ثم زالت وتلك عقبى التعدى
انما الحق قوة من قوى الد	يان أمضى من كل ابيض هندى (٢)

ولعل ذلك ما رماه به أعداؤه ، فارتدوا على أعقابهم ، وقد اعتدى - اليهود عليه وأمه ، ويذكر التلمود " أن يسوع الناصرى " موجود فى لجات

(١) أنجيل متى ١٨/١ -٢٣ وراجع الفصل الرابع من الباب لكتابنا هذا ٠
(٢) الشاعر حافظ ابراهيم - قصيدة مصر تتحدث عن نفسها ٠



الجحيم ، بين القار والنار ، وأن أمه أتت به من العسكرى - باندارا-عن طريق الخطيئة (١) وذلك قبح يلصقونه بهما ، وقدح عليهما وحاشا لمريم رضى الله عنها من تلك التهم ، وحاشا للمسيح أن يكون مصدره هكذا وقد برأهما القرآن الكريم ومازال اليهود قائمين على دعواهم ، ومستمرين فى عدواتهم لنبى الله عيسى أبن مريم وأمه ، والله غالب على أمره ، ومازال المسيحيون يعتقدون أن العهد القديم عند اليهود مقدس فمن الذى أنصف ومن الذى جار ؟!

وقد اعتدى أتباع المسيحية عليهما أيضا ، فقرروا أنه " بعد موت يسوع المسيح أنزل جسده من على الصليب ، ووضع فى قبر ، أما نفسه فنزلت الى الجحيم ، أى اليمبوس لتفتقد فيه نفوس الأبرار ، وتبشرهم بقرب دخولهم الى السماء ، وأن مريم انتقلت الى السماء بالنفس والجسد (٢)

وهكذا صلبوه وأقبروه ، ثم انتزعوا نفسه وفى الجحيم ألقوها ، وجعلوه غريبا فى عالم كل افراده يتعارفون ، ونقلوا أمه معه الى السماء بجسدها ونفسها ، وهذا طعن فيهما ، فما تزال التلال المحيطة ببيت لحم تشهد بأن رفات مريم ماغادر أرض الله الواسعة ، التى عليها نمت مريم وترعرعت ثم توارت فيها .

ولو أن عيسى عليه السلام جاء الى عالمنا - اليوم - ووقف بين أنبياء الله يتباهى كل بأتباعه ، لقال عيسى عليه السلام اننى هزمت بواسطة جيشى (Lwas.defeated.by. Army).

ولاتخذ ضدهم اجراء قاسيا وهانحن نطالع معا كل النواحى لنرى هل قنع بما حصل أم لا ؟.

---

(١) الدكتور/ احمد شلبى - اليهودية صـ٢٧٩ .

(٢) مختصر كتاب التعليم المسيحى للطلبة صـ١٤ ، ٣٤ .

١- الناحية النفسية الوجدانية :

لاشك أن عيسى شب ، وفى حناياه شبح مخيف ، تطارده أقوال الكهنة ويقض مضجعه خوفه على أمه ، ومن هنا فقد حمل على كاهله سؤالا ، كم تردد فى ذهنه ، وهو مازال فتى فى ريعان الصبى ، كان السؤال ، كيف نجعل أفكارنا واضحة / How to make our ideas clear
وما كان له من غرض ، الا أن ينقل قومه من الفكر المادى المطلق ، الى محور آخر ، فيه يعيش المرء بعض لحظاته مع الروح التى كان قومه ينكرونها ولذا استفتح بكل الأبواب المغلقة فى سبيل البلوغ للغرض ، وحتى يجعل من أفكاره هرما يتطلع اليه الآملون ، وكم راوده وجدانه ،أن يكون هو الموصل Conductor لتلك الافكار وكم طالع فى داخله ذلك الأمل وكم راودته الفكرة طويلا ، ولازمته قبل البعثة ، حتى أختاره الله ليكون نبيا خاصا لبنى أسرائيل وحدهم ٠

الا أن نفسه كانت تجنح به نحو الاستزادة ، وكان يواجه صعوبات More complioations كلما حاول أن يوقف تقدمها نحو ذلك الهدف ومن هنا يمكن القول بأن عيسى لم يقنع بما حصل فى هذا الجانب وظل يدفعه الأمل نحو الاستزادة ، وما اقتربت منه بواكير القنوط فى هذا السبيل أبدا حتى جاءه وحى السماء فى سن الثلاثين ، ولم يعد له من أمر العلم أن يبحث عنه ، فقد تحولت قدراته الوجدانية نحو عالم علوى يتلهف فى الاتصال بالملأ الأعلى وحتى كانت رسالته لخراف بيت أسرائيل الضالة ٠

ومن الحق القول بأن عيسى فى هذا الجانب ، كان يترجم تأثره بالبيئة التى عاش فيها ، وتمرده عليها ومحاولاته اصلاحها ، لأن الانسان عبارة عن وحدة جسمية نفسية متكاملة ، وهوحينما يتأثر بالبيئة فهو يستجيب لها

من الناحية النفسية والجسمية فى آن واحد " (١) وعيسى عنى بالظاهرة النفسية وعلى ما يرنو شادها ٠

٢- الناحية الاجتماعية والمادية :

ما كان عيسى ليحفل بغير قرنائه ، ولايهتم الا بمن هم فى مثل ظروفه وذاك شأن كل صبى عادى الا أن علاقات عيسى مع أصدقائه كانت شبه محدودة ، لأسباب منها :

١- كل الأطفال لهم سبب عادى ظاهر بين والدين - أب وأم - ، وليس الشأن مع عيسى كذلك ٠

٢- كل الأطفال يجدون المرتع لهم فى غير مراقبة - غير عادية - وعيسى ليس كذلك ٠

٣- كل الأطفال يغرس أهلوهم فى عقولهم وقلوبهم ، حب المادة التى هى شغلهم الشاغل وحبهم الأكيد ، وعيسى جاء من نفس ذكية ونفحة روحية ، فشأنه أن يكون على غير حالهم ٠

وهذه الأمور تنمو مع الطفل حتى بلوغه سن الكهولة ، لأنها طبع له وقد كانت مع عيسى كما كانت مع غير عيسى ، "ولكل وجهة هو موليها" ومن هنا كانت علاقاته شبه محدودة بحيث صارت قاصرة على الأطفال الذين يخرجون على قواعد أهليهم ، وينسلون الى مرتع عيسى ، ويطلق عليهم Al Ab normals وهذا الاطلاق ربما كان من أهليهم لبعدهم عنهم ٠

---

(١) الدكتورة / نجيبة الحضرى - علم النفس والاخصائى الاجتماعى صـ١٨ ،١٩ ط أولى سنة ١٩٧٢م مكتبة عين شمس - القاهرة ٠

أما عيسى فلم يمكن ليأبــه بمثل هذه الأمـور ، التـى كـانت فـى قومـه عنيفة جدا Very severe وكانت شاغلهم الأكيد ولذا وجدنــاه يحدد اصدقـاءه بوضوح ، ويختارهم بعناية ، وكانوا فى الحقيقة هم التلاميذ الذيـن توارثـوا قراءة التوراة ، وشروحها ، وعرفوا التعاليم اليهودية غير أنه كان يعـرف عددا ممن هم أكبر منه سنا ، أولئك هم الأحبار والرهبان الذين كان يتسـلل الى مجالسهم ، يجرى معهم أحاديثه ، ويناقش معهـم قضايـا المجتمـع ، ثـم يلقى عليهم بأسئلته الحائرة ، وأمله الدفين .

أذن فعلاقة سيدنا عيسى الاجتماعية كانت منحصرة ، فى أفراد قلائل تميزوا بما لم يتوفر فى غيرهم ، ومن هنا كانت علاقاتهم بعيسى على نحو مرضـى حتـى جـاءه الوحـى وصـار نبيـا حقيقيـا لبنـى أسـرائيل ، واكتفـى بالحواريين الذين كانوا أصدقاءه المقربين .

أما الناحية المادية ، فيكفى أنه لم يكـن عبئـا علـى غيره ، لأن مـن لـه سند من السماء لايفكر فى الأمور الفانية ولأن له تطلعا الى الأمـور الباقيـة وصاحب العقل الراجح يفضـل الأحسـن علـى الحسن ، والبـاقى علـى مـن لايبقى وسبحان الله رب العالمين .

وقد نبه الرسول الكريم سيدنا محمدﷺ ، الى هذه المعايير فقال لأصحابه ذات يوم " ألا مشمر للجنة ، فان الجنة لاخطـر لهـا ، هـى ورب الكعبـة نـور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجـة ، وزوجة حسناء جميلة ، حلل كثيرة فى مقام أبدا ، فى حبرة ونضرة ، فى دور عالية سليمة بهية ، قالوا نحن المشمرون لها يارسول الله -ﷺ- قال : قولـوا ان شاء الله ، ثم ذكر الجهاد وحض عليه " (١) .

---

(١) سنن ابن ماجة ، والدين الخالص الشيخ السبكى جـ١ رواه ابن ماجة .

ولاشك أن عيسى عليه السلام ، كان يتأمل الكون العلوى فشغله التأمل عن الأحوال المادية وعن أن ينحاز اليها ، أوينشغل بها ، وكم هو جميل ذلك منه ، ولانستطيع أن نقول أنه قنع بماحصل ، كل ما هنالك أنه لم يشغل نفسه بالمادة ، وتملكه ما هو أعظم شأنا منها، وأعلى منزلة فحفل به وتركها

٣- الناحية العلمية :

تعتبر الناحية العقلية ، من الرباعى المكون للشخصية ، والتى يمكن من خلالها تسمية تلك بالناحية المعرفية ، أو المكونات المعرفية " وهذه المكونات المرتبطة بالوظائف العقلية العليا ، مثل الذكاء العام والقدرات الأولية مثل القدرة الميكانيكية ، القدرة اللغوية ، القدرة العددية ، والتصوير المكانى ، والعمليات العقلية العليا ، كالادراك والتفكير والتذكر والانتباه "(١)

والناحية العلمية لدى عيسى ، كانت تعتمد على استقاء معلوماتها من روافد معينة وتستلهم غذاءها من منابع آخذة فى السمو نحو المراقى العالية فلم يتأثر بما يجرى على ساحة قومه ، ولم يسيطر عليه عنصر التقليد الفكرى ، حتى كأنه استمع من دقات قلب الزمان ، ما هتفت به جوانح القائل " فجانب الالتفات الى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولاتكن فى صورة أعمى ، تقلد قائدا يرشدك الى طريق ، وحولك ألف مثل قائدك ، ينادون عليك ، بأنه أهلكك وأضلك عن سواء السبيل ، وستعلم فى عاقبة أمرك ، ظلم قائدك فلا خلاص الا فى الاستقلال

خذ ماتراه ، ودع شيئا سمعت به
فى طالع الشمس ما يغنيك عن زحل (٢)

---

(١) الدكتورة / نجيبة الخضرى - علم النفس والاخصائى الاجتماعى صـ٥٣
(٢) الامام ابوحامد الغزالى - ميزتن العمل صـ٤٠٩ الطبعة الأولى تحقيق د/سنيمان دنيا- ذخائر العرب ٣٨ سنة ١٩٦٤م.

ويبدو أن عيسى عليه السلام ، أحب السياحة العقلية ، فألهمته ما تحدث بـه واظهرت له عند غيره عظيم الشأن " واننا لنفتقر الـى الوثـائق الـى تسمح بالنفاذ فى تفصيل ظروف تكوينه الفكرى ، وفى دقيقة الأسباب التى دفعتـه الى هذا الاتجاه " (١) ومـا بقـى الا أن نعـود الـى الحديث الالهـى عـن تلـك النشأة العقلية ، حيث يقول جل وعلا " اذ أيدتك بروح القدس " (٢) فـروح القدس يفسره الامام الغزالى بأنه " فيض الهى يقوى به الانسان على تحرى الخير ، وتجنب الشر حتى يصير كأنه من باطنه غير محسوس " (٣) ٠

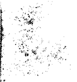
وهذا الفيض الالهـى ، عـاش فـى رحابـه عقـل عيسـى عليه السلام ، منـذ طفولته البيضاء ، ونعومة أظافره ، فكانت له قدرات عقلية عالية ، وفكرية منبثقة من وحى داخلى ، دفعته اليه رعاية السماء ، وظل عيسى متلهفا الى هذا اللـون مـن المعرفـة ، ليثرى بـه عقلـه ، ويضيـف مـن خلالـه المزيـد لمعلوماته ، حتى جاءت له ملامح الرسالة مع بواكير الوحى السماوى الذى كلفه بهداية خراف بيت اسرائيل الضالة .

سابعا : بلوغه عليه السلام سن الثلاثين :

كل العوامل التى سلف ذكرهـا ، كـانت تسير فـى اتجـاه واحـد ، نحـو تكوين شخصية عيسـى عليه السلام وكـان ذلـك مـن أول وهلـة ٠ وقـد ذكـرت أن المسيح منذ طفولته وصباه – كانت تظهـر عليـه – مخـايل الصفـاء العقلـى والشفافية " (٤) وأنه " امتاز بذكاء وعمق ٠٠٠ وقد ألم بالتوراة ونال من

---

(١) شارل جنيبر – المسيحية نشأتها وتطورها صـ ٣٧ ترجمة د/ عبدالحليم محمود المكتبة المصرية ٠
(٢) سورة المائدة الآية ١١٠ ٠
(٣) الامام / الغزالى – ميزان العمل صـ٣٠٢ ، ٣٠٤ وما بعدها ٠
(٤) الدكتور / رفقى زاهر – قصة الاديان صـ١٤١ ومابعدها ٠



العلم قسطا كبيرا "(١) وبدأت حياته هادئة فى سيرها ، قانعة بما يطيب لها راغبة فى التطلع والكشف عن المجهول ، حتى استوى عوده واشتد ساعده وقوى على مواجهة الأفكار العالية عقله •

بيد أن هنالك بعض الأمانى ، كانت تستحوذ عليه ، كلما زحفت الأيام به ، وانطوى بعض عمره بين كفى الزمان ، وكانت تطلعاته تنحصر بين الامل والرجاء وكلما زاد سهم هذه التطلعات راح عيسى عليه السلام ، فى حوار داخلى ، وتردد فى صدره سؤال مؤاده ، هل من مصلح يعيد للتوراة الموسوية قدسيتها ، وللكتاب السماوى بهاءه وللخليقة العرجاء أملها المتفلت منها ؟ وما كان يجد أحدا يجيبه على اسئلته اللهم الا ما أشيع عن النبى المنتظر من بنى اسرائيل ، الذى اطلقوعليه المنقذ والمخلص ، وربما وقف عيسى بأسئلته وما باح بها ، الا فى ظروف خاصة جدا ، أمن فيها على نفسه ، فلم يكن يعلم أنه قد جاء دوره ليؤدى واجبه الذى نيط به ، فى اصلاح القطيع الفاسد من بنى اسرائيل •

راح يطالع سجلات حفلت بتاريخ بنى اسرائيل على العموم ، وقومه على الخصوص ، ويطويها عندما تعن لوجدانه مناقشة ذلك الأمر أو غيره مما طالعه فى تلك السجلات ، ولم ترق له على مشرب ، استظل مع أمه سقف الوفاء ، وافترشا ثياب الصفاء ، تحت ظلال العبادة الوارفة وتدافعا نحو اخطبوط الأمل ولم يكن ليصده عن تقدمه أى غيم ، تلاحقه أمه كأنهما منهومان ، لأن أصحاب الهمة العالية ، لاتقف أهدافهم عند أى عائق •

---

(١) الدكتور/ احمد شلبى - المسيحية صـ٣٧ - ٤٣ •



اذن كل هذه الجوانب ، فى حياة عيسى عليه السلام ، كانت متلازمة منذ طفولته ، حين كان يمتص الثدى ، ويلعق أنامله ، ويتطلع الى أمه الحنون بلهفة المحب ، وعشق الوله ، وظمأ الهيم ، وأن هذه الجوانب ، راحت تنمو معه ، وتخطو درجات السلم الزمنى ، سابقة إياه لتهىء الطريق حتى يتمكن من السير فيه بهدوء ، والمضى فوقه بأمان ٠

وظل الحال كذلك ، حتى ناهز السن الثلاثين أو قاربها ، فراح عيسى يختلى بنفسه ويبتعد عن قومه ، ويخلد الى وجدانه ، يطالع كتاب الغيب من خلاله ، ويتأمل خطوط الكون اللامتناهى أمام بصره ، حتى هجر موطنه ذات مساء ، وانقطع عن كل الناس ، فجاءه خبر السماء يحمل الى عيسى رحمة الله فى الاصطفاء ، وأصبح عيسى من ذلك التاريخ نبيا مرسلا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، وهو مانبحث عنه فيما بعد ٠

الفصل الثانى

الارهاصات ببعثته

١- فساد الحياة اليهودية ومظاهره ٠
٢- تحريف الكتب المقدسة ومظاهره ٠
٣- شيوع فكرة المنقذ المخلص ٠

أولا : فساد الحياة الدينية اليهودية ومظاهره :

حينما عبر موسى عليه السلام البحر ، بمن آمن معه من سحرة فرعون ، ومن تبعهم ، وقد قرر الهرب بهم الى مكان بعيد ، وقص القرآن الكريم ذلك من أول الأمر ، فقال تعالى ، موضحا موقف السحرة حينما انتصر عليهم موسى " فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون " (١) وهنا أخذت بهم العناية الالهية ، الى حيث يشاهدون معالم خفى أغلبها عليهم ، ولما هموا بالرحيل خشية الفرعون الجبار - وقد حاول عدوهم اللحاق بهم ، ومعه جيش جرار ، تضيق السهول بجنباتها عن احتماله - كان لجؤهم الى الله أمل النجاة ٠

وكان مثار النقع يعلو فوق رؤس جند الأعداء ، ثم تتهاوى ذراته تملأ جفونهم ، فيغلب عليهم الضيق ، ويسيطر على وجدانهم التبرم ، بينما كانت فلول المؤمنين مع موسى تقارب الوصول الى الشاطىء ، وهنا وقع فى نفوس اتباع موسى نوع من القلق ، وتملكهم شىء من الدهشة ، وعبروا عن أمانيهم فى الحياة وخوفهم من النهاية ، فالبحر أمامهم بساحله الممتد ومائه المضطرب ، ولجاته غير المستقرات ، ومن يحاول التقدم نحوه ، لابد أن يبتلعه ، وتلك سؤء العاقبة ٠

وبات من المؤكد لديهم ، أن جند فرعون لابد مدركوهم ، فالبحر أمامهم يمثل عائقا نحو التقدم ، أو محاولة الفرار ، وجيش فرعون من خلفهم قد ضاقت عنه السهول ، فما الحيلة ؟ وهنا يصور القرآن الكريم احاسيسهم المطوية ، وقد أذاعوها على الملأ ، وكأنها لون من التمرد الذى

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٤٦ -٤٨ ٠

قصد به احراج القائد ، واظهار عجـزه ، فينقلب عليـه جنـده ، يفتكـون بـه ويولون الأدبار ، واضعين قيادهم تحت امـرة خصمهـم ، أمـلا فـى التمتـع بلذات الحياة ، وحرصا على تنسم عبيرها ، مهما كانت قيود الذلة والمهانة

وأظهر القرآن الكريم ، صورتهم النفسية القلقـة ،" فـأتبعوهم مشـرقين فلما ترآء الجمعـان قـال أصحـاب موسـى انـا لمدركـون " (١) ، فمابالك بقوم رأوا نصرة نبيهم على كل سحرتهم ، وقد أمنـوا بأنـه رسـول رب العالمين ، ثم هاهم لايكلون أمرهم لرب العالمين ، بل أوكلوه الى سوء المنقلب والنهاية الأليمـة ، وضنـوا بمـا فعلـوا ، وهنـا يدخـل موسـى الـى أفئدتهم نور الايمان من جديد ، " قال كلا ان معى ربى سيهدين " وفعلاهداه الله ، لأنه جهة الارسال التى بعثته " فأوحينا الى موسى ان أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم " (٢) ، فكتب الله لهم النصر ، وشاهدوا أعداءهـم وهم يلقون حتفهم ونجاهم الله وأهلك خصومهم ، فـى لمحـة بـرق ولحظـة عين ، ودون مرور وقت ، وهنا راحت أقدام أتبـاع موسـى ، تثبت علـى الشاطىء الأخر ، وقد أصابهـا البلـل ، الـذى لحقهـا مـن طيـن البحـر الـذى عبروه ٠

ولمـا توجهـوا وحددوا المسيرداخل سيناء ، تلاقـوا مـع قـوم يعبـدون الأصنام ، فحنت نفوسهم الى المـرض الـذى عافـاهم اللـه منـه ، وصرخـوا معبرين عن أمانيهم ، فى العودة الى عبادة الالهة المتعددة المصنوعة

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٦٠/٦١ ٠ (٢) سورة الشعراءالآيات ٦٢/٦٨ ٠

بأيديهم ، وقص القرآن الكريم ذلك المشهد الرائع فقال تعالى " وجاوزنا بنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين " (١)

وراح موسى عليه السلام ، يعيد الى أذهانهم قصة نجاتهم من أيدى أعدائهم ليذكرهم بخالقهم الذى آمنوا به من قبل ، ولكن قوم موسى توالت عليهم الأيام فكشفت عن داخلهم السئ ، وأظهرت باطنهم المحموم واستمروا فى صراع رهيب ، بين قوى النفس التى تجنح احداها الى الشر والكفر والانزلاق فى المادية الكاملة ، بينما تميل الأخرى (بضعف - نحو تأمل الكون ، وعبادة الخالق ، وما أصدق المثل الذى قيل فيهم انهم قوم ارتضعوا ألبان الكفر ، وتغذوا على ثمراته ، ودفنوا أنفسهم فيه ثم حملوه معهم أينما ذهبوا ، ويكفيهم " أنهم كفروا بالله قبل أن تجف أقدامهم من البلل " .

توالت عليهم النبوة ، وقد رحل عنهم موسى عليه السلام ، وكان كلما جاء نبى تمنوا الا يبعث الله غيره ، أو أحدا بعده ، حتى اذا انطلقوا فى الحياة بما فى طبيعتهم ، كانت لهم الحجة ، فى أنه لم يأتهم من قبل الله رسل يحذرونهم ويرشدون ، ولقد صور لنا القرآن الكريم ، حوارا جرى بين مؤمن من آل فرعون ، وبين أولئك الذين ورثوا قتل الأنبياء ، واستحلوا دماءهم ، والتعدى على شرائعهم ، والتحريف فى مصادر العقيدة وقص القرآن الكريم علينا بعض هذا الحوار فى قوله تعالى "وياقوم إنى أخاف

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٣٨ - ١٤٠



عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب " (١) .

ولم يستجب الله لما أملوا ، فالحياة تحتاج الى اصلاح ، ولا يتم ذلك الا على يد نبى مرسل ، يوحى اليه من قبل الخالق جل وعلا ، وقد كان ، حتى انهم نصبوا من انفسهم رسلا منه جل وعلا ، واعتدوا بأقوال نسبوها إليهم ، وتفرقوا فيما بينهم عليها ، واختلفوا " يحرفون الكلم عن مواضعه " ويحرفون الكلم من بعد مواضعه " وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون " فأفسدوا الحياة ونشروا التعاليم المشوهة ، وخرجوا على الشرع الالهى ، وقطعوا قوانين المنطق العقلى فعبدوا الأشخاص من دون الله ، وحفلوا بالمادة فكانوا فى حاجة الى هدى السماء ، يأتى اليهم من جديد مع نبى آخر كان هو عيسى عليه السلام .

ولكن هذه المرة يكون الوحى على يد نبى يصارع المادية ، ويوضح معالم الروحانية ، ولذا جاء الأمر فى عيسى عليه السلام ، مخاطبة للروح واستعمالا للعقل ، ومعالجة علل النفس ، والتقليل من شأن المادة التى عكف عليها أتباع اليهودية سنوات طوال ، ولذا " نجد أن رسالة موسى عليه السلام كانت لبنى اسرائيل خاصة ، وقد عنيت رسالته باقرار عقيدة التوحيد وهى العقيدة العامة المشتركة بين جميع الرسل ، وزاد اليهود عناية كبرى بالحياة المادية ، التى جعلت المجتمع الاسرائيلى يخرج فى بعض تصرفاته

---

(١) سورة غافر الآيات ٣٢- ٣٤

عن حد الاستقامة ، وأن يرسل الله عيسى عليه السلام ، برسالته التى تحاول أن تخرج ببنى اسرائيل عن غلوائهم فى المادية البغيضة " [١] التى عاشت فى أفئدتهم وتغذت بها مشاعرهم ونامت فى احضانها عقولهم .

وكان عيسى عليه السلام ، قد بعثه الله اليهم ، لينقلهم من عالم الماديات الصرفة الى عالم الروحانيات المشفة ، وأن يعيد الى أذهان الكهنة الصورة المضيئة فى توراة ربهم ، التى تركها موسى عليه السلام لهم أمانة فى أعناقهم ، فطمسوا وجه الحقيقة من قلوبهم ، وزينوا الباطل فى نفوسهم ، واحتضنوا الاسفاف واحتفظوا به داخل صدورهم ، فحقت عليهم اللعنة ، وباءوا بعذاب أليم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وليتهم أخرجوا من توراة موسى ما أدخلوه عليها ، ليتم لهم ذلك البناء ، فقد علمنا سليمان عليه السلام ذلك وقد روى أنه " لما بنى سليمان بن داود البيت المقدس جعل لا يتماسك البنيان ، فأوحى الله -اليه- ، أنك أدخلت فيه ماليس منه فأخرجه ، فتماسك البنيان " أخرجه العقيلى عن أبى بن كعب رضى الله عنه " [٢] .

إذا كان الشأن مع عيسى عليه السلام، أن يقاوم فيهم الرغبة الجامحة الى المادة الزائلة ، ويحاول اعلاء شأن الروح ، فقد جاء فى الحديث القدسى " أوحى الله الى عيسى ابن مريم فى الانجيل ، أن قل للملأ من بنى اسرائيل أن من صام لمرضاتى ، أصححت له جسمه ، وأعظمت له أجره " أخرجه أبو الشيخ فى الثواب ، والديلمى والرافعى عن أبى الدرداء " [٣] .

---

(١) الامام الاكبر شيخ الازهر الدكتور / محمد عبدالرحمن بيصار - أخبار اليوم القاهرية ١٦/٨/١٩٨٠م .

(٢) الشيخ /محمد المدنى ، الاتحافات السنية فى الاحاديث القدسية احقيق الشيخ/محمود أمين النواوى صـ٢٣٢ حرم اللام ط٢ مكتبة الكليت الازهرية سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

(٣) المرجع السابق صـ١٧٠ باب الهمزة .

وكانت مشكلة الوجود Problem of Peings المـادى قد طغت علـى الفكـر المادى اليهودى كله ، حتى اعتبرت المادة ذاتها فلسفة الحياة Philosophy of life الخاصة بهم ، دون سواها ولم يكن لهم من غرض ، الا المادة التى أحبوها بكل امكانياتهم ، ووهبوا أنفسهم لها وكان حبهم لها جميعا على نسق واحد One System ويكفى أنهم طالبوا موسى عليه السلام ، بأن يكون الالـه مادة ترى وتحس " وقالوا أرنا الله جهرة " بل علقوا ايمـانهم علـى مشـاهدة ربهم " وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " وذلك انحراف كامل ، وما كانت العناية الالهية لتوافق قوما هواهم وانما توجه إلى مافيه المصلحة العامة ، وتعبيد الناس خالقهم العظيم .

وما كانت العناية الالهية ، لتشارك قوما أوهامهم ، التى جعلوها فى صميم توراة ربهم ، فكانت سياستهم داعية الى الأمل فى انتظار مصلح جديد ، وكان سلوكهم Ther conduct مدعاة تحريك ذلك الأمل ودافعا اليه ، وقد هيأت الرأى العام ، ليكون على أحر من الجمر ، فى انتظار نبى اسرائيلى يعيد للشريعة اليهودية ما بعد عنها ، وبعدت عنه فكانت بعثة عيسى عليه السلام .

مظاهر فساد الحياة الدينية اليهودية :

١- اعتداءاتهم المتكررة على أنبياء الله سبحانه وتعالى ، ومحاولاتهم المستمرة فى القضاء عليهم قال تعالى " وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا " [1] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٥ .

٢- عدوانهم المستمر على العقيدة الالهية ، ووقوعهم فى التجسيم مرة والتجريد مرات ، ونسبتهم الى الذات العلية مالا يليق به جل وعلا مستدلين بظواهر نقل وضعته أيديهم من ذلك قولهم " قال الله نعمل الأنسان على صورتنا كشبهنا .... فخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه ذكرا أو أنثى خلقهم " (١) وفسروه بما لايليق ، رغم أن العبارات غير صحيحة وكان ذلك من مظاهر الانحراف فيهم .

٣- نسبة الفقر الى الله " لقد كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد " (٢) .

٤- نسبة البخل والشح الى الذات العلية " وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء"(٣) .

٥- نسبة البنوة لله " وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير "(٤) ، " وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون " (٥).

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الأول ٢٦/٢٨
(٢) سورة ال عمران الايات ١٨١ -١٨٢ .
(٣) سورة المائدةالاية٦٤ .
(٤) سورة المائدة الاية ١٨ .
(٥) سورة التوبة الاية ٣٠ .

٦- تحكمهم غير المنطقى ، الذين يدل على بلادة فى التفكير ، وطلبهم الها ماديا ، يعايشونه بكل حواسهم وقد وصل بهم الأمر الى تحدى نبيهم بهذا الطلب " وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة [١] " ، وقد وقع عليهم العذاب بسبب تعنتهم البغيض وجدالهم بلا مبرر ، و قص القرآن الكريم علينا ذلك المطلب المتعنت منهم كما ذكر الإجابة عليهم ، والعقاب الذى حل بهم قال تعالى :

" يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم " [٢]

وكان اعتداؤهم فى السبت ، بادرة قوية لوقوع الكوارث بهم ، " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين " [٣].

٧- ادعوا وجود عهد بين الله وبينهم ، يدعوهم الى عدم الإيمان برسل الله قبل امتحانهم وقد نعى الله عليهم فعلتهم ، وكذبهم فى دعواهعم ، وأكد أنهم قتلة رسله ، وأنهم سافكوا دمائهم ، ومكذبوهم " الذين قالوا إن الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير " [٤] .

---

(١) البقرة الآية ٥٥ .

(٢) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٣) سورة البقرة الآيات ٦٥ -٦٦ .

(٤) سورة آل عمران الآيات ١٨٣ -١٨٤ .

٨- عبدوا الأشخاص والأشياء من دون الله " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " (١) " واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين " (٢) .

٩- تعدوا حرمة الشرع ، واصطادوا في السبت ، وقد اختبرهم الله فيه وطلب اليهم عدم ممارسة الصيد فيه ، فكان عقابهم كافيا ومتلازما مع فعلهم ، " واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون " (٣) .

١٠- أباحوا المنكرات ، وتناهوا عن الخيرات ، وتدافعوا الى التخطى نحو المحرمات ، فجاءت لعنة الله عليهم تتوارد على ألسنة رسله " لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون " (١) .

وهكذا برزت معالم تحلل بنى اسرائيل من القيم ، وتمردهم على الشرع وتجردهم من الأخلاق ، وفقدان حبل المعايير من بين أيديهم ، وانفلاتهم من ناموس السماء ، فانطلقوا على رغائبهم للمنكرات يبحثون ،

---

(١) سورة المائدة الآيات ٧٨-٨٠ .

ومن خلال سجية قلقة منسجمة مع العدوان يسيرون ، فأفسدوا الحياة من حواليهم ، وأشاعوا الفوضى فى النفوس الآمنة ، فتفرق جمعهم ، وانحلت عرى المحبة من بينهم وبات الشجاع يصول ويجول ، وانتصر قانون الأقوى ، بل ضرب أطنابه على كل حياتهم ومظاهر سلوكهم فكانوا كقرد عصى ، تمرد على صاحبه بعد أن شعر بقوته الوقتية تجاهه .

تجردوا من حبل السماء وقطعوه بأيديهم ، فضعف جمعهم ، وانحط داخلهم ، حتى جاء عدوهم بمطامعه وباشر مهمته معهم ، فأحتل أرضهم ، ومزق جمعهم ، وشتت شملهم ، وأباد منهم الكثير ، فانطلقوا الى بلاد المهجر البعيد عن مواطن الآباء والأجداد ، يفترشون الحزن ، ويلتحفون عوادى الزمان ، وكانت السنون تأخذ منهم ، وتحصد فيهم ما تشاء ، وتلقى عليهم من غضبها جامه فاستزلهم عدوهم ، واستناموا تحت جناح الذلة ، وباتوا فى رحاب المسكنة " ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " (١) .

ثم عادوا الى الأمل يحيونه فى نفوسهم ، وقد طواه ماضى الزمان فأشاعوا عن مقدم مخلص قوى ، يعيد اليهم الوطن السليب ، ويعلى فوق رؤسهم التاج الذى ديس بأقدامهم ، وكثيرا ما كانوا يتخبطون فيه ، فمرة يطلقون علبه اسم " ايليا ، وقد صعد الى السماء ، ثم هو نازل ليقضى على خصومهم وينتصروا به ومرة يدعونه " المسيح المنتظر ، الذى وعدوا به على ألسنة الأنبياء ليبنى الهيكل المتهدم ، وليعيد الوطن السليب ، فاذا ما جاء انتصروا به ، ولذا شاعت فكرة المنقذ أو المخلص عندهم زمنا طويلا حتى جاء عيسى عليه السلام فكانوا أول من كفر به ، وهذا ما سنلمح اليه بعيد قليل .

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٨ .

ثانيا : تحريف الكتب المقدسة عندهم ومظاهره :

كانت العلاقة وطيدة بين التعاليم الموسوية والسلوك اليهودى ، أو التطبيق العملى - ، أول الأمر - ، بين تعاليم موسى ، وسلوك بعض أفراد شعبه ، ممن آمنوا به ، وربما سار الأمر على هذا النحو واستقام على قدم شبه ثابتة ، وان كان بخطى وئيدة ، الا أن ذلك لم يمض قدما ويطرد فقد بدأت حركة التمرد على التعاليم ، حينما ذهب موسى لتكليم ربه ، وغاب عن قومه فترة عهد لأخيه فيها بخلفه فى قومه " وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين "(١).

راح موسى لميقات ربه ، وظن القوم أن غيبته ستطول ، وأنه لا رجعة بعد ، فتمردوا على التعاليم ، وحرفوا ما جاءهم به موسى عليه السلام ، " واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين " (٢) وتمكن السامرى من اضلال القوم ، والنزول بالكتب المقدسة عندهم الى مرحلة الشك فيها ، ومن هنا تنادوا بالعجل السامرى وقد صور القرآن الكريم ذلك الفعل الغريب عن القوم المؤمنين " فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا " (٣) وهنا لا تجدى فيهم صيحات هارون ، ولا ينفع معهم تخويف من رب العالمين " ولقد قال لهم

---

(١) سورة الاعراف ١٤٢ .
(٢) سورة الاعراف ١٤٨ .
(٣) سورة طه الايات ٨٨ -٩١ .

هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى " (١) الا أن القوم طغى فسادهم على ما حفظوه من تعاليم الهية ، وديدنهم اللئيم برز فى شكل قوى ، فصمموا على عبادة العجل وآلوا عن الرجوع عنه الى غيره ، وكأنهم يقولون ، ان عهدا قطعناه على أنفسنا ألا نؤمن الا بإله مادى ، وليكن عجلا يصنعه لنا السامرى ، أو يرجع الينا موسى فيدلنا على صحة ما قمنا به أو يصدقه معنا " قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى " (٢) .

فاختلف الأمر وكانت مطامعهم لاحد لها ، ولما عاد موسى عليه السلام لم يتمكن من اعادة القطيع الضال الى الواحة الهادئة ، وظل الحال على هذا المنوال ، حتى انتقل كليم الله الى الرفيق الأعلى ، تاركا فيهم توراة ربهم وصحفا وألواحا فيها تعاليم الخالق الى بنى اسرائيل جميعا .

وكان لفساد الحياة اليهودية أثر واضح على التوراة وغيرها ، فلم تسلم ولا غيرها من يد العبث ، ولم تفلت من يد التغيير ، وعملت بها عقول الضالين عملها ، فتغير الكثير من نصوصها ، كما تغير فى مضمونها وتعاليمها ، ولم تعد هى المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة والأخلاق فى اليهودية بل أضيف اليها على فترات من الزمن المتعاقب ، كل من التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم الكهنة فى سنوات طوال .

ولكنا سنلمح الى تحريف التوراة فقط ههنا لنوضح أن التحريف صار معلما من معالم ضرورة بعثة نبى جديد بملامح تخالف ما درج عليه أنبياء بنى اسرائيل فى فتراتهم المتعاقبة ، ذلك هو عيسى عليه السلام ، حتى يكون التحريف بمثابة ارهاص بمقدم نبى جديد الى بنى اسرائيل ، أو الى خراف بيت اسرائيل الضالة .

---

(١) ٢،١ سورة طه الآيات ٨٨ -٩١ .

تحريف التوراة :

أتخذ تحريف التوراة عدة أشكال ، وسلك عدة مسالك ، وسار في دروب مختلفة منها :

١- تحريف بالزيادة .

٢- تحريف بالنقصان .

٣- تحريف بالتبديل . (١)

وسنحاول هنا أن نعمل على ابراز مظاهر التحريف فقط ، حتى لا ينسحب الوقت دون بلوغ الهدف ، ونحن نحاول الوفاء بما وعدنا ، ان أمد الله في العمر ، وبسط في الصحة ، لتكون الكتابة عن اليهودية ومتابعتها في الكتب والمصادر ، أما هنا فان مظاهر التحريف نورد بعضها على النحو التالي :-

أولا : في مجال الألوهية :

كونت الأفكار الكهنوتية ، في رحاب الأسفار الخاصة بالعهد القديم ، ما يشبه الفلسفة المذهبية / Systematic Philsophy بلغة العصر الحاضر ، فقد وصفت الاله بعدة صفات نقص تنزه عنها جميعا الذات العلية ولا يجوز على الإطلاق ، أن تنسب تلك الصفات الى ذات الحق جل وعلا ، ولا الى كتاب سماوي أو توجد بين صفحاته أو داخل سطوره ، ويدعى أن جبريل الأمين بلغها عن رب العالمين ، أو أنها وحي صادر عن الله تعالى منها :

---

(١) راجع اظهار الحق للشيخ / رحمت الله الهندي - والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الاسلام / ابن تيمية .

١- التسمية :

يقرر أصحاب اليهودية أن لله تعالى عدة أسماء وصفات ، تظهر تطور المسمى من حالة الى أخرى فأطلقوا عليه تعالى : ياهو ، أو ياهوه ، أو ألوهيم ويبدو أن يهوه هو الاسم الذى غلب عليها " وقال الله أيضا لموسى ، هكذا تقول لبنى اسرائيل يهوه اله أبائكم ، اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب أرسلنى اليكم هذا اسمى الى الأبد ، وهذا ذكرى الى دور فدور "[١] .

ألا أن هذه التسمية بيهوه " اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق – فيصح أنه مادة الحياة – ويصح أنه نداء الضمير الغائب ، لأن بنى اسرائيل كانوا يتقون ذكره ، توقيرا له ، ويكتفون بالاشارة اليه ، ويصح غير ذلك من الفروض [٢] ونحن نقول ، ان التسمية لا تقتضى تعدد المسمى ولا الأوصاف ولا التحيز أو المكان ، خاصة متى ارتبط ذلك بتطور فى شخصية المسمى ، ونسب ذلك الى البارى جل وعلا لأن هذا مما تنزه البارى عنه .

٢- احتكار الاله :

يدعى اليهود أن الاله الخالق العظيم ، لهم وحدهم ، وأنهم شعبه المختار ، وأن غيرهم – من عبيده تعالى – فى مرتبة دونهم ، وبالتالى فانهم يرفضون أن يشاركهم غيرهم فى عبادته تعالى ، ولما كانت عقيدتهم تلك لا يقبلها غيرهم ، بل ولا يقرها مفكروهم ، كان لابد لهم من نصوص تؤيدهم فى دعواهم فوجدوا بعض النصوص فى توراتهم ، وأوجدوا بعضا

---

(١) سفر الخروج الاصحاح الثالث /١٥ .

(٢) الاستاذ / عباس محمود العقاد – الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية صـ١٠٨ .

آخر ، ثم حاولوا التوفيق بينها جميعا ، والمواءمة مما يدل على أن الأول ، شاهد على تحريفهم والثانى دليل على عدم صدقهم وسوف نزيد الأمر بيانـا مما فى كتبهم .

١ – سفر الخروج :

يدعون أن الرب قال فيه " أنا الرب الهك ، الذى أخرجك من أرض مصر ، بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمـامى " (١) ومظـاهر التحريف فى النص واضحة ، وأنها دليل عليهم وليست لهم ، ففى النص دعوة صريحة الى التوحيد الخالص للخالق جل وعلا ، وهو دعوة مفتوحـة منه الى عباده ، وفيه منحة يحرك بها شغاف قلوب بنى اسرائيل الجافة ، ويذكرهم بأيامهم الخوالى فى ظل الذل والاستعباد (٢) تحت قسـوة السوط ، وغلظة الجلاد ، علهم يحمدونـه على نعمه ، أو يراعون أحكام الشريعة وآدابها التى دعتهم الى عبادة اللـه وحده ، والسجود لذاته تعالى حيث نصوصهم تقول " لا تسجد لهن ولا تعبدهن " (٣) .

الا أن اليهود مازالوا يصرون على أنهم شعبه المختار وحدهم ، وأن الرب تعالى خاص بهم ، وهاك نصا آخر ينسبونه الى التـوراة ، فيه يقول الـرب " لا يدخل عمونـى ، ولا مؤابى فى جماعة الرب ، حتـى الجيـل العاشر لا يدخل منهم أحد فى جماعـة الرب الى الأبد " (٤) ، ولكن لماذا غضب الله الـرب عندهم على هؤلاء العمونيـن ؟ الجواب عندهم ، أمر مادى أوقع الـرب فى الفقر ، الذى لابد منـه ، حتى عجزوا عن اطعام المخلصين له فعاقب من قصروا فيهم " لأنهم لم يلاقوكم بالخبز والماء ،

---

(١) سفر الخروج ٢/٤ .
(٢) راجع موقف القرآن من عقيدة أهل الكتاب دكتوراه مخطوطة اصول الدين القاهرة .
(٣) الخروج ٢٠/٥ (٤) التثنية ٢٣/٣

فى الطريق عند خروجكم من مصر " (١) ، وقد خيلت لهم أنفسهم المريضة أن الله يحبهم وحدهم ولأبعد حد حتى أنه ليصرف وجهه عن كل من لم يمدد لهم يدا ، وهم بهذا جعلوا " ديانتهم والاله خاصين بهم " (٢) فعطلوا كمالات الله وانقصوا سلطانه وحاولوا تقييد يديه وارادته وهذا دليل واضح على التحريف والتبديل

٣- **التشبيه** : تفجرت فيهم روح العداء الشديد للخالق جل وعلا ، وظهر ذلك بوضوح ، حين جردوا الخالق جل وعلا من عدم مماثلته لأحد من خلقه " وحرفوه من - اله - حق غير محسوس ، ولا مدرك بالأوهام الى اله شعبى يشبه زعيم الحزب السياسى ، ينزل على رأى الأغلبية ، ويسعى الى صالح الطبقة والعنصر ، ويحب رائحة الشواء ، ويلعب مع حيتان السمك فى البحر " (٣) .



وتقرر فى الأذهان أن الله واحد ، ليس كمثله شئ ، منزه عن كل أوجه المشابهة ، فهو الاله الخالق ، الباقى ، الى آخر ماورد فى الحديث الشريف ، من صفاته تعالى ، الا أن اليهودية غلب على طابع أهلها ، تجريد الاله من حقيقة التنزيه ، ووضعه تعالى فى بوتقة التشبيه فهو - عندهم - ينتقل من مكان لآخر ، يغضب ويفرح ، يصارع فيصرع ، لا يعرف بيوت الصالحين من المفسدين " .

ولذا فقد طلب - الله - الى بنى اسرائيل ، أن يذبحوا ويعلقوا ذبائحهم فوق الأعتاب العالية حتى إذا ما أراد أن يهلك الطغاة عرف بيوتهم ، التى لولا الذبائح المعلقة بالأعتاب العالية لجهلها ، ولذا يقال " ان أبرز ما

---

(١) التثنية

(٢) الدكتور/احمد شلبى -اليهودية صـ١٩٣ ، الاستاذ/محمد عزت دروزة تاريخ بنى اسرائيل من اسفارهم

(٣) الشيخ/محمد متولى الشعراوى - مريم والمسيح صـ٣ جمع واعداد عبدالقادر احمد عطا - مكتبة التراث الاسلامى ١٩٨٣م



أصابته اليهودية من تزييف هو عقيدة التشبيه وهى مشابهة الاله تعالى - للإنسان"[١] .

وهنا سؤال قد يبدو واضحا مؤداه ، هل كل المصادر اليهودية تحمل هذه الأفكار ؟ والجواب : أن توراة الأثر وتوراة التبديل -المشنا- والأسفار والتلمود كلها تحمل هذه الأفكار ، وتتردد فيها هذه المفاهيم ، والمشنا تعنى الدرس " وهى عبارة عن خلاصة من التعاليم الشفهية ، ومجموعة من قوانين اليهود السياسية والمدنية والدينية ، التى أقرها العلماء اليهود الكبار"[٢] فى تاريخهم الطويل .

ومن يطالع هذا النص يجد الدليل فى قولهم " وكان الرب يسير أمامهم فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق ، وليلا فى عمود نار ليضئ لهم لكى يمشوا نهارا ، وليلا لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب " [٣] ذلك وصف عام ، جاء فى نص يرونه مقدسا .



ثم انهم وصفوا الاله تعالى ، بعدة صفات ، تطل منها ملامح التحريف كاملة ، من هذه الصفات ما يلى :

(١) الجهل :

فهو عندهم لم يعرف جمال النور وبهاءه ، ولم يعرف وحشة الظلمة وقسوتها ، الا بعد أن عمل الليل وصنع النهار ، وخلق اليابس السائل وأنشأ الأرض والسماء ، وصور النجوم والأفلاك ، ثم خلق كل الأنفس الحية ووضع البركة فيها وثمارها ، وحدد لكل نوع ماله " ورأى الله كل ما

---

(١) الاستاذ/أنور الجندى - الاسلام والفلسفة القديمة صـ٤٦ دار الاعتصام
(٢) الاستاذ/صابر طعيمة الماسونية ذلك العالم المجهول صـ١٦٦ دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٥م
(٣) سفر الخروج الاصحاح ١٣

عمله فاذا هو حسن جدا ، وكان مساء وكان صباح يوما سادسا " [١] ولا شك أن الجهل نقص وعيب فى المخلوقات ، ويتكمل المرء بأضدادها ، فكيف به إذا نسب الى ذات البارى جل وعلا ؟ بل أن هذه الأفكار هى بذاتها فكرة البداء التى يعيش اليهود فى رحابها ، ناسبيها للخالق وهى بهم ألصق .

(٢) التعب والاجهاد :

تلفت النصوص – التى تنسب الى اليهودية المطالع اليها ، لمظاهر التحريف فيها من البداية الى النهاية ، فهى تدعى الى أن الله خلق السماوات والأرض ، وكل جندها ، ثم فرغ فيما بعد ذلك ، وقصة خلق المبادئ تمت عندهم فى ستة أيام ثم ، " فرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح من جميع عمله الذى عمل وبارك الله فى اليوم السابع وقدسه لانه فيه استراح من جميع عمله الذى عمله الله خالقا " [٢] ولاشك أن الذى ينال منه التعب ويبلغ به النصب . شخص ضعيف يتردد فى أجزائه ضعف المادة –التى خلق منها– أو قوتها– ، لايصح أن يكون الها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(٣) الرعونة واتخاذ القرار السئ :

لا تقف النصوص عند حد ما ذكرنا ، لكنها تتمادى ، فتصف الرب الخالق جل وعلا بما هو من قبيل الرعونة فى التصرف ، والسرعة فى اتخاذ القرار الخاطئ ، فقد " رأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض

---

(١) سفر التكوين ١/٣١ وقد شغل الاصحاح الاول منه بقصة خلق المبادئ كما تسميها التوراة .

(٢) سفر التكوين ٢/٢-٣

وأن كل تصور أفكار قلبه ، انما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الانسان فى الأرض ، وتأسف فى قلبه فقال الرب ، أمحو عن وجه الأرض - الأنسان الذى خلقته ، الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأنى حزنت أنى عملتهم " (١) .

هكذا رسمت النصوص غضب الرب ، وصورت سرعة ذلك الغضب الذى كان من أهم نتائجه لعن هؤلاء ، وانزال الضربات القاضيات بهم ، بل وابادتهم من فوق ظهر البسيطة بيد أن ذلك الاله ، الذى رسمته نصوصهم يعصى فيغضب ، ثم يسترضى فيلين ، بل أنه يندم على فعلته ، ويعزم على عدم العودة الى ما وقع فيه ، وما بدر منه وذلك مصدره نصوصهم التى منها قومهم .

" بنى نوح مذبحا للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح ، فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب فى قلبه ، لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الانسان لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته ، ولا أعود أيضا أميت كل حى كما فعلت ، مدة كل أيام الأرض ، زرع وحصاد ، وبرد وحر ، وصيف وشتاء ونهار وليل ولاتزال " (٢) .

بل ان المصادر اياها تؤكد على اعلان الرب ندمه ، وأنه قال لصموائيل " ندمت على أنى قد جعلت شاؤل ملكا . لأنه رجع من ورائى ولم يقم كلامى " (٣) ولا يندم على قرار اتخذه بمثل هذا الندم الا الشخص الذى انحطت مداركه النفسية ، ولايقبل اذا نسب الى متوافق الصحة النفسية فمابالك اذا نسب الى الذات العلية ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

(١) سفر التكوين ٦/٥-٨ (٢) سفر التكوين ٨ / ٢٠ - ٢٢
(٣) صموائيل الأول - الاصحاح الخامس عشر .

وأى نص مقدس ذلك الذى يسقط فى وصف الاله ، فيصفه بما لايقبله أحد من البشر ، وهو انعدام الصحة النفسية ، اذ من المعروف بدهيا أن انعدام الصحة النفسية لدى شخص ما ، يؤدى به الى التردد فى اتخاذ أى قرار ، بل وعدم انسجامه اذا اتخذه ، ولست أدرى اذا كان الاله عندهم منعدم الصحة النفسية ، فهل يمكنه أن يخلق متوافقى الصحة النفسية وقد علمنا أن فاقد الشئ لا يعطيه ولا شك أنهم وصفوا الاله العجل الذى صنعه لهم سامريهم فقط ، واستراحت له أفئدتهم المريضة وتنادى به أحبارهم دون روية أو احترام لعقل خلقه الله فيهم ليفكروا به .

أما الباحث فى مقارنات الأديان ، فانه لا يجد مناصا من أن يؤكد على نقص الأدلة عندهم ، فى اثبات صحة ما ادعاه أهل اليهودية ، من أن توراتهم سليمة ، وأن التعبير بالصحة النفسية ، من توافق أو انعدام ، انما هو بالنسبة لأمر البشر ، أما خالق رب القوى والقدر ، فلا يجوز اطلاق هذه التعابير أو المصطلحات عليه جل وعلا ، لما لها من خطورة اذا دنت من الصفات القدسية ، فالبون شاسع ، والفرق هائل ، والمقارنة حتما ساقطة

وهكذا كان الاله عندهم كثير الندم ، دائم الاعتذار ، يخلف فى كل مرة وعده ، وذلك بارز ماثل يصرخ بأن التوراة محرفة ، ولا تصح نسبتها الى نبى الله موسى عليه السلام ، وانما هى من صنع الكهنة ومن لهم فى تنصيب تلك الأفكار مصلحة ، كما انها لم تصف ذات البارى بالندم والرعونة وفقط

بل انه " قد ينتبه ياهو فى ثورته الجامحة الى خطئه فى رأى أو تطرفه فى قرار فيرجع الى حلمه ، ويعدل فى قراره ، بل قد يتبع ذلك بالندم على سرعة اندفاعه وحدة انفعاله ، يتمثل هذا واضحا فى عفوه عن عبدة العجل ، بعد مراجعة موسى وتذكيره بمواثيقه السابقة " (١) .

(١) الاستاذ الدكتور / رفقى زاهر قصة الأديان صـ٦٨

ويصف سفر الخروج هذه القصة - ، بعيدا عن مكانها الفنى والملاحظات الفنية عليها - يقول : " فتضرع موسى أمام الرب الاله ، وقال لماذا يارب يحمى غضبك على شعبك ، الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ، ويد شديدة ، لماذا يتكلم المصريون قائلين ، أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ، ويفنيهم عن وجه الأرض ، ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ، اذكر ابراهيم واسحاق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك ، وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء ، وأعطى نساءكم كل هذه الأرض ، التى تكلمت عنها ، فيملكونها الى الأبد ، فندم الرب على الشر الذى قاله أنه يفعله بشعبه " (١) .

" والى جانب ما يفيده النص السابق من عدول ياهو - اله اليهود - عن قرارته عند مراجعته وتنبيهه الى الصواب ، فانه يشير أيضا الى مرحلة من مراحل تصور اليهود للألوهية وهى المرحلة التى ضاقت فيها مداركهم عن تصور اله لا يسمعون صوته ، ولا يرون صورته فاتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار " (٢) .

وعلى هذا المنوال ظل اليهود يرسمون صور الاله ، وظلوا فى تصورهم له تعالى ، متصفا بالجسمية والقوة ، ثم متصورا فى عجل مسبوك من الذهب له خوار ، ثم ارتقى الى نوع من التجرد ، وبعد موسى استمروا فى نسبة أعمال الانسان الى الله تعالى - وحركاته ، فيذكرون أنه كان يتمشى فى الجنة ، ويسمع صوته كهبوب الرياح " وأنه كان يصارع ، ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال ، وأنه دفن موسى حين مات فى مآب " (٣) .

---

(١) سفر الخروج - الاصحاح الثانى والثلاثون
(٢) الدكتور/رفقى على ابراهيم زاهر قصة الأديان صـ٦٩
(٣) الاستاذ/عباس محمود العقاد-الله-صـ١٠٨

فهل بعد كل هذا ، يدعى أحد أن التوراة خالية من التحريف ؟! ونحن نؤكد ، أن " دين اليهودية حرف من اليهود تحريفا ينحاز الى الأمور المادية الصرفة ، ويكاد يطغى على عقل اليهود وايمانهم – بل انه طغى – ويقينهم فى قضية الغيبيات " (١) ونكتفى بما عرضناه من مظاهر تحريف فى مجال الألوهية ، ونعرض لبعض مظاهره فى مجال النبوات .

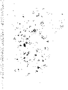
ثانيا : فى مجال النبوات :

نعلم أن الأنبياء هم خيرة الله من خلقه ، وهم الهداة اليه ، والمبلغون عنه الى الخلق وحيه ، وهم الحاملون لأمانته بين أهل الأرض وهم المصطفون الأخيار ، نزههم عن كل نقص يخل برسالتهم ، أو ينقص قدرهم ، أو يؤدى الى نفرة الناس عنهم ، فما أكملهم وقد بعثوا وما أجملهم تحت راية التوحيد قد تعانقوا وبين ساحات العدل وفوق هامات الخلق قد أعلاهم الله شأوا " الله أعلم حيث يجعل رسالته " وهو تعالى " يصطفى من رسله من يشاء " .

ويقول الامام الشهرستانى عنهم " والأنبياء خيرة الله فى خلقه وحجة الله على عباده والوسائل اليه ، وأيوب رحمته وأسباب نعمته ... فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة ، يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ، ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق ، فيرقيهم مرتبة مرتبة ، حتى اذا بلغ أربعين سنة ، وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الالهية ، بعث اليهم ملكا وأنزل عليهم كتابا"(٢) .

---

(١) الشيخ/محمد متولى الشعراوى–مريم والمسيح صـ٧٦
(٢) الامام الشهرستانى – نهاية الأقدام .



الا أن اليهودية بمصادرها الحالية ، لا تنهج ذلك ولا تسير فيه بل هى على العكس من كل ذلك الذى سبق بيانه ، فهى تخدش العصمة فى الأنبياء وتصفهم بعدم العفة ، وتجعلهم كذبة مروجى أكاذيب ، طلاب الحياة مهما كانت رخيصة ذليلة ، بل أكثر من ذلك ، فهى تدخلهم فى صراع رهيب مع الرب ، تكون لهم الغلبة فيه حينا ، وعليهم حينا آخر ، وهذا ما نوضحه على النحو التالى : كما هو وارد فى كتبهم

١- وقوعهم فى الكذب :

تنسب الأسفار اليهودية ، الى الأنبياء ما يخل بعصمتهم ، ومن ذلك تعمد الكذب ، فهى تنسب الى :

أ- آدم  ، أنه وقع فى الكذب ، وذلك حين يسمى امرأته حواء امرأة مرة ثم حواء أخرى ، " فهذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا " [١] ثم يرجع آدم مباشرة عن كل ما أدلى به ، ويكذب فى قوله الذى سلف " ودعا آدم اسم امرأته حواء " لأنها أم كل حى وصنع الرب الاله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما " [٢] وكذلك الأكل من الشجرة ، وشعوره بالضعف ، ومحاولة القاء التبعة على غيره وما ذلك الا نوع من محاولة التخلص من المسئولية ، والدفع بها الى غيره ، وهذا ما تجل عنه صفات الأنبياء ، والقائل به لاتصح نسبته الى خبر السماء ، فضلا عن الكذب المتعمد ذاته ، الذى لو اقترب منهم لرفعت الثقة عنهم ولصار كل ما يبلغونه أمرا مردودا سواء بما يبلغون أو ماينقلون عن من أخذوا عنهم ، أو من ارسلوا اليهم وهذا مادفعه الله عنهم وجعلهم فى أعلى مقام بشرى .

---

(١) تكوين ٢/٢٣-٢٤

(٢) تكوين ٣ ، ٢٠-٢١

ب- ابراهيم عليه السلام :

يصفه سفر التكوين بأنه كذاب مدلس ، يحب الحياة مهما كانت رخيصة مستذلة ، ويطلق عرضه رغبة فى المال ، وطمعا فى نسائم الحياة ، وذلك حين هاجر ابراهيم عليه السلام ، نحو الجنوب " وحدث جوع فى الأرض ، فانحدر ابرام - ابراهيم - الى مصر ليتغرب هناك " وكانت امرأته جميلة المنظر ، حسنة الملتقى - ساراى - فقال ابراهيم لساراى - سارة " انى قد علمت انك امرأة حسنة المنظر ، فيكون اذا رآك المصريون ، أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى انك أختى ، ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك " (١) .

ولا تتوقف الأمور عند هذا الحد ، اذ مجرد حديث النفس ليس معناه الوقوع فى الخطأ ، ولكن القصة تريد أن تحبك النصوص عقدتها وتسير بها أبعد شوط يمكن أن تقطعه فتقول " فحدث لما دخل ابرام الى مصر ، أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة الى بيت فرعون ، فصنع الى ابرام خير بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء وأتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرام ، فدعا فرعون ابرام ، وقال ما هذا الذى صنعت بى ؟ لماذا لم تخبرنى انها امرأتك ؟ لماذا قلت هى أختى ؟ حتى أخذتها لى لتكون زوجتى ، والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب ، فأوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له " (٢)

---

(١) سفر التكوين ١٢/ ١٠-١٣

(٢) سفر التكوين ١٢/١٤-٢٠ وقد ثار بسبب تلك المشكلة صخب واسع وذلك حين قام فضيلة المرحوم الشيخ عبدالوهاب النجار بنشر كتابه قصص الأنبياء ، ويمكنك الرجوع الى الكتاب فى طبعاته الثالثة والرابعة ، فهو قيم فى بابه ، بصرف النظر عن ما فيه من مثالب دافع عنها مؤلفه رحمه الله .

وهكذا رسمت التوراة التى بين أيدى أصحابها ، أسوأ ملامح لأنبياء الله وقد وصفتهم بالكذب والخيانة والمتاجرة بالعرض ، وهذا مالا يقره عقل سليم ، ولا يرتضيه ضمير يقظ ، ولا ينقل مثله إلا عن من عرفوا الذلة والمسكنة ، وتاجروا بعواطف الناس ، وكانوا كالغانية اللعوب ، التى لا تفتر عن استغلال امكانياتها للوقيعة بصيد وراء أخر ، أما أنبياء الله تعالى فحاشاه تعالى أن يرسلهم وبهم شئ من الوهم ، وما ذلك إلا دليل واضح على تحريف التوراة الإلهية ، توراة موسى ﵇ ، والزج بألواحه فى مجاهل ، وبصحفه فى مزالق ، وذلك مما جعل الحاجة ملحة لظهور نبى جديد .

٢- نسبة الجرائم الخلقية إليهم - الزنى -

تقص توراتهم التى بين أيديهم الآن ، أنه بعد خراب المدائن التى كان يقيم فيها لوط - ﵇ - مع قومه ، وبعد أن أمطر الله تعالى على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عنده ، وقلب تلك المدن ، وخرب كل الدوائر عندئذ " صعد لوط من صوغر ، وسكن فى الجبل وابنته معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقى أبانا خمرا ، ونضطجع معه ، فنحى من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها " [١] .

وهكذا تصور الأسفار أن الكبرى أدت مهمتها وفضت خاتمها عن طريق نائم سكير ، لا يشعر بشئ حوله ، ولا مادار بجواره ، ويبدو أنها

---

(١) سفر التكوين ١٩ / ٣٠ - ٣٤

عرفت المخادع الدافئة ، فقصت ملذاتها على الصغيرة ، وقررتا أن تقوم الصغيرة بنفس الدور التى قامت به الكبيرة مع لوط عليه السلام ، وهذا ماتصر عليه التوراة الفاجرة التى بين أيديهم ، وحاشا لرسل الله وأنبيائه من ذلك . فتقول التوراة : " وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة ، انى قد اضطجعت البارحة مع أبى ، نسقيه خمرا الليلة أيضا ، فادخلى اضطجعى معه ، فنحى من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت أبنتا لوط من أبيهما " فولدت البكر أبنا ،ودعت اسمه موآب ، وهو أبو الموآبين الى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى ، وهو أبو بنى عمون الى اليوم " [١] .

وهكذا تجرأت المصادر اليهودية ، مرة أخرى على أنبياء الله تعالى فجردتهم من أهم صفاتهم التى يجب أن يتحلوا بها ، ويتجمل بها أصحاب الأخلاق العادية ، ويترتفع عنها من هم على قدر من الاحساس بالإنسانية ، فكيف بها إذا نسبت الى أنبياء الله تعالى ، لاشك أنها تدل على التحريف فى الكتب المقدسة ، ومظاهر حية تصرخ فى وجدانات العقلاء بكذب دعواهم ، والتى يعاندها العلم التجريبى أيضا .

ذلك أن العلم يقرر ،عدم إمكانية النائم على مواصلة اللقاء الجنسى والسكران أكثر فقدانا لامكانياته تلك من سابقه ، فمن المعروف علميا ، أنه حين يحاول الرجل آداء وظائفه البيولوجية مع أنثاه أو العكس ، فإن المخ لابد أن يصدر إشارة مخية من خلال ملايين الأنسجة التى يتحكم فيها ، وتلك الإشارة تأتى الى الأعضاء التناسلية ، فتحتقن بالدماء ، وتبدأ الأوردة

(١) سفر التكوين ١٩ / ٣٤ - ٣٨

والغدد كل فى مجال عمله ، ويتم التعاون لاكمال الوظيفة الفسيولوجية ، فاذا ما شعرت الأعضاء التناسلية بواجبها الملقى عليها كافحت فى سبيل البقاء فينتصب العضو الذكرى عند الذكر ، وتتسع دائرة الرحم العنقية عند الأنثى ، وبالتالى يتم الأمر المراد ، وتنتهى المهمة عند حد الافراغ البدنى والعاطفى .

اذن لابد فى هذه الحالة من وجود المخ اليقظ ، الذى يعطى تلك الإشارة ، ويضغط عليها ويظل يتابعها حتى يتم القيام على الوجه المنوط به ، وهذا كله لا يتوفر فيمن لا يعلم بما حوله ، ولا من على مهمات خاصة به يساومه ، لأنه غائب عن كل شئ ، كنائم ليس فى نومه إلا الرؤى المفزعة ، أو أمنيات الحلم اللذيذ ، والعهد القديم يؤكد على أن لوطا لم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وهذا مظهر تحريف للنص ، وتدليس على الفكر ، مما يتنزه عنه خبر السماء ، ولا يوجد فى أحلام النائمين ، وأهل الفسق والفجور والذين ملأوا توراتهم بهذا الزيف ، وأشبعوها من هذا البطلان .

٣- الحقد والحسد (١)

" لم ينج موسى نفسه من مفتريات اليهود ، فزعموا أنه قتل أخاه هارون تبرما به ، وحقدا عليه لما رأى من تعلق قلوب بنى إسرائيل به والتفافهم حوله _" (٢) بل أن مقام النبوة عندهم هبط عن منزلة البشر العاديين ، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يصورهم اليهود بأنهم " أزيار **نساء** " عباد شهوات ، الحقد بينهم يجرى ، والحسد فيهم طبع

---

(١) الحقد: هو سوء الظن فى القلب على الخلائق لأجل العداوة صـ٨١ التعريفات للجرجانى باب الحاء

الحسد: هو تمنى زوال نعمة المحسود الى الحاسد صـ٧٧ المرجع السابق باب الحاء

(٢) الدكتور / رفقى زاهر - قصة الأديان صـ٧٥

أصيل حتى أن داود لا يتورع عن محاولة القضاء على واحد من قواد جيشه ليفوز هو بزوجه ، وكأن الشهوة وصلت بداود الى حد النشوة العارمة ، واستبد به الحقد لدرجة أن يسلط نفسه على واحد من مساعديه ، بغية الفوز بزوجه ، وما قصة أوريا عن ميدانهم ببعيدة ، وقد بذلوا قصارى جهودهم ، واثبتوا فى صلب توراتهم ، أن داود النبى تفانى فى القضاء على واحد من قواد جيشه المخلصين ليفوز هو بزوجه الجميلة ، ناسين أن هذا لايتفق مع عصمة أنبياء الله المرسلين لهداية الخلق أجمعين الى الله رب العالمين .

وتصور النصوص تلك بأن داود تحكم فيه الحقد ، لأن واحدا من قواده يتمتع بزوج على قدر عال من الجمال ، ودفعه ذلك الحقد الى التخلص منه بصورة أو بأخرى ومعنى هذا أن داود - عندهم - أستباح دم واحد من قواده ، ليفوز - داود - بزوج القائد ، وذلك ما يجل عنه مقام النبوة ويرتفع عنه مكان الأنبياء ، ويدل على تحريف كامل للنص الحامل لتلك الأفكار ، والمحزن حقا أن بعض الكتاب المسلمين نقلوا فى التفسير بعض تلك الخرافات ، وعملوا على تفسير النص القرآنى بها " [١] .

وهكذا وقعت النصوص اليهودية فى التحريف ، وبدالك بعض مظاهره ، فى مقام الألوهيه والنبوة ، وكان الكهنة يعلمون الناس ذلك ، وما يزالون فليس للدين من يحميه إلا تلك النصوص التى يرددها الكهان ، ويتلوها أفراد قليلون من بعدهم ، وكان المتأملون من بنى إسرائيل لا يبتلعون تلك النصوص ، ولا يجترونها ، وكانت دائما تحلق عقولهم نحو

---

(١) لم أشأ مواصلة المسيرة فى بيان وقوع بنى اسرائيل فى أنبياء الله فى هذا الكتاب ، لانى عاقد العزم - ان شاء الله - على الكتابة فى " كتاب مستقل عن " الديانة اليهودية بين الدين والعقل " وسأتتبع فيه تلك الخطوات ، وأبين مكانتها من الفكر الانسانى ، وبعدها عن الوحى الالهى كما سأكشف النقاب عن تأثر بعض المسلمين بمثل هذه الأفكار وأسبابه .

مصدر التنزيل وتتطلع النفوس منهم الى منزلته ، وكانوا علـى أمـل فيـاض فى أن يبعث الله لبنى إسرائيل نبيا منهم ، يعيد لنصوص التوراة قدسيتها ، ويبعد عنها الزيف والبطلان ، فكانت بعثة عيسى عليه السلام اليهم مجددة لعهود الله مع بنى إسرائيل ، ولتصحح المسار الناموسى فيمـا هـو متـأمل بينهـم " ونلمح ذلك من قوله تعالى " ثم أرسلنا رسلنا تترى "

ثالثا : فكرة الخلاص أو المسيح المنتظر :

سبق الحديث عن فسـاد الحيـاة اليهوديـة ، وأن وجـود عيسـى عليه السلام ، كـان ضـرورة لاصـلاح ذلـك الـذى فسد عندهم ، كمـا سبق الحديـث عـن تحريف التوراة ، ومظاهر ذلك التحريف ، وتأكد لدينا أن وجود عيسى فـى بنى إسرائيل ، كان ضرورة لتصحيح مسـار تلـك النصـوص ، وجـاء دور فكرة الخلاص ، أو المسيح المنقذ الموعود به فى الكتب التى بيـن أيديهم ، وسنبسط الحديث عنها ، لنوضح أنها كـانت بمثابـة ارهـاص واضـح لنبـوة عيسى عليه السلام. الذى جاء لخراف بيت اسرائيل الضالة .

وقع اليهود فى الأسر البابلى ، ثم طردوا من ديارهم ، خاصة بعد أن فسدت حياتهم ، وتهاوت معايير الأخلاق عندهم ، وراحـت منهم نصـوص دينهـم ، فطمـع فيهـم غيرهم حتـى أنـه استزلهم ، وكـانوا يلاقـون العنـت والثبور على أيدى أعدائهم ، فتعلق أملهم بقـوى يعيد اليهم مـا سلب منهم ويسترد- من ايدى خصومهم ماكان لهـم ، ويرفـع عنهم الذلـة والمسكنة ، فشاعت فكرة المنقذ والمخلص ، وكـانت تلـك الفكـرة تخبـو حينـا وتظهـر أحايين .

ولما اشتدت بهم الغربة ، وزاد الطمع فـى الأمل ، برزت فكرة الخلاص هذه ، بشكل قوى وتعلق بها كل يهودى فى أرض المهجر ، حتـى صـارت السلوى والموطن ، وأهم قواعدها عندهم هى :

١- ظهور مخلص قوى .

٢- يبعد بهم عن المحن .

٣- يعيد إليهم أرض الميعاد .

٤- ينتصرون به على أعدائهم .

٥- يستذلون به خصومهم .

وتبلورت هذه الأفكار فى ظهـور مخلص لهم مـن المحن والشدائد ، يعيد إليهم أرض الميعاد ، أو يعيدهم إليها ، التى خرجوا منها وهم كارهون ، ذلك المخلص والمنقذ الذى ورد ذكـره فـى نصوصهم ووضعوه بخيالهم هو المسيح المنتظر أو المنقذ والمخلص ، وراحـت تلك الفكرة ترسخ فـى أذهـانهم ، حتـى صـارت جـزءا مـن عقيدتهم ، بـل صـارت عقيدة ثابتـة ، يطلقـون عليهـا عقيدة ، المسـيح المنتظـر أو المسـيح المنقـذ ، أو عقيـدة الخلاص ، ومهما اختلفت طوائفهم ونصوصهم فـى التسمية فانهـا مستقرة على المدلول . فقد اعتقد اليهود أن عودتهم الى أرض الميعاد ، سـوف تتـم على يد المسيح المنتظر ، ويقصد به المنقـذ أو المخلـص ، اذ سـوف يبعثـه من صهيون من نسـل داود عليه السلام لينقذهم من المحـن والشدائد والهـوان ، جزاء عصيانهم أوامر الله ومروقهم عن طاعة أنبيائه ، وامعانهم فى الآثام والموبقات ، وينتقم لهم من جميع الشعوب ، ويفرض عليها سلطان اليهود"[١].

---

(١) الدكتور /على محمد جريشة ، محمد شريف الزيبق- أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى صـ١٥٥

وكانت هذه العقيدة ثابتة القدم راسخة الشيوع ، " قبل ميلاد المسيح بردح من الزمن " [١] إلا أن اليهود وضعوا لها سندا من النصوص فقد جاء فى التوراة " أنه ظهر فى مملكة اسرائيل ، فى عهد الملك أخاب ابن عمرى النبى ايليا التشبى ، داعيا الى تطهير البلاد من أدران الوثنية والمفاسد الخلقية التى تردى فيها المجتمع الاسرائيلى ، الا أن دعوته صادفت ازورارا وانكارا ، فصعد الى السماء فى غمار عاصفة عاتية ، مستقلا مركبة نارية ، تجرها خيل من نار كذلك ،... ويعيش اليهود على أمل هبوط النبى **ايليا** من السماء بشيرا بمقدم المسيح المنتظر هاديا ومخلصا " [٢]

وقد كان سفر الملوك حاميا لتلك العقيدة واصفا اياها معرفا بها ، حتى أنه جعل من وظائف المسيح المنتظر ، أن يدفع عنهم الأذى ويعيد اليهم الأمل السليب ، فى أرض الوطن المنشود [٣] ومعنى هذا أن فكرة الخلاص كانت بمثابة ارهاص واضح لمقدم نبى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام .

ولم تكن عقيدة المخلص عندهم ، وليدة جيل وحده ، وإنما كانت قاسما مشتركا ، وأملا مرتقبا يسعد به كل يهودى ويستعد له ، ويهنأ به كل جيل من أجيال بنى اسرائيل ، وكانت تمثل فى " **أذهان** الناس صورة مثلى لمخلص أعظم ينجى الناس من الشر ويدفع عنهم جيوش الأذى ، ويفسح فى صدورهم البشرى لمستقبل أفضل فى عالم أعز ، وكانت هذه الفكرة فكرة المخلص الأعظم قدرا مشتركا بين كل الناس ، وجميع الأجناس ، يتساوى فى ذلك من له دين سماوى ، أو من يعتنق دينا وضعيا ، حتى

---

(١) الاستاذ/العقاد ، وعبقرية المسيح صـ١٠ ط الثالثة دار النهضة ١٩٧٣

(٢) الدكتور / على جريشة ، أساليب الغزو الفكرى صـ ١٥٦ .

(٣) سفر الملوك الثانى الاصحاحات الأول والثانى والثالث .

صارت فكرة الرسول المخلص وظهوره فى زمن مقبل عقيدة راسخة ، تمثل الأمل فى الرخاء والخير ، والتخلص من الشرور والآثام ، وكان علم مقارنة الأديان ، حريصا على تسجيل هذه الظاهرة ، فى بيئاتها المختلفة ، وملاحقتها فى أطوارها فأظهر لنا أن شيوع هذه الفكرة ، ظهر على عقائد القبائل الحمر فى القارة الأمريكية ، وأن القبائل ***التى*** تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الأمريكتين " (١) .

وبناء على هذا نرى أن عقيدة المنقذ والمخلص راحت تنمو فى وجدانات الناس ، كلما تقدمت بهم الأيام ، وحصدت فيهم السنون ، وطويت من أعمارهم سنوات الأنتظار ، ويعلل الأستاذ العقاد أسباب شيوع هذه العقيدة لدى اليهود وغيرهم بأنها نوع من الرجاء والأمل ، فيقول " وليس فى هذا عجب ، لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية ، يبثها الخالق فى ضمير خلقه ، ويفتح لهم بها سبيل **الإجتهاد** فى طلب **الكمال** ، والخلاص من العيوب (٢) ومثل العقاد فى هذا الشأن الأستاذ / أحمد امين فى كتابه المهدى والمهدوية " والرأى الذى مال اليه العقاد هو نفس الرأى عند أحمد أمين .

وقد عدد الأستاذ / العقاد طوائف كثيرة آمنت بهذه العقيدة قبل بعثة عيسى عليه السلام من هذه الطوائف على سبيل الإجمال :

١- القبائل الحمر فى القارة الأمريكية .

٢- المصريون القدماء قد وضعوا عدة صفات للمنقذ منها :

أ- يلقى بردا على اللهيب .

---

(١) الاستاذ / عباس العقاد - عبقرية المسيح صـ١٠
(٢) المرجع السابق للاستاذ العقاد - عبقرية المسيح صـ١٠

ب- يقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه .

جـ- يتكفل برعاية جميع الناس .

٣- البابليون ، والمسيح عندهم يقال عليه " مردخ " وظلوا على تلك العقيدة حتى سقط حصنهم المعروف ولم يأت مردخهم المنتظر .

٤- المجوس : " كانوا يؤمنون بظهور رسول من اله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد إنسان " ثم اختلفوا فيه " وقيل أنه هو زراد شت رسول المجوسية الأكبر الذى يرجعون إليه بتفصيل الاعتقاد فى اله النور واله الظلام " وقد تخلفت هذه العقيدة الى مابعد اليهودية والمسيحية والإسلام "(١)

٥- اليهود :

" وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده . بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول فردد الشعب الاسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك الى أمير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك ، وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الإيمان بالمسيح بمعنى الملك ، الى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار ، أو المنذور للهداية والصلاح " (٢) .

وظلت هذه الفكرة تراود أصحاب تلك العقيدة لسنوات طوال ، وتلعب بعقول كبارهم وتلتهم الأيام مجهودات الألباب ، وكم بذل فيها الجهد وضوعف المجهود ، وتساقط العرق من جانب الكثيرين ، حتى بعد وجود المسيح نفسه عليه السلام ، وراح اليهود يعالجون أمورهم من خلال تصورهم لهذه الفكرة ، وايمانهم بتلك العقيدة .

---

(١) المرجع السابق صـ١٠ وحياة المسيح نفس الموضوع والمؤلف
(٢) الاستاذ/ عباس محمود العقاد - عبقرية المسيح صـ١٢

ولقد أثبت البحث أن اليهود بعد أن بعث الله عيسى إليهم أنكروه ، وظهر فيهم من ينكر عيسى عليه السلام جملة ولا يؤمن به على وجه من الوجوه ، وظلوا على الأمل فى ظهور عيسى آخر - مسيحيا آخر - ومازالوا ينتظرونه ويأخذون من هذا الإنتظار دليلا يدفعهم الى عدم الإيمان بنبى الله عيسى عليه السلام ، وقد أثبتته نصوص التوراة الصحيحة ، كما أعلن عنه الانجيل الذى تلقاه عيسى عن ربه ، وأكده القرآن الكريم .

بل ان اليهود انكروا وجود عيسى على الإطلاق ، ويمثل هذا الرأى أصدق تمثيل يهود الغرب ، الذين يأخذهم عداء الموطن الى هذا الموقف ، ومازالوا ينقسمون على أنفسهم فى نكرانهم المسيح عليه السلام ، وانتظارهم غيره مما يدعونا الى وقفة منهم الآن ، فنرى أن محاولاتهم تنقسم الى ما يلى :

(أ) فريق يقرر أن المسيح الموعود به فى الكتب لم يأت بعد ، وأنهم فى انتظاره ، وحجتهم فى ذلك ، أن الصفات التى وردت عنهم فى الكتب للمسيح المنتظر ، لم تنطبق على عيسى تمام الإنطباق وبالتالى فعيسى لا يستطيع أن يدعى أنه المسيح المنتظر ، ولايظنه وهل ظن عيسى أنه هو نفسه المسيح المنتظر ؟ لقد شك الناس فى ذلك ، ومازالون يشكون مستندين الى أدلة قوية فهو لم يصف نفسه قط بأنه المسيح ، وهى كلمة تعادل كلمة كريستول اليونانية " (١).

وليس هذا فقط بل إنهم يرون أن " أكثر النصوص صراحة فى نسبة صفة المسيح الى عيسى ، هى أقلها صمودا أمام النقد ، ونضرب على ذلك

(١) الاستاذ/شارل جنيير -المسيحية نشأتها وتطورها صـ ٣٨

مثلا بالتصريح المعروف الذى يروى أنه أدلى به أمام الكاهن " قيافا حين سأله قائلا له ، " أألت المسيح ابن المبارك ؟ فقال يسوع أنا هو " وهو نص لايعتمد على سند ما ، ويغلب على الظن أنه لا يتجاوب مع واقع التاريخ؟[١]

وهؤلاء الذين ينكرون وجود المسيح الى الآن ، لهم حجج لسنا فى حاجة الى مناقشتها أو عرضها ، خاصة وقد فصل القرآن الكريم فى هذه القضية ، بحكم واضح محدد ، وأكد على أن عيسى عليه السلام ، هو نبى بنى اسرائيل ، الموعود به والذى بعثه الله بين ظهرانيهم ليتم حلقة من رسل الله لبنى اسرائيل ، من نسل اسحاق الى نسل اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فى شخصية المصطفى سيدنا محمد ﷺ .

وهناك آيات كثيرة ، خلعت على عيسى عليه السلام ، لقب المسيح أو وصفته به ، أو كنته بابن مريم ، أو ذكرته باسمه وهو النبى المعروف لدينا جميعا كمسلمين لاخلاف بيننا فيه ، أما محل الخلاف فهو عند المنتظرين له والمنتسبين اليه " وقد أطلق الله تعالى على المسيح المبشر به ثلاثة أسماء، المسيح ، وعيسى ، وابن مريم ، فالمسيح لقبه ، ومعناه الممسوح من الذنوب أو لأن من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المبارك ، وعيسى اسمه وابن مريم كنيته " [٢] ومن الشواهد العربية على ما نظمه الشيخ ما قاله ابن مالك النحوى الشهير فى ألفيته تحت باب العَلَم حيث قال :

واسما أتى وكنية ولقبا   وأخرن ذا ان سواه صحبا

قال تعالى " ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل " [٣] علما بأن الرأى الذى يؤكد على عدم وجود المسيح المنتظر

---

(١) المرجع السابق صـ٣٩ ، انجيل مرقس ٦١/١٤ .

(٢) الشيخ محمد متولى الشعراوى - مريم والمسيح صـ ٣٦ (٣) سورة المائدة الآية ٧٥

وعدم انطباق صفاته على عيسى عليه السلام ، معارض تمام المعارضة برأى انجيلى ، وقع اتفاق بينه وبين ما حكاه القرآن الكريم ، وان كان هذا الانجيل غير معترف به من جانب المسيحيين أنفسهم الذين يدعون نسبتهم الى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام .

ذلك الأنجيل هو انجيل الأبيونيين ، نسبة الى زعيم الفرقة أبيون " ويقرر هذا الإنجيل جميع شرائع موسى ، ويعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم ، وينكر ألوهيته ويعتبره مجرد بشر رسول ، وهو فيما يتعلق بشخصية المسيح يتفق مع العقائد الإسلامية المستمدة من نصوص القرآن الكريم " (١) .

إلا أن هذا الانجيل الأبيونى وأمثاله (٢) التى ترفضها القرارات الكنسية ، قد تفقد حرارتها ، وقد يرقد فى التراب جمالها ، وهذا ما أتاح لخصوم عيسى عليه السلام أن يعلنوا أن " النتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هى أن عيسى لم يدع قط أنه المسيح المنتظر " (٣) ، وقد تولد عن هذه الفكرة خيال قوى يؤكد أن اليهودى سوف ينتظر مسيحا أخر ، يقال له المسيح المنتظر ، وتنطبق عليه صفاته ولو جاء هذا المسيح لأنكره اليهود أيضا ، لأن " اليهود لايؤمنون ان المسيح قد جاء وينتظرون أن يأتى المسيح ، بينما الإسلام يؤمن أن المسيح قد جاء " (٤).

---

(١) الاستاذ الدكتور / على عبدالواحد وافى - الأسفار المقدسة صـ٩٥

(٢) ترفض القرارات الكنسية الاعتراف بانجيل برنابا بأى شكل وتنكر كذلك انجيلا آخر لمتى وكذلك انجيل الأبيونين وتصر على رفضها لكل ما يؤكد على بشرية المسيح وينكر أولوهيته كما يرفضون كل مصدر يعترف برسالة سيدنا محمد ، راجع محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبوزهرة والأسفار المقدسة للاستاذ/الدكتور على عبدالواحد وافى

(٣) الاستاذ/شارل جنيبر - المسيحية نشأتها وتطورها صـ٣٩

(٤) مجلة المصور المصرية ١٢ ابريل ١٩٩٦ العدد ٣٧٣١ مقال البابا شنودة صـ٣٢ عمود ٢

ولاشك أن تلك الصفات التى يتمسكون بها ، ويدعون أنها مقدسة عندهم ، قد وعتها حوافظهم عن أنبيائهم ، وتمسكوا بها " وكان أنبياؤهم قد بشروا بذلك المسيح ، قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، فاذا هم يتدرجون - فيها - من وصفه بالقوة والبأس الى وصفه بالرحمة والحنان ويتمثلونه وديعا رضيا ، يتجافى صهوات الخيل ويمتطى فى موكبه حمار ابن أتان"(١) .

وربما أنكره المنكرون ، لأن تلك الصفات لم تكن فى ظنهم مطابقة له ومنطبقة عليه " وقد جمعنا فيما تقدم جميع الملاحظات التى أوردها المتشككون فى وجود السيد المسيح ، وهى - فى نظرهم - جديرة بالتمحيص لأنها وثيقة الصلة بأسانيد المقارنة بين الأديان ، ويتوقف على تقدير قيمتها تقويم الكثرة الغالبة من تلك المقارنات " (٢) .

وأيما كان الأمر ، فان الجماعة التى تشككت فى أمر عيسى عليه السلام من حيث وجوده ، أمرها لا يعتد به عندنا، ولاوزن له لدينا ، وان كان لها فى أذهان الغرب القدر المعلى ، وأثرها على الغرب واضح جلى ولها فى أذهان مفكرى أوربا بصفة خاصة ، مكان فسيح من تفكيرهم ، وأغلب الظن لدى الباحث ، أن موقف رجال الكنيسة والمنتسبين الى المسيحية هو الذى دعى القوم المنكرين لهذا الموقف الغريب ، بل وجعلهم يجدّون فى البحث عن أدلة تقوى بها ظنونهم وتقبل بها شبههم وقد شاركهم القسس هذا الفعل الغريب وكان معهم اليهود ورجال الكنيسة فشوهوا جمال الدعوة النصرانية ، وأتاحوا الفرصة لخصوم الأديان ، أن ينكروا المسيح ويدعوا

---

(١) الاستاذ/ عباس محمود العقاد - الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية

(١) المرجع السابق صـ ١٥٠

انتظارهم مسيحا آخر لا يقولون فيه ما قالوه فى نبى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم . وربما يقال " المسيحيون العرب لاينضمون إلى مثل هذا الاتجاه ، انما قد يكون اصحاب هذا الفكر من المسيحين الغربيين او مؤيدى الصهيونية من الغرب [١]

(ب) فريق آخر قرر أن عيسى عليه السلام هو الذى أتى ، الا أن له صفات عدة فى الكتب التى بأيديهم منها ماهو منطبق عليه ، ومنها ماهو غير منطبق ، ونحن من جانبنا لسنا فى حاجة الى عرض هذا الرأى إلا أنه يهمنا أن نقرر هنا مايلى :

١- أن فكرة المسيح المنتظر أو الخلاص والمنقذ ، كانت شائعة بوضوح قبل بعثة عيسى عليه السلام ، وكانت كلها ترتسم فى أذهان الناس وتميل بهم نحو عيسى عليه السلام وكانت تمهد لوجوده .

٢- أن عالم زمانه ، كانوا على يقين من قرب موعده ، وأنهم هيئوا أنفسهم له ، واستعدوا للسير معه ، فلم يكن المسيح معلما فحسب ، بل كان مثالا حيا لتعاليم حية ، تطالب الإنسان كقاعدة ذهبية ، أن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به " [٢] وفى ذلك تمام التهيئة له ولو من خلال النصوص التى تطلعوا اليها ، وغفلت قلوبهم عنها ، وغفت قلوبهم فى لذيذ حلمها وامتصوا منها الأمل ، وورثوا من خلالها حب المسيح المنتظر .

٣- أنه سواء التزم اليهود ، بأن عيسى هو المسيح المنتظر الذى يأملونه أولم يلتزموا فان هذا وذاك عليهم وليس لهم " فهم : حقا يفسرون شيلون

---

(١) مجلة المصور المصرية تحقيق صحفى بعنوان الباب شنودة يرد على باب الفاتيكان ويقول " اليهود لايؤمنون برموز العهد القديم صـ ٣٢ وما بعدها عمود ٢ .

(٢) الدكتور / رؤوف عبيد - مطول الانسان روح لاجسد ط٣ جـ١ صـ١٢٣

بالمسيح ، ولكن لا يقولون ، انه المسيح عيسى ابن مريم ، بل هم ينتظرون مسيحا آخر ، يكون ملكا عليهم لأن المسيح معناه فى لغة اليهود السلطان ، سواء كان بارا أو فاجرا " (١) بجانب أن اليهود " لايؤمنون بأن المسيح قد ولد من عذراء ، وهناك نبوءة فى العهد القديم تقول بذلك فى سفر إشعيا النبى ولكن اليهود يحاولون ان يترجموا الكلمة الى فتاة بدلا من عذراء أى من جهة السن وليس جهة البكورية (٢) .

٤- ذكرت فى المسيح الرأى وناقشت وجهات النظر ، ودعمت ما ملت اليه بالأدلة ، أما منكروه فعليهم أن ينتظروا مسيحا أخر أو لاينتظروا ولهم أن يؤمنوا به أو لا يؤمنوا ، كل ذلك مرده الى أمر واحد ، هو علمهم ومدى استعدادهم لقبول الحق ، وسماع الصدق ، والعمل بما حملته اليهم النصوص ، واليهود وبعض مسيحية أوربا فى ذلك القول سواء .

٥- أن المجتمع الاسرائيلى ، قبيل بعثة عيسى عليه السلام ، كان فى حاجة ماسة الى دعوة أخرى ملهمة ، يكون مصدرها الخالق جل وعلا ، تعيد لقدسية الحياة ماولى عنها ، وترجع اليها مافرط منها ، فكان لابد من شكل جديد ، وبملامح غير التى ألفوها ، وكانت حالهم بحاجة للجديد الآتى من بعيد فى شكل نبى كريم ، فمن قبله اختلفت الأمة الاسرائيلية فى أمر دينها وتركت دين ربها حيث " تحجرت العقائد الوثنية والإسرائيلية ، وأصبحت التقوى علما بالنصوص - دون عمل بها - وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب المظهر على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها وتحولت الى

---

(١) الشيخ/عبدالرحمن الجزيرى - أدلة اليقين فى الرد على كتاب ، ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين فى الاسلام ط١ صـ٣٢٦

(٢) المصور مقال البابا شنودة أبريل ١٩٩٦ صـ ٣٢ عمود

أشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب ، دنيا أفتها الترف ، ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء وضمير خواء " (١) .

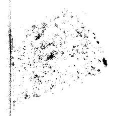
وأمسى الناس على أمل ينتظرونه ، واصلاح يأملونه ، ونبى جديد يسيرون خلف خطاه ويتبعون ظله ، ويبحثون عن بعيد يتعلقون به ، فكانت الضرورة ملحة فى أن يأتى عيسى عليه السلام ، ومهدت تلك الفكرة لقدومه ، وكان عيسى دعوة خير ورجاء أمل ,ضمير أمة تتعلق به وتهتف له ، وقد صدق الرسول ﷺ سيدنا محمد بن عبدالله النبى الخاتم ، وهو يشرح معالم طبيعة بنى اسرائيل فيقول عليه السلام :

" كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى وانه لا نبى بعدى " (٢) وهكذا كانت عقيدة المنقذ والمخلص ، وفكرة المسيح المنتظر ، عاملا مهما من عوامل الأرهاص القوى بمقدم عيسى النبى ، وكانت ارهاصا مباشرا ببعثته عليه السلام ، وهو ما سنفرغ له راجين من المولى القدير العون .

---

(١) الدكتور / عثمان أمين - الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة دار القلم صـ٣١٢

(٢) صحيح مسلم جـ ٣ كتاب باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء صـ ١٤٧ ط الحلبى .



الفصل الثالث

معالم بعثته

تمهيد

سلف الحديث عن الارهاصات التى كانت تجتاح بنى اسرائيل وتهئ لظهور نبى جديد ، وتوحى بأن ظهوره صار وشيكا ، حتى بات الناس على أمل انتظاره ، وغلب على المتأملين صباح مضئ تعلو فيه مملكة الله وتتحقق ، فطالما انتظروا " مسيحا " ملكا من قبيل ملوكهم ، الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ، ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب ، أو المسحاء ، وكانوا يترقبون رجعة الدولة على يد فاتح ظافر ، من أبناء داود يجرد الكتائب ، ويجتاح القلاع والدساكر ، ويقمع أعداءهم بالنار والحديد"(١) .

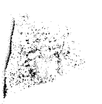
وكانت صيحة الأمل فى المنقذ المخلص ، كالغانية التى اغتنت بجمالها الخلاب ، فراحت تأخذ من الحالمين ألبابهم ، وهكذا كان الشأن هنا ، ويبدو أن المسيح الظافر القوى ، الذى انتظروه من مسحاء العروش والتيجان لم يكن ممكنا ، خاصة بعد أن هوت بلادهم تحت أقوى دولة آنئذ وهى الدولة الرومانية ، فكان لابد من مسيح آخر بصفات أخرى فيها الوداعة وربما الانزواء ، حتى لو كان فى عالم الروح ، ولذا فهم ترقبوه مسيحا فى عالم الروح ، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر انما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهر " (٢) وفى هذا لون من ألوان التطور فى شأن المنتظر ، من بشر ذى سلطان مادى قوى الى شئ روحى ولاشك أن بناء الأمل على ما يتوقع شئ محبب الى النفس الطموح



---

(١) الاستاذ/ عباس محمود العقاد – الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية صـ ١٤١ .

(٢) المرجع السابق صـ ١٤١ ، ١٤٢ .



الفطنة ، وقد كان المتوقع لدى هؤلاء هو ظهور ذلك النبى المنتظر وزاد هذا الأمر عندهم ، عندما أهملت الشريعة الموسوية ، وصار الدين الذى يبشرون به ، قانونا بلا وحى ، وذلك من خلال اللقاح التى حملت بذورها أقوال من ادعوا النبوة المتعددة ، قبل ظهور عيسى عليه السلام " فالأنبياءالاسرائليون غير الموحى اليهم قبل ظهورالمسيح كانوا يبشرون بالدين ، على أنه قانون الأمة الاسرائيلية فحسب " (١) .

ومن هنا كان ظهور ذلك النبى الجديد ، لأولئك القوم ، يبعث بين ظهرانيهم ، يقوّم لهم ماعجزوا عن فهمه ، ويقدم لهم ما لم يأت به غيره ، ويعمل جاهدا على إصلاح ما أفسدته أيديهم ، من بقية تعاليم ، وما خربته عقولهم من صالح دين تليد ، فما صارت نفحات يوحنا المعمدان تجدى ، وما كانت هبات النبى زكريا لتستمر ، وكيف يستقيم أمر أمة ، لا رابط لها من صلات ، ولا ضابط لها من شرع أو قانون يصون أمرها ويحفظ عقيدتها .

وقد علم أن أية أمة من الأمم ، مالم يربطها قانون الهى يعصمها ، ولا وحى سماء تهتدى به ولا بيان تنزيل يلمع شعاعه انقوى فيهم لينشد الأمن فى رحابه ، يكون أمر نهايتها وشيك الوقوع .

ومن هنا كانت بعثة عيسى عليه السلام اليهم ، وفى أمة بنى اسرائيل بخصوصها ، لتبقى نهايتها مؤجلة ، فقد يجدى العلاج وكأن خلقه على النحو الذى كان ليوقظ ضمائرها النائمة ، ويحرك فيها الأمانى ، ويدفع الى وجدانها بشائر الأمل الرحيبة ، بدل ساحات اليأس من رحمة الله عزوجل والقنوط مما عنده .

---

(١) اسبينوذا –رسالة فى الاهوت والسياسة صـ٣٤٢ ترجمة د/حسن حنفى

معالم بعثته عليه السلام :

الحديث عن بعثته ، يستلزم تناول النقاط الآتية ، ليمثل أمامنا تصور المبعوث والبعثة ، الرسول والرسالة ، خاصة اذا علمنا أنها كانت رسالة خاصة ، لخراف بيت اسرائيل الضالة .

والنقاط هى :

١- متى بدأت دعوته ؟

٢- معالم دعوته .

٣- هل حقق ماكانوا ينشدونه ، من أمل مرتقب فى النبى المنتظر لتحل مملكة الله التى لانهاية لها عليهم ؟ ويقيموا فيها الى الأبد ؟ وسنعمل على جمع المتفرق ، ولن يكون الا بقدر ما تسمح به الأدلة والعون من الله .

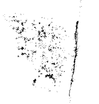
النقطة الأولى : متى بدأت دعوته ؟

الجواب هنا له شقان :

١- البداية الزمانية .

٢- البداية الكيفية .

والبداية بالكيفية مرتبطة بمن قبله من أشخاص ، كيوحنا المعمدان ، يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وما قبله من ملابسات ، اقتضت أن ينتشر خبره ويذاع أمره ، ويبدأ فى القيام بما كلف به من واجبات ، أمر بتبليغها من جانب مولاه جل وعلا ، ليقوم ببيانه واظهار فحواه ، وقد سردنا طرفا منها فى الفصل السابق مباشرة ، فليرجع اليه من شاء .



البداية الزمانية :

القائلون بأن عيسى عليه السلام ولد قبل الميلاد بأربع سنوات يرون أنه نبئ فى سن الثلاثين ، حين جاء يسوع ليتعمد على يد يوحنا وبالتالى فان ذلك المجئ والتعميد، إنما كانا تثبيتا " لرسالة يوحنا ، وتأكيدا لصدقها وعملها فى إعداد الأمة لمجيئه ، وإعلانا عن نيابته عن البشرية المحتاجة الى التوبة ، والأغتسال من الخطيئة ، وافصاحا عن كراهيته للخطيئة ، ووقوفه الى جانب البر ، وتسلمه مركزه الكهنوتى ، إذ كان قد بلغ الثلاثين من عمره ، وهى سن التجنيد عند الكهنة حسب الشريعة " (١) .

وعلى هذا الرأى تكون بداية دعوته زمانيا ، فى السنة السادسة والعشرين للميلاد المشهور ، وإن كان ذلك المشهور ، يخالفه أصحاب رأى آخرون ، أما كم كان يبلغ من العمر حين بلغ وبعث وهل كان بعثه بعد الأربعين ؟ أم كان قبل الأربعين على القول المشهور بأن الأنبياء يوحى إليهم فى سن الأربعين ؟ الجواب :

أنه ليس هناك إجماع من العلماء ، على أن الأنبياء وحيهم بعد الأربعين ، وليس هنالك نص يقول به ، ولكنه أمر شائع مشهور ، ودليلنا أن عيسى عليه السلام قد بعث فى سن الثلاثين باتفاق من كتبوا عنه ، سواء من رجال التاريخ ، أو من لهم قدم راسخة ويد طولى ، فى علم مقارنة الأديان

فالامام الشهرستانى يقول " وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة ، وقد أوحى الله تعالى اليه - عيسى - انطاقا فى المهد ، وأوحى اليه ابلاغا عند سن الثلاثين ، وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام"(١)

---

(١) القس ، الياس مقار . ايمانى ، أوقضايا المسيحية الكبرى صـ٤٥١

(٢) الامام الشهرستانى - الملل والنحل القسم الأول ط٢ الهامش ترجمة بن فتح الله بدران صـ٢٠١

وإن كانت مدة دعوته غير محددة ، بطريق موثقة ، فهى لم تنل الاجماع " اذ أن فترة الدعوة فى حياة عيسى ، اقتصرت بالتأكيد على بضعة أشهر وحتى على بضعة أسابيع ، والتقديرات الدقيقة غير متوفرة"(١)

والإمام الخازن يرى أنها سن الثلاثين ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى حاكيا عن عيسى عليه السلام " ويكلم الناس فى المهد وكهلا " ، فيقول " والكهل فى اللغة ، هو الذى اجتمعت قوته ، وكمل شبابه ، والكهل عند العرب ، هو الذى جاوز الثلاثين ، وقيل هو الذى وَخَطَه الشيب ، وهو السن الذى يستحكم فيه العقل ، وتتنبأ فيه الأنبياء " (٢) .

والخازن بهذا يوافق الشهرستانى ، الا أنه يخالفه فى بعض التفاصيل اليسيرة ، كالمدة مثلا ويبدو أن الشهرستانى أوثق فى المسألة " ومن ثم فهو بلا جدال ، مصدر يعتمد عليه فى الدراسة أو يستعان به على أقل تقدير"(٣) ورأية فى مقارنات الأديان يحتل مكانه باقتدار ، لأن له منهجا قام عليه ، ولاشتغاله به ، ولما له من أثر طيب فى الملل والنحل " (٤) ، بجانب ما امتاز به منهجه من التزام الدقة والضبط . (٥)

وهنا نقطة مثارة وهى أن القوم يحاولون التضارب بالتهم دون المنازلة بالأدلة ، ولعل ذلك ما هاجم به الأمام ابن تيمية الأمام الشهرستانى فيرى ابن تيمية أن الشهرستانى :

---

(١) د.شارك جنيبر المسيحية نشأتها وتطورها صـ١٤٣ الهامش ترجمة د.عبدالحليم محمود

(٢) الامام الخازن-لباب التاويل فى معانى التنزيل جـ١ صـ٣٠٥ ، المصحف المفسر صـ١٧٠ الاستاذ/محمد فريد وجدى .

(٣) د.محمد جابر عبدالعال الحسينى-فى العقائد والأديان ص٢٤٧

(٤) انظر كتابه الشهير الملل والنحل ومصارع الفلاسفة ومصار ع المصارع لترى بدقة كم نال الرجل من عناية .

(٥) انظر رسالة الماجستير نلزميل / احمد عبدالعال الجفاوى- منهج الشهرستانى فى التأريخ للاديان والمذاهب بكلية أصول الدين القاهرة

١- متهم فى عقيدته ونزاهته .

٢- متهم فى سلوكه وقدراته .

٣- متهم فى ابحاثه ومعلوماته .

٤- أنه منافق مداهن .

٥- أنه شيعى اسماعيلى .

" وبالجملة فالشهرستانى ، يظهر الميل الى الشيعة ، اما بباطنه أو مداهنة لهم ، فان هذا الكتاب ، كتاب الملل والنحل ، صنفه لرئيس من رؤسائهم ، وكانت له ولاية ديوانية ، وكان للشهرستانى مقصود فى استعطافه له " (١).

ونحن ننكر ذلك على ابن تيمية ، ونستنكر أن يكون الشهرستانى شخصا كهذا ، تدفعه الرغبة ويستولى عليه النفاق ، خاصة وأن اتهام الناس فى عقيدتهم ظلم كبير ، وخطر جسيم ، وقد قال الرسول ﷺ " من كفر مسلما فقد كفر" ، ومن كفر مسلما فقد باء بها أحدهما " أما لماذا ؟ فلأنه من المعروف ، أنه لايبقى للمرء شئ متى سلبت منه عقيدته ، ونحى عن دينه ، بأقوال غيره ، وربما بحكم جائر من مخالفيه ، وليس صدقا ما يتهم به الأعداء ، وماكنا ننتظر من ابن تيميه "- وقد ناله من الاتهام اكثر مما رمى به غيره ، مع انه عالم محقق ، وباحث مدقق - أن يسلب عن واحد كالشهرستانى ، مملكته العالية من العلم والمعرفة ويخال الى أن ابن تيمية لو روجع لرجع أو أن هذا القول منسوب اليه ، وليس صادرا عنه .

- وهناك رأى معاصر يؤكد أن عيسى قد بعث " وهو فى حوالى الثلاثين من عمره وكان لب دعوته التبشير بالروح ، وهجر الملاذ الضالة " (٢) وهناك أراء اخرى فى المسألة منها .



(١) الامام ابن تيمية-منهاج السنة جـ٣ مكتبة الرياض الحديثة بالمملكة العربية السعودية صـ٢٠٩

(٢) الدكتور / احمد شلبى - المسيحية صـ ٣٨

- قال ابن قتيبه " لما كان لعيسى ثلاثون سنة ، أرسله الله تعالى فمكث فى رسالته ثلاثين شهرا ، ثم رفعه الله تعالى " .
- وهب بن منبه – قال – جاءه الوحى على رأس ثلاثين سنة ، فمكث فى نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله " (١) .
- الشيخ الامام محمد أبو زهرة ، يقول رحمه الله " بعث عيسى عليه السلام ، ولم يرد فى القرآن الكريم ، ولا فى الآثار الصحاح بيان للسن التى بعث عند بلوغها عليه السلام ، ولكن ورد فى بعض الآثار أنه بعث فى سن الثلاثين ، وهى التى تذكر الأناجيل المعتمدة عند النصارى ، أنه بعث على رأسها ، ويصح لنا أن نفرض أنه بعث فى هذه السن ، على هذا الأساس " (٢) .
- الدكتور عبدالمتعال الصعيدى ، يقرر أنها سن الثلاثين ، وذلك

" لأن النبوة إنما تكون بعد الثلاثين ، فما فوقها " (٣) وبهذا نكون قد خلصنا من عرض وجهات النظر فى سن عيسى حين قام بتبليغ دعوته لقومه ، بداية زمانية ، مرتبطة ببلوغة سن الثلاثين ، على أرجح الأقوال فيها " .

غير أن ما يجعل الباحث يطلب المزيد ، هو ما للمقابلة والمقارنة من هيمنة على الفكر ورغبة البحث فى الدروب ، والعمل بحماس شديد على استبيان مناحى الجمال فى المقارنة ، كما أنه يساعد على كشف الخفايا ويزيل اللثام عن ما ثقل من أوزار يجعل الأيام تحتويها بيسر ، وتدخل الى لبابها من أقرب طريق .

---

(١) راجع تفسير الخازن جـ١ صـ٣٠٥
(٢) الشيخ الامام / محمد أبوزهرة- محاضرات فى النصرانية صـ١٧
(٣) الدكتور/عبدالمتعال الصعيدى- لماذا أنا مسلم صـ١٠٣

البداية الظرفية بالكيفية :

يميل كثير من الباحثين الى الربط بين بداية دعوة عيسى ، ونهاية حياة يوحنا - يحيى بن زكريا ، عليهما السلام - وكأنه قد راق لهؤلاء الكتاب استحالة وجود نبيين فى وقت واحد ، ولشعب واحد ، مع علمهم - ونحن - أن عيسى نبى ورسول ويحيى نبى فقط وبالتالى ، فان الاجتماع على غير بابه على الاطلاق ، ولكن سلب الاجتماع منهم خاصيه وجوده ، ونحن فى هذا الوميض لن نجرى مجراهم ولكنا سنفرد لرأيهم مكانا ونفسح لهم صدرا ، ثم نذكر ما نميل اليه .

وأن يوضع فى الاعتبار تلك المعالم التى سنذكر منها ما نرى القوم انعطفوا عليه ، وله فى فكرهم القدر المعلى .

(١) موت يوحنا :

يرى البعض أن معالم بداية دعوة عيسى عليه السلام ، موت يوحنا ولعل ذلك راجع عندهم الى بعض المظاهر الماثلة أمامهم ، والظواهر التى يبدو بريقها أمام أعينهم ، وسنلم بتلك الأقوال على هذا النحو .

١- انجيل متى :

يقرر أنه " لما سمع يسوع - عيسى - أن يوحنا ، أسلم لهيرودس ، أنصرف الى الناصرة ، وترك الناصرة ، وسكن فى كفر ناحوم ، وابتدأ رسالته داعيا الى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت الله ، ملكوت السماوات"(١).

ونحن اشد ميلا الى أن تسليم يوحنا لهيرودس ، كان مصادفة ، مع اهتمام عيسى بالدعوة الخاصة به ، وتكليفه للقيام بمهامها ، وتوافق

---

(١) انجيل متى ٤/١٣-١٨

الأحداث ليس معناه أن عيسى كتم فى صدره أمره ، حتى تـم القبـض علـى يوحنا ثم أعلن دعوته ورفع رايتـه ونحـن أكثر ميـلا الـى أن القبـض علـى يوحنا ، والقضاء عليه كان مصادفة ، لا علاقـة لهـا بتكليـف عيسـى عليه السلام ولاعلاقة لها باعلان دعوته .

ونحن لا نوافق من يقول أن عيسى كتم فى صدره ، حتى مات يوحنا ، والا فمعناه جواز الاخلال برسالة الرسول من جهة ، ومن جهة أخرى فانه يوحى بأن عيسى كان مجرد ثائر ، يطالب بدم يحيى ، من دولـة قاتليـه ، ومثل انجيل متى حكت بقية أناجيل العهد الجديد ، ممـا يعتبر تكرارا فـى عمل كهذا لا قيمة له .

٢- الدكتور أحمد شلبى :

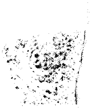
يقول : " وقد بدأ المسيح دعوته بعد ان بلغـه مـوت يحيـى ، ويقـال ان زكريا مات فى هذه الفتنة التى مات فيها ابنه " (١) ومثل هذه الكتابات تنقـل اما عن الأناجيل وما تصوره ، واما عن وحى الخيال ومـا يلقيـه فـى روع المحب الولـه ، والعاشـق الهيمـان ، وكـم كنـا نـود أن يميـل الكتـاب الـى التمحيـص الدقيـق فـى كـل نقطـة صغرت أو كبرت ، مـادام الحديث عن الأديان ومقارناتها .

٣- الأستاذ عباس محمود العقاد :

يتصور عيسى بطلا مغوارا ، مقاتلا مطلبا فـى ثيـاب نبـى وديـع لبنـى اسرائيل وثائرا لا يهادن فى شكل وحى سـماوى ، يندفـع الـى قـاتلى يحيـى مطالبا بزوال مملكتهم ، وهدم عاصمة دولتهم " فلما قتل يوحنا لم يرهبه

---

(١) الدكتور / احمد شلبى -المسيحية صـ٣١



مصرعه الأليم ، ونهض بأمانة الدعوة بعده فى بلاد الجليل ، ثم فى بيت المقدس ، وفى الهيكل الأكبر معقل الأحبار والكهان ، وعاصمة الدولة الدينية فى بنى اسرائيل"(١) .

وكأن عيسى جاء ، مكملا لما يقوم به يحيى ، مع أنه يخل برسالته ، ويجعلها من بنات فكره ، ووحى خياله ، وتلاقى عواطفه الدفينة المطالبة بالثأر لمقتل يحيى الذى تجمعهما صلة قرابة نسبية " (٢) .

٤- هناك رأى آخر أقرب للقبول ، رفض عقدة الربط التلازمية هذه ، وقرر " أنه بعد مقتل يوحنا ، أوحى الله الى المسيح عيسى ابن مريم برسالة السماء " (٣) ولعل هذا الأخير أخلد فى الوجدان من سواه ، وأيسر عند الدفاع ، إذ من توافق حادثة وأخرى لا يمكن أن تجزم بأن الأولى أصل للثانية ، مادامت الألفاظ تتسع والمعانى تحتمل ، لأن حوادث الكون المتوافقة لا نهائية العدد ولأن الأعداد أرقام خيالية لا وجود لها إلا فى الذهن ، أو أرقام ذهنية تجريدية ، ولم يقل واحد من الناس ، ان هذه الحادثة علة فى الثانية ، أو تابعة لها ، اللهم إلا ما كانت العلية فيه مشروطة ، كالأبوة والنبوة ، والألم والمتألم وما فى حكمهما .

---

(١) الاستاذ/عباس محمود العقاد-الله كتاب فى نشأة العقيدة الالهية صـ١٤٣

(٢) سبق الحديث أن مريم ابنة خالة يحيى ، حيث أن اليصابات زوج زكريا وأم يحيى أخت لحنة بنت فاقوذا أم مريم رضى الله عنها ، والتى ولدت عيسى ، راجع الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب

(٣) الدكتور / رفقى زاهر - قصة الأديان صـ ١٤٣

البداية المكانية :

وهى تكاد تكون معروفة ، إذ أن عيسى قام بدعوته فى بيت اسرائيل خاصة لأنها لم تكن فى يوم من الأيام دعوة عالمية من قبل مؤسسها - عيسى عليه السلام ، فقد كان ينادى دائما " لم أرسل الا لخراف بيت اسرائيل الضالة " (١) وعلى هذا فهى دعوة مكانها محدد محصور ، فى أرض - فلسطين ، وعلى الأخص فى الجليل .

وتذكر بعض الأناجيل أن عيسى عليه السلام ، تعمد من يوحنا فى الأردن ، ثم رجع فى حرب مع الشيطان ، وقصة التجريب والاختبار مشهورة عندهم ، ولما نجح عيسى فى اختبار الشيطان له - حسب ما تزعمه الأناجيل الكنسية " رجع يسوع بقوة الروح الى الجليل وخرج خبر عنه فى جميع الكورة المحيطة وكان يعلم فى مجامعهم ممجدا من الجميع وجاء الى الناصرة حيث كان قد تربى " (٢)

وحسب ما تزعمه تلك القصة يكون عيسى عليه السلام ، ابتدأ دعوته بالجليل ثم الناصرة ، ثم انطلقت دعوته من بدايتها المكانية بالجليل لتشمل أرض اليهودية كلها ، حتى بيت المقدس ، وجميع أرض فلسطين ، وهو المكان المخصص ككل لتلك الدعوة الوليدة - عيسى والنصرانية

(٢) كلامه بالحكمة وصنعه المعجزات :

ما كان لعيسى أن يفعل شيئا وحده ، الا أن الله أعانه ، والمولى عزوجل يقول " ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل " (٣) وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل " (٤) وقد علمه الله ما وعاه ، وأدخل

---

(١) متى ١٥ / ٢٤

(٢) لوقا ٤/١٤-١٦

(٣) آل عمران الآية ٤٨

(٤) سورة المائدة الآية ١١٠

في سويداء فؤاده الحكمة فأحبها ، ومنحه الله كمال التوراة وما فيها من معان فياضة ، واحكام راقية فصار اليها ودنت منه ، وحفظها واستظهرها يوم أن كان أصحابها يكيدون له .

وكان يتخلف عنهم ليطالع كتب الأولين ، وكانت عناية الله تلقى فى روعه بالأمان فاطمأن ، وفى وجدانه يسر الوحى فانفتح له ، ثم أنزل الله عليه الانجيل بشارة له ، ومنة من الله عليه ، فقد نشأ عيسى وتربى غلاما طاهرا وذلك ما يبدو فى وضوح ، حين جاء الملاك ليخبر مريم بوليدها ، وحكاه القرآن الكريم " قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا " [١].

وكان ذكاء عيسى واضحا فى ترتيبه أمور نفسه ، ومحاولة استغلال امكانياته منذ طفولته ، ثم توجيه ملكاته ، وما ذلك الا نوع من الحكمة ، التى هى وضع الشئ فى موضعه ، حتى إذا شب ويفع زاد استخدامه لهذا الذكاء ، وعلت مملكاته العقلية ، فألهمت وجدانه ،وراح يخرج الحكمة فى أسلوب عملى مرة ، وفى شكل خطابى مرة ، وفى صورة نصائح عامة مرة أخرى وان كانت حكمته القولية غلب فيها جانب ضرب الأمثال على غيره .

وراح الناس يتأملون كلامه ، فاذا هو حكمة منطوقة ، وينظرون سلوكه فاذا هو حكمة مصنوعة ، فأدركوا ان ما بداخله متسم بحكمة أرقى مما حفلت بها رؤس كهانهم ، وصار الناس يرتادون بيته طالبين منه أن يعطيهم الحكمة التى صارت دليلا عليه حينئذ.

---

(١) سورة مريم الآية ١٩

ولم يتجشموا منه أبدا ، وكان يميل الى العزلة ، حتى إذا ما شاع خبر رسالته ، وقف الفقراء يلوحون اليه طالبين أن يتقدم للأخذ بأيديهم بينما نظر إليه اخرون على أنه متسلط فقير يحاول إقامة هرم له على أكتاف غيره من أنبياء بنى إسرائيل فجحدوه رغم معرفتهم بأخباره ، وكفروا به رغم أنهم فى إنتظاره ولم يصدق عندهم أنه المسيح المنتظر .

صنعه المعجزات :

كانت معجزة عيسى من جنس ما برع فيه قومه ، وهو الطب ، فلما جاء عيسى طالبوه بالمعجزة ، فكانت براعته فى طبهم رغم عدم سابق تعلمه له ، إلا أن خصومه أنكروه نبيا ، وجحدوا أن يفعل عيسى ذلك الفعل ، إلا من خلال جمهرة الشياطين ، الذين يعاونونه على ما يقوم به ويعينون ، وهنا تردد مقولة حكيم :

دع الحسود وما يلقاه من كمده   يكفيك منه لهيب النار فى كبده
وان لمت ذا حسد فرجت كربته   وان تركته فقد قتلته بيده

وما كانت معجزة عيسى لتتم له دون معاونة واضحة يريدها المولى عزوجل ، بل ان البارى جل وعلا هو الذى أرسله وهو الذى بالمعجزات أيده وهو الذى أرشد الى ذلك كله بوضوح حين قال عز وجل " الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم

عليكم . وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم"(١) .

ومن هنا فان بعض المعجزات التى قام بها عيسى عليه السلام ، كانت بمثابة اعلان تام عن نبوته ، وبيان عملى جرئ واضح فى أمر النبوة ، إذ هو يتحداهم فى أمر برعوا فيه الا أنه رفع الأمر من بين أيديهم ، وليجاروه فى أمور ثلاثة ، ان كان لهم الى ذلك سبيل ، أو لهم امكانية قائمة راغبة فى التحدى .

والأمور الثلاثة هى :

١- نفخ الروح فى فاقدها فيتحرك بها وينطلق " إنى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله " .

٢- ابراء المرضى من الأمراض المستعصية فى أعرافهم ، بل واعادة الروح للميت الذى سلبت منه " وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحى الموتى بإذن الله .

٣- أخبارهم عن أمور الغيب التى يكون وقوعها وشيكا ، بل هى واقعة أصلا ، ولم يكونوا يعرفونها " وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لأية لكم إن كنتم مؤمنين " بل ان الأمور الثلاثة التى وقف عيسى عندها ليتحدى القوم بها ، ربما كان منها ماهو متحصن داخل بيوتهم ويمكنهم معرفته ، الا أن عيسى يتحداهم فى ذلك ويؤكد معرفته بما يخبئونه داخل بيوتهم .

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٤٧ - ٥١

وهكذا راحت المعجزات تتأخى فى سبيل إعلان عيسى عن نبوته تصديقا له من الله ، يجريها على يديه ، ليحرك ضمائر القوم وعقولهم فى الاتجاه نحوه علهم يندفعون اليه فى طريق الإيمان بالاله الخالق جل وعلا منزهينه عن المشابهة والمماثلة ، متجهين اليه وحده فى الضراعة والدعاء.

شيوع أخبار بعثته عليه السلام :

تكلم عيسى بالحكمة التى حفظها فؤاده ومن توراة مأثورة ارتوى ، وراح حكماء عصره يجدون فيه تفوقا ونبوغا ، زاد فيهما متابعته العميقة لأولئك الرواد الأوائل الذين امتص الأمل من بريق عيونهم اللامعات ، ويبدو أن تراتيله كانت تصل بعمق الى مسامع هؤلاء وأولئك . وكان لها فى فؤاده نغم شجى ، تضاعفت أصداؤه حتى صارت حكمته دليلا عليه .

وجاءت المعجزات التى أيده الله بها ، تتحدث عن الروح وتخاطب الوجدان وأن ملاذها والملجأ هو الخالق جل وعلا ، وكانت معجزاته أخذة بزمام العقول ، رابضة على مناحى الأمل ، فتلك شابة يافعة فارقتها الحياة وأهلها يريدون أن يسمعوا منها آخر آمالها ، فيجدون عيسى بينهم يطالبونه إعادة الحياة اليها ، ان كانت دعواه النبوة صحيحة ، فيقف عيسى عند قبرها ، وينادى عليها ، فتخرج ملفقة أكفانها بين يديها كأنها عروس تبدت فى أكمل زينة لها ويعلن أن ذلك بفضل الله " وأحى الموتى بإذن الله ".

- وذاك شاب أبرص ، كم يتمنى أهله أن يتم برؤه ، فيلمسه عيسى فيبرأ ما به من برص ، وثالث فاقد الإبصار ، يحتاج الى من يدله الى منافذ الطرق ، فيجد الفرصة متاحة له ، وقد اقتربت يد عيسى منه ، فراح يرى الضوء الذى حرم منه سنوات طوال ، وراح عيسى يحقق لهؤلاء وغيرهم

باذن الله تعالى ما يعتصم بأحلى أمانيهم ، ولذا اعتقد القوم انه شخص ليس عاديا ، ربما له طرف من علم غيبى ، أو موصول بسبب الى السماء ، أو مسته مردة يعينونه على ما يريد .

شاعت هذه الأخبار عنه ، ففطن العقلاء الى ما يجرى على يديه ، أيقنوا أنه المسيح المنتظر ، وهنا نجده يعلن على الملأ منهم ، فى رسالة عامة " لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل " (١) وهو بهذا يعلن أنه جزء من حلقة سابقة ، قطع فيها اخوانه من الأنبياء رحلتهم للقيام بما أمرهم الله تعالى به.

ولعل القرآن الكريم قد حدد مهمة عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : " ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم . واتيناه الانجيل . وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون " (٢) اذن عيسى عليه السلام جاء تتمة لأنبياء بنى اسرائيل ، وايذانا بأن النبوة اللاحقة له ستكون فى العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

والقرآن الكريم يضع القضية مرة أخرى موضع التنبيه فيقول تعالى : " وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، واتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين " (٣) ولعله من الواضح بمكان ، أن نذكر هنا أمرا يجب التنبيه اليه ، وهو أن القرآن الكريم ، يقول " ومصدقا لما بين يديه من التوراة " ولم يقل ومصدقا للتوراة ليدل على أمرين :

(١) متى ١٧/٥ (٢) سورة الحديد الآية ٢٩ (٣) سورة المائدة الآية ٤٦

الأول :

أن التوراة حرفت فى أكثر مواضعها ، وذلك شأن بنى اسرائيل مع كتب الله وتعاليمه وأنبيائه ، وأن ذلك التحريف تسبب فى فقدان الكثير من أحكامها ، وبالتالى فان الضياع الذى لحق بالتوراة والتعاليم يحتاج الى من يعيده أو يجبره ، حتى لايضل أحد به ، أو يشقى فيه ، وأن عيسى جاء ليصدق الجزء الذى مايزال محفوظا كبعض تعاليم ونصائح خلقية ، وأنه سيعمل من خلال ما يوحى اليه ، على تكملة التوارة والشريعة فى بنى اسرائيل " ما جئت لانقض الناموس بل لأكمل " (١) .

الثانى :

أن عيسى كنبى من أنبياء الله ورسول من رسله ، يحمل موازين دقيقة ، من وحى الله تعالى تفصح عنها رسالته ، وبالتالى فان ما يعرض عليه من أجزاء التوراة سينظر اليه عيسى - ومعه موازينه ، ليدل على صدقه من عدمه ، وصحته من بطلانه ، فاذا ما رآه صحيحا ، اعترف به وصدقه وما وجده منها غير صحيح أنكره وكذبه ، بجانب أن ما تلى على اسماعه منها وهو صغير ، مايزال ينطق به لسانه ،ويهتف له فؤاده ، ومن هنا فان التميز سيكون سهلا ميسورا .

والميزان الواضح لديه ، سوف يكون هو الانجيل ، الذى يجب أن يوحد فيه الخالق ، وان يؤمن بالرسل جميعا والملائكة واليوم الأخر وكل الاصول المشتركة بين رسل الله تعالى ، وقد يكون شأن القوم - اليهود - أن يعرضوا جزءا مما فى أيديهم من التوراة على كل نبى ، ليعرفوا ما اذا

(١) متى ٥/ ١٧

كان مرسلا من الله ، أم مدعيا للنبوة ، وقد عرض مثله على الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ ، فنهى عن قراءته فى حديثه المشهور " لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم " (١) ، وهكذا شاعت أخبار بعثة عيسى عليه السلام وانتشرت ٠

اعلانه النبوة والبعثة :

بعد الذى مضى ، لم يعد لعيسى مفر ، ومابقى عليه الا أن يعلن على الملأ أنه :-

١- رسول الله اليهم ، جاء ليجدد لهم علاقتهم بالله الخالق العظيم جل علاه ويعلن التوحيد الذى شوهه اليهود ٠

٢- مكمل للشريعة فى بنى اسرائيل ، وأنه لايختلف عن موسى عليه السلام فى عقيدته نحو الله جل وعلا .

٣- لايختلف عن أنبياء بنى اسرائيل الذين كانت أصوات دعواتهم تعلو فى بنى اسرائيل ، معلنة التوحيد وكافة صفات الجلال والجمال والكمال .

٤- الى بنى اسرائيل خاصة ، من دون البشر ـ لخراف بيت اسرائيل الضالة وأنها دعوة اقليمية وليست دعوة عالمية .

٥- اذا ما تعرض للايذاء ، فلن يكون له الا ما كان من موسى عليه السلام مع قومه ، وقصه القرآن الكريم " واذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين " (٢)

---

(١) صحيح مسلم جـ١
(٢) سورة الصف الآية ٥

إذن لم يختلف عيسى عن موسى ، ولم يختلف سيدنا ﷺ عن سيدنا عيسى ، ولم يختلف اسحاق عن ابراهيم ، بل الجميع حاولوا تعبيد الناس نحو خالقهم العظيم جل وعلا وقامت دعواتهم على أسس واحدة ، مصدرها واحد ، وغايتها واحدة وهى :

١- التوحيد لرب العالمين فى الاعتقاد والعبادة ٠

٢- الايمان بالرسل والأنبياء جميعا حسب ما أمر به جل وعلا ٠

٣- الايمان بالغيب والكتب والملائكة وكل ما أخبرت به الرسل ٠

٤- الايمان باليوم الآخر ، بما تعنيه تلك العقيدة البعثية الأخروية ٠

" والكل نادوا بنفس الرسالة ، التوحيد ، العمل الصالح ، توحيد اللـه ، والاخلاص له فى العبادة ، والتعاون بين الناس فى الخير وكف الأذى ، والعدوان والأستشراق الى المثل العليا " (١) ٠ يقول المولى عز وجل لأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ ، قاصا على سمعه حكاية الأنبياء مع أقوامهم " مايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم " (٢)

والقاسم المشترك بين الأنبياء فى دعواتهم ، يقابله قاسم مشترك من أقوامهم فى تعنتهم وعدم أيمانهم ، الاما استثناء الله من قوم يونس عليه السلام ، وذلك كله يؤكد طبيعة واحدة هى أن الرسل يتحدون فى التوجه الى الخالق وصفات الجلال والكمال ، كما أنهم مشتركون فى التعرض والايذاء وان كانت درجة التعرض والايذاء تختلف فى الكفية والكمية احيانا ٠

---

(١) الاستاذ/ محمد مجدى مرجان - الله واحد أم ثالوث؟ صـ ١٦٤

(٢) سورة فصلت الآية ٤٣

ثم أنهم جميعا متفقون على تعبيد الناس جميعا لخالقهم العظيم الله الواحد الاحد وتذكيرهم باليوم الآخر والدعوة الهادفة الى العمل والاخلاص٠

وهكذا سارت الامور مع عيسى عليه السلام ، وانتشر الخبر بين الجميع ومابقى الا أن يقترب القوم منه ، لتعم التعاليم فى العقيدة والشريعة وليتجدد لديهم ماعصفت به يد العبث ، وكان صلب دعوته يقوم بالعقيدة والشريعة والاخلاق ، وما يخص الله وحده ، وعلاقته بالمخلوقين ، ثم أخيرا علاقة الانسان باخوانه وغيرهم ، ثم علاقة الله بذاته فى تلك العقيدة ٠

أقترب الناس من عيسى ، حتى اذا ما تلى عليهم بيانا واضحا محددا بأصول دعوته ، أنقسموا بين مؤيد ومعارض ، موافق ومعاند ، الا أنه لم يكن ليأبه بهم ، أو يخيفه سلطانهم بل كان على التوالى يردد على أسماعهم وحى الله اليهم ، وضاعف من مجهوداته حتى أرتسمت أصول تلك الدعوة فى مخيلتهم لدى المؤيدين والمعارضين فى شعبه من بنى اسرائيل ٠

وراحت بعض تعاليمه تجذب الفقراء اليه ، حتى هب الأديب الروائى "ديسكوفيسكى " يصرخ بأمله فى وجود المسيح ثانية حماية للفقراء وجاءت صرخته فى روايته الأخوة كورمازوف ، متحدثا على لسان احد ابطال المسرحية – ميتيا – قائلا " لست فى حاجة الى الملايين ، ولكنى فى حاجة الى من يجيبنى على أسئلتى ؟ [١]

---

(١) راجع الأخوة كورمازوف للاديب " ديسكوفيسكى "

وكانت تلك التعاليم ، تدفع الانسان الى ملكوت السماوات وهو الجزاء الموعود للطيبين الصالحين من الناس " انه لايدخله الا من عمل له فى هذه الحياة الدنيا ، وآثر صلاح روحه على مطالب جسده " (١) ، وكانت ترانيم الوحى تعلو علىأسماعهم فيتلقونها بحب غامر ، وقلب متفتح وذلك ما سنلم بطرف منه فى الفصل القادم ملامح دعوته من القسم الثانى أن شاء الله تعالى ٠

بعد

فلعلك عزيزى القارىء ، قد طفت معنا ، وشعرت بقدر ما عانينا فى رحلتنا التى ابتدأت من حيث عرفت ، ووصلت الى حيث طالعت وليتها اغرتك ، فكن عليها الاب الحانى ، ولها الام الرؤم ، وها نحن نستلهم خواطرك النبيلة ، فماذا أنت مزمع تسجيله من خواطر على ما طالعت حتى نلتقى فى القسم الثانى ، من رحلتنا إن شاء الله تعالى٠

---

(١) الاستاذ/عبدالكريم الخطيب-الله والانسان ص٢٥٦ دار الفكر العربى بمصر ٠

المراجع

* **١- القرآن الكريم**
* **كتب التفسير :**

٢- البحر المحيط - الامام أبوحيان.

٣- الجامع لأحكام القرآن - الامام القرطبى .

٤- مفاتيح الغيب - الامام الفخر الرازى .

٥- تفسير المنار - الامام محمد عبده ، والامام محمد رشيد رضا .

٦- تفسير القرآن العظيم - الامام ابن كثير .

٧- تفسير مقاتل - مقاتل بن سليمان الزيدى .

٨- المصحف المفسر - الأستاذ / محمد فريد وجدى .

٩- التفسير الوسيط - لجنة من العلماء بمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

١٠- لباب التأويل فى معانى التنزيل - الامام الخازن .

١١- لطائف الاشارات - الامام القشيرى .

١٢- كلمات القرآن تفسير وبيان - المفتى حسنين محمد مخلوف .

١٣- الدر المنشور فى التفسير المأثور - الامام السيوطى

١٤- التفسير والمفسرون - محمد حسين الذهبى

١٥- مناهل العرفان فى علوم القرآن - للشيخ الزرقانى

* **كتب السنة :**

١٦- صحيح الامام مسلم

١٧- سنن ابن ماجه .

١٨- سنن البهيقى .

* **كتب العهد بين القديم والجديد :**

١٩- الكتاب المقدس - العهد القديم .

٢٠- انجيل متى .

٢١- انجيل يوحنا .

٢٢- انجيل مرقس .

٢٣- الرسائل المكملة للعهد الجديد .

٢٤- انجيل برنابا - عوض سمعان .

* **مراجع عامة :**

٢٥- الأمومة فى الأسلام - المركز الدولى الاسلامى بجامعة الأزهر .

٢٦- انجيل برنابا - دراسة حول وحدة الدين - طبعة المنار سيف فاضل.

٢٧- طبيبك الخاص العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٨٢ م .

٢٨- مجلة الاخاء الإيرانية .

٢٩- مختصر التعليم المسيحى - الرابطة الكهنوتية .

٣٠- مجلة المصور المصرية العدد ٣٧٣١ ابريل ١٩٩٦م

* **مراجع متنوعة :**

(أ)

- الشيخ ابراهيم البيجورى .

٣١- تحفة المريد على جوهرة التوحيد - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦٧ م .

- الأستاذ الدكتور / أحمد شلبى .
٣٢- المسيحية .
- ابن اياس .
٣٣- بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
- شيخ الإسلام / أحمد بن تيمية .
٣٤- درء تعارض العقل والنقل .
٣٥- منهاج السنة جـ ٣ طبعة السعودية .
٣٦- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - مطبعة المدنى بمصر
- ابن القيم الجوزية - الامام -
٣٧- هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى .
- أحمد أمين - الأستاذ
٣٨- ضحى الاسلام ط ٨ .
- أنور الجندى - الأستاذ .
٣٩- الاسلام والفلسفات القديمة - دار الاعتصام .
- اسبينوزا - الفيلسوف .
٤٠- رسالة فى اللاهوت والسياسة - ترجمة د/ حسن حنفى .
- الياس مقار - القس .
٤١- ايمانى - أو قضايا المسيحية الكبرى .

(ب)

- بولس فرج بولس - القس
٤٢- الله واحد فى ثالوث .

(جـ)

جوستاف لوبون - الأستاذ .
٤٣ - حياة الحقائق - ترجمة الأستاذ / عادل زعتر .
-جوشى مكدويل - الأستاذ .
٤٤- برهان يتطلب قرارا على صحة الايمان المسيحى - دار الثقافة بمصر .

(د)

- دانتى - الشاعر الايطالى .
٤٥- الكوميديا الالهية - الفردوس .

(ر)

الأستاذ الدكتور / رفقى زاهر
٤٦- قصة الأديان .
- رؤوف عبيد - الأستاذ الدكتور .
٤٧- مطول الانسان روح لا جسد ط ٣ جـ ١

(ز)

- زكى مبارك - الأستاذ الدكتور .
٤٨- الأخلاق عند الغزالى - مطبعة الشعب بمصر .
- زكى شنودة - القس .
٤٩ - تاريخ الأقباط .

(س)

- الأستاذ الدكتور / سليمان سيد أحمد دنيا .

٥٠- الشيخ محمد عبده بين المتكلمين والفلاسفة قسم ٢ ط الحلبى

- الأستاذه / سنية قراعة .

٥١- الرسالات الكبرى - المركز الدولى للصحافة .

- الأستاذ / سعيد العريان ، وحسن علوان .

٥٢- التربية الدينية .

- السيد الشريف الجرجانى .

٥٣- التعريفات ط الحلبى .

- الاسفراينى

٥٤- التبصير فى الدين وبيان الفرقة الناجية .

(ش)

- شارل جنيبر - الأستاذ

٥٥- المسيحية - نشأتها وتطورها - ترجمة د/ عبدالحليم محمود .

- الشهرستانى - الامام عبدالكريم .

٥٦- نهاية الأقدام .

٥٧- الملل والنحل القسم الأول تخريج د/ محمد بن فتح الله بدران .

(ص)

- الدكتور / صابر عبدالرحمن طعيمة.

٥٨- الماسونية ذلك العالم المجهول - دار الجيل ببيروت.

(ع)

- عبدالمتعال الصعيدى - الأستاذ الدكتور .
٥٩- المجددون فى الاسلام .
٦٠- لماذا أنا مسلم ؟
- على محمد العمارى - الدكتور .
٦١- أسرار البيان - الجامعة الأزهرية .
- على عبدالواحد - الأستاذ الدكتور .
٦٢- الأسفار المقدسة .
- على يوسف - الأستاذ الدكتور .
٦٣- الأمثال فى القرآن الكريم ، وأثرها فى الدعوة الى الله .
- الأستاذ الدكتور المرحوم / على محمد جبر .
٦٤- محاضرات فى علم الكلام .
- المرحوم الشيخ / عبدالرحمن الجزيرى .
٦٥- أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحين فى الاسلام - مطبعة الارشاد .
- الأستاذ / عباس محمود العقاد .
٦٦- - الله - كتاب فى نشأة العقيدة الالهية .
٦٧- عبقرية المسيح .
٦٨- حياة المسيح .
- القس / عوض سمعان .
٦٩- فلسفة الغفران فى المسيحية .
- الأستاذ الدكتور / على محمد جريشة وآخر .

٧٠- أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى .
- الأستاذ الدكتور / عثمان أمين .
٧١- الجوانية - أصول عقيدة وفلسفة ثورة دار القلم .
- الأستاذ / عبدالكريم الخطيب .
٧٢- الله والانسان - دار الفكر العربى بمصر .

(م)

- الامام الشيخ / محمد أبو زهرة .
٧٣- محاضرات فى النصرانية .
٧٤- تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ٢ فى تاريخ المذاهب الفقهية .
- الامام / محيى الدين بن عربى .
٧٥- تاريخ الطبرى .
٧٦- الفتوحات المكية - تحقيق د/ عثمان أمين .
- الأستاذ الدكتور / محمود محمد مزروعة .
٧٧- المسيحية .
- الأستاذ / محمود زهران .
٧٨- قصص من القرآن - مكتبة غريب .
- الأستاذ الدكتور / محمد الطيب النجار .
٧٩- تاريخ الأنبياء فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية - دار الاعتصام .
- الدكتور / محمد مصطفى الفولى .
٨٠- بعض مظاهر التقدم فى العلوم البيولوجية - الهيئة المصرية العامة .

- الدكتور / موريس بوكاى
٨١- دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة-دار المعارف.
الامام الشيخ / محمد رشيد رضا .
٨٢- الوحى المحمدى ...
- الشيخ / محمود محمد خطاب السبكى .
٨٣- الدين الخالص .
- الأستاذ الدكتور / محمود بن الشريف .
٨٤- الأديان فى القرآن الكريم - دار المعارف .
- المرحوم الشهيد الأستاذ الدكتور / محمد حسين الذهبى .
٨٥- التفسير والمفسرون - دار النهضة المصرية .
- المرحوم الشيخ / محمد عبدالعظيم الزرقانى .
٨٦- مناهل العرفان فى علوم القرآن .
- الامام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت .
٨٧- الفتاوى طبعة ٨- دار الشرق .
- الدكتور / محمود توفيق الحفناوى
٨٨- مصر والعرب عبر التاريخ - دار الفكر العربى .
- محمد محمد الغزالى- أبو حامد .
٨٩- ميزان العمل ..
- الشيخ المرحوم / محمد المدنى .
٩٠-الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية تحقيق الشيخ / النووى.
- الامام الشيخ / محمد متولى الشعراوى .

٩١- مريم والمسيح جمع واعداد عبدالقادر احمد عطا- دار التراث ١٩٨٣ .

- الدكتور / محمد جابر عبدالعال الحسين .

٩٢- فى العقائد والأديان .

- الأستاذ / محمد مجدى مرجان .

٩٣- الله واحد أم ثالوث ؟

(ن)

- الأستاذة الدكتورة / نجيبة الحضرى .

٩٤- علم النفس والأخصائى الاجتماعى ط مكتبة عين شمس .

(ى)

- الأستاذ الدكتور / يوسف عزالدين عيسى .

٩٥- الله أم الطبيعة ؟ دار المعارف بمصر .

الفهرس

ملحوظة :

أود أن أشير الى أننى قد حذفت القسم الثانى مـن هذا الكتاب والذى كان مدرجا بصفحات ٢٩٧حتى نهاية الكتاب ، نظرا لارتباط القسم الثانى بالعقيدة والشريعة والأحكام بين المسيحية والاسلام ، وتخفيفا على الطلاب ٠

((كتب صدرت للمؤلف))

١ ـ الايمان بالغيب وأثره على الفكر الاسلامي ـ مكتب شروق بالزقازيق ١٩٩٥م طبعة أولى ، والطبعة الثانية / القاهرة ١٩٩٧م .

٢ ـ أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ـ مطبعة غريب ١٩٩٥م نفذت الطبعة الأولى وجاري صدور الطبعة الثانية .

٣ ـ رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق ـ مكتب شروق بالزقازيق ١٩٩٥م . نفذت الطبعة الأولى وجاري صدور الطبعة الثانية .

٤ ـ حبو الوليد في علم التوحيد ـ مكتب شروق بالزقازيق ١٩٩٥م نفذت الطبعة الأولى وجاري صدور الطبعة الثانية .

٥ ـ غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق ـ مكتب غريب ١٩٩٦م نفذت الطبعة الأولى وجاري صدور الثانية .

٦ ـ وميض النصرانية بين غيوم المسيحية ـ مطبعة صنعاء بالأسدية ـ أيمن المردلي ١٩٩٦م بالشرقية والطبعة الثانية ـ مؤسسة الشروق بالزقازيق ٦ ١٩٩٧م .

٧ ـ حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ـ مطبعة صنعاء بالأسدية شرقية ١٩٩٦م ..

٨ ـ درة المدد بتفسير سورة المسد ـ مطبعة صنعاء بالأسدية شرقية ١٩٩٦م . ...

٩ ـ حفيف الأفنان في الملل والأديان ـ مكتب الأصدقاء بخزالة ـ هشام الشهيدي ١٩٩٦م .....

١٠ ـ ديوان التائه الغريب ـ مكتب الأصدقاء بخزالة ١٩٩٦م .

١١ ـ خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ـ مكتب شروق محمد كمال بالزقازيق ١٩٩٦م .

١٢ ـ أنات حائرة ـ مكتب شروق محمد كمال بالزقازيق شرقية ١٩٩٦م .

١٣ ـ لماذا انتشر الاسلام جـ ١ ط ٣ مطبعة الشروق بالزقازيق ١٩٩٧م .

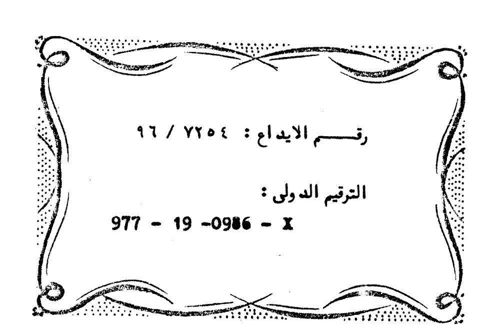
١٤ ـ قيمة الصراع بين الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام جـ ١ ط ٣ مطبعة الهدى بالزقازيق ١٩٩٧م .

١٥ ـ أوراق منسية في النصوص الفلسفية ـ مؤسسة الشروق بالزقازيق ١٩٩٧م .

١٦ ـ أوراق مطوية في التصوف والصوفية ـ مؤسسة الشروق بالزقازيق ١٩٩٧م .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx



رقـــم الايداع : ٧٢٥٤ / ٩٦

الترقيم الدولى :

977 - 19 -0986 - X